


مجتمع
يسوع
تقاليدُه وعاداتُه

طُبع هذا الكتاب بمساهمة عائلة جرجي نعمة الله عقّاد

الأب سامي حلّاق
اليسوعيّ

مجتمع يسوع

تقاليدُه وعاداتُه

دار المشرق – بيروت

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت في ١٩٩٨/٩/٦

دار المشرق ش.م.م. ص.ب. ٩٤٦، بيروت - لبنان

ISBN 2-7214-4870-6

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
سنّ الفيل، ص.ب. ١٩٨٦، لبنان

مقدمة

كانت حياة يسوع المسيح وتعاليمه محطّ اهتمامٍ كثيرٍ من الباحثين المسيحيّين وغير المسيحيّين، ولا تزال. ويصعب على المرء إحصاء عدد الكتب التي تناولت النصوص الإنجيليّة وشرحتها، سواء بطريقةٍ تحليليّة أو روحيّة أو نفسيّة... وبات من الصعب تأليف كتابٍ في ذلك المجال بدون السقوط في شَرَك التكرار. لكنّ البعد الزمنيّ الذي يفصلنا عن الأيّام التي عاشها يسوع في فلسطين، وتغيّر العادات والتقاليد، ألقيا نوعًا من الغشاوة على النصوص الإنجيليّة، وصعّبا فهمها في إطارها التاريخيّ، ممّا أدّى إلى إفقارها وطمس الكثير من معانيها. فحين يقرأ إنسان عصرنا نصوص العهد الجديد، يصادف أسماء أشخاص مثل هيرودُس الكبير وهيرودُس أنتيباس وبُنطيوس بيلاطُس، أو أسماء فئات اجتماعيّة مثل الفرّيسيّين والكتبة ومعلّمي الشريعة، أو أسماء مجتمعات مثل السامريّين واليونانيّين والرومانيّين. وقد لا يدرك إلامَ تشير تلك الأسماء. كما يلاحظ أنّ الحياة اليوميّة في أيّام يسوع تقوم على عاداتٍ وتقاليد لم تعد معروفة في أيّامنا، كأسلوب الاحتفال بالزفاف وأصول الوضوء وشرائع السبت وطرائق المحاكمة والإعدام. ناهيك عن العملات المتداولة كالدينار والدرهم والأدوات المستعملة كالسراج والمكيال. بالإضافة إلى تلك الأمور، يلاحظ قارئ العهد الجديد أنّ النصوص تشير إلى أحداث تاريخيّة بدون أن تشرحها، لأنّها كانت معروفة في الزمن الذي دوّنت فيه تلك النصوص، كتقسيم أراضي فلسطين السياسيّ ونظام الضرائب وأقسام الهيكل ونظام المجتمع...

لذلك رأينا أن نقدّم إلى القارئ العربيّ عرضًا مفصّلًا ومبسّطًا في آنٍ واحد لحياة الناس بفلسطين في القرن الأوّل الميلاديّ: الطبيعة التي كانوا يعيشون فيها، والجماعات الإتنيّة المقيمة على الأرض الواحدة، وطرائق الأكل والشرب والعمل والتجارة والعبادة... فمن خلال استيعاب تلك المعلومات التاريخيّة، يستطيع القارئ أن يفهم تعاليم يسوع كما لو كان يعيش في أيّامه. وبالتالي، ينتبه إلى كلمات وعبارات قرأها مرّاتٍ كثيرة في الأناجيل بدون أن يلحظ ما تشير إليه.

لقد تحاشينا عمدًا، في هذا الكتاب، أن ندخل في تفاصيل الأمور أو نكثر من سرد المراجع، لكي يظلّ مضمون الفصول بسيطًا فيسهل على غير المتخصّصين فهمها. وحرصنا في الآن نفسه على التزام الأمانة العلميّة، وتحقّقنا من مصداقيّة جميع الأخبار التي أوردناها، معتمدين على أحدث البحوث الكتابيّة والتاريخيّة وآخر الاكتشافات الأثريّة. وسردنا في صيغة الافتراض ما تدور حوله الشكوك.

أملنا هو أن يجد القارئ في صفحات هذا الكتاب متعة وفائدة، وأن تساعده قراءته على تعميق فهمه حياة يسوع المسيح وتعاليمه.

الوسط الطبيعي

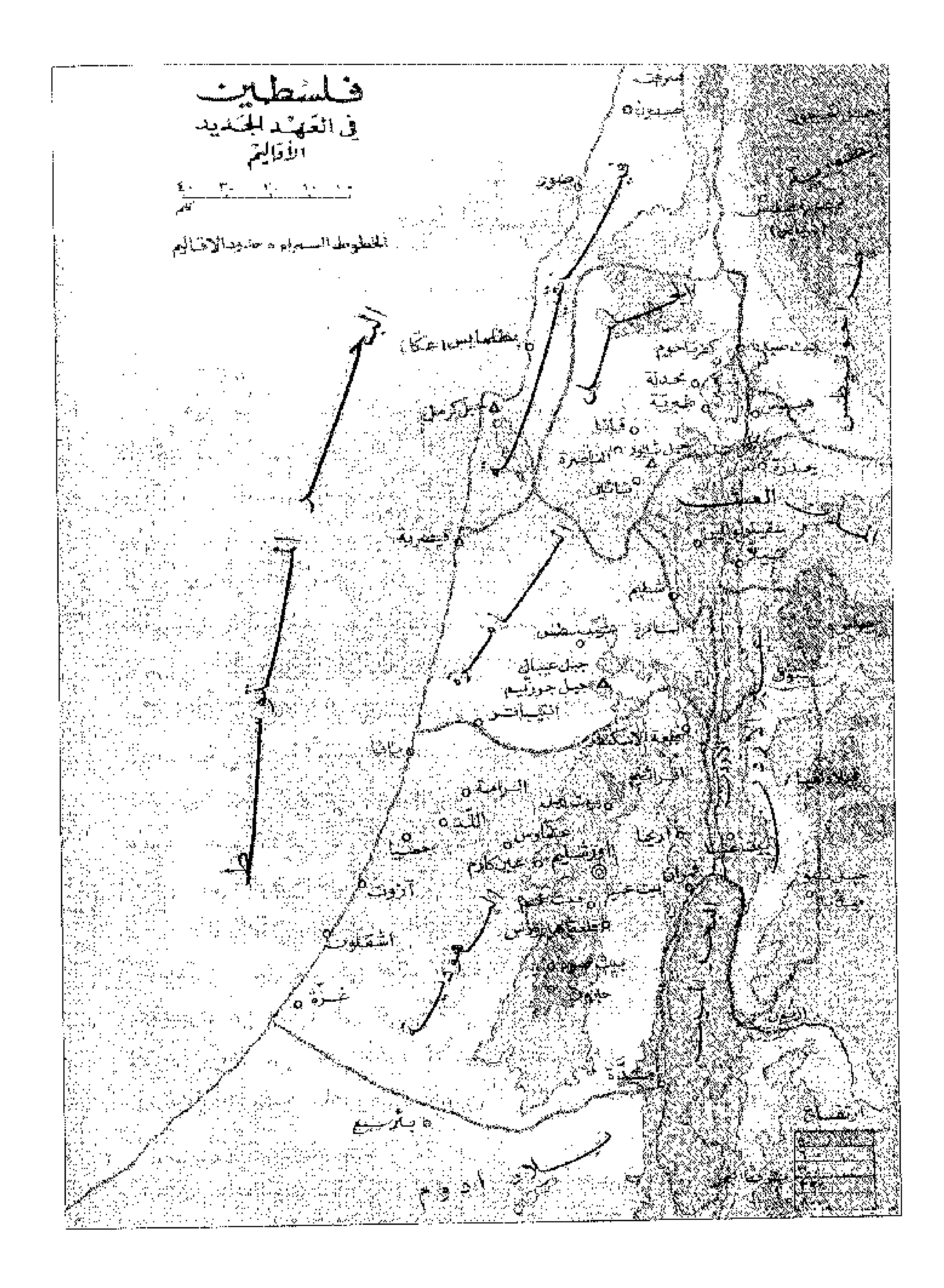
□ فلسطين

حين يسمع إنسان عصرنا اسم فلسطين، يتخيّل مباشرةً الأرض الواقعة شرقًا على ساحل البحر المتوسّط، يحدّها لبنان وسورية شمالًا، والأراضي الصحراويّة وخليج العقبة جنوبًا، والأردنّ إلى الشرق. لكنّ تلك التسمية لم تكن معروفة قبل ألفي سنة، أو، على الأقلّ، لم يشمل اسم فلسطين الأراضي التي نعرفها اليوم، والتي حدّدت القوى الاستعماريّة أطرافها. ففي الكتاب المقدّس، لا نجد ذكرًا واحدًا لكلمة فلسطين. لكنّنا نجد اسم الفَلِسطينيّين والبلد الذي يسكنونه خمس عشرة مرّة. فالفَلِسْطينيّون، أو الفِلَسْطينيون كما ورد الاسم في بعض الترجمات، شعب سكن تلك الأرض منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وقد حاربهم العبرانيّون بعد خروجهم من مصر، وعاشوا معهم في سلام تارةً وخصام طورًا، خصوصًا في أيّام القضاة والملوك. ويبدو أنّ اليونانيّين هم أوّل مَنْ أطلق اسم فلسطين على تلك الأرض، وشاع الاسم في أيّام الرومانيّين.

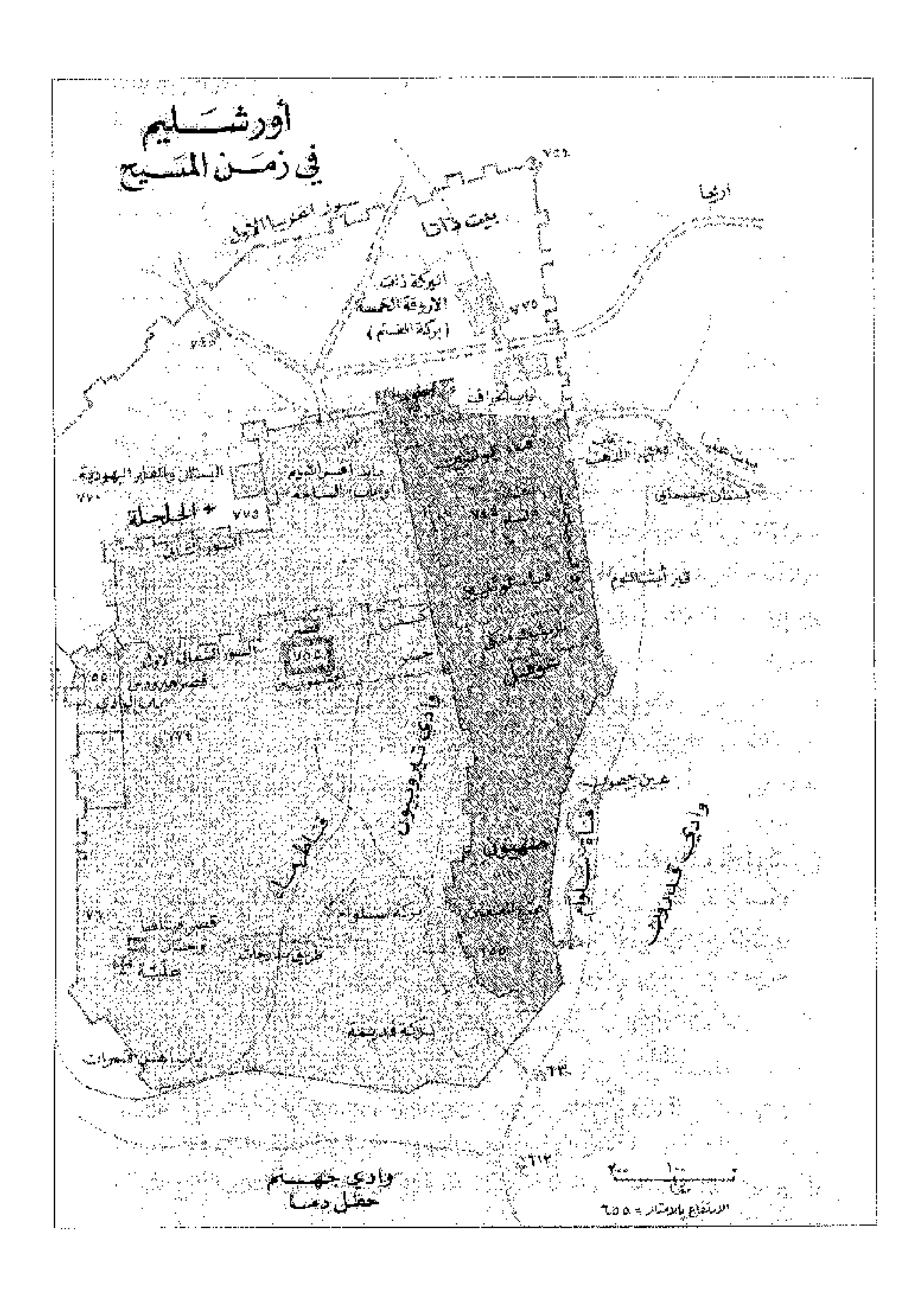
يطلق الكتاب المقدّس على أرض فلسطين تسمية أخرى وهي بلاد الكنعانيّين. ووردت فيه تلك التسمية أكثر من مئة مرّة. والكنعانيّون ينحدرون من حام، ابن نوح الثاني (تكوين ٩/١٨). في حين ينحدر الإسرائيليّون من سام أخيه الأكبر. وقد عادى اليهود أبناء عمّهم الكنعانيّين، مثلما عادوا الفلسطينيّين[١]. كان الكنعانيّون يسكنون منطقةً

---

(١) تظهر تلك العداوة بوضوح في حوار يسوع مع المرأة الكنعانيّة (متّى ١٥/٢١-٢٨).



فلسطين
في العهد الجديد
الأقاليم
٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠ ٠
كلم
الخطوط السمراء = حدود الأقاليم
صيدون
صور
بطلمايس (عكا)
جبل الكرمل
كفرناحوم
المجدلة
طبرية
قانا
الناصرة
جبل تابور
نائين
قيصرية
سبسطية
جبل عيبال
جبل جرزيم
أنتيباتريس
يافا
الرامة
اللد
عمواس
أريحا
أورشليم
عين كارم
آزوت
أشقلون
غزة
بئر سبع
أدوم



أورشليم
في زمن المسيح
بيت زاثا
البركة ذات
الأروقة الخمسة
(بركة الغنم)
أريحا
الجلجلة
بستان جثسيماني
قبر أبشالوم
عين جيحون
وادي جهنم
حقل دما

تمتدّ من صيدا إلى غزّة وحتّى أرض الجَرزِيّين وسدوم (في الوسط)، قبل أن يغزوهم يشوع بن نون. ولمّا كانت مدنهم محصّنة، عانى القضاة صعوباتٍ شديدة في حصارها. فأرض فلسطين إذًا هي بلد الكنعانيّين. ولم ترد كلمة «أرض إسرائيل» إلاّ مرّةً واحدة في الكتاب المقدّس، في إنجيل متّى، حين ظهر الملاك ليوسف في مصر وأمره بالعودة إلى بلده بعد موت هيرودس الملك (متّى ٢/ ٢٠).

لم تكن بلاد الكنعانيّين، التي احتلّها الإسرائيليّون، مترامية الأطراف حتّى في أوج مجدها. لذا، علينا ألاّ نعير كلام التلمود اهتمامنا. فمعلّمو الشريعة يدّعون أنّ مساحة بلدهم تبلغ ٢٢٥٠٠٠٠ ميلٍ رومانيّ مربّع، في حين يخبرنا القدّيس هيرونيمُس، الذي عرف المنطقة جيّدًا لأنّه عاش فيها مدّةً طويلة، أنّ طول البلد لا يتعدّى ١٦٠ ميلًا رومانيًّا، أي حوالى ٢٣٥ كم. ويحتاج الإنسان العاديّ إلى أسبوع ليقطع المسافة من دان في الشمال إلى بئر سبع في الجنوب سيرًا على الأقدام، ويكفيه يومان للسير من الناصرة إلى أورشليم، ويومٌ واحدٌ على الأكثر ليذهب من القدس إلى أريحا[٢]. وهي مسافاتٌ قطعها يسوع مرّاتٍ كثيرة في حياته.

□ الطبيعة الفلسطينيّة

تسود الأراضي الفلسطينيّة أنماط شديدة التنوّع من الطبيعة والمناخ. ففي الشمال أراضٍ هضابيّة خصبة. وفي الوسط أراضٍ صخريّة قاسية، تندر فيها النباتات الخضراء. وفي الجنوب بادية تميل تدريجيًّا إلى الطبيعة الصحراويّة. يتميّز مناخ فلسطين بصيفٍ طويل وشتاءٍ قصير. ولا يكاد الإنسان يلاحظ مرور الربيع والخريف. وتتفاوت درجات الحرارة بين النهار والليل تفاوتًا كبيرًا، حتّى إنّ المرء يُضطرّ إلى لبس المعطف عند المساء وإشعال النار للتدفئة، كما حصل لبطرس حين ذهب إلى باحة بيت

(٢) الرسالة إلى دردانُس، الرسائل ٧٩/ ٤.

رئيس الكهنة ليعرف ما سيؤول إليه حال يسوع بعد اعتقاله (مرقس ١٤/ ٥٤). ومن حينٍ إلى حين، تهبّ رياحٌ شديدة، خصوصًا في الشتاء، سرعان ما تتحوّل إلى عواصف تدمّر قوارب الصيّادين في بحيرة طبريّة (متّى ٨/ ٢٣-٢٧). وفي الصيف، تهبّ رياح الخماسين محمّلةً بالغبار، فتحجب الرؤية وتقتل الزرع، ويصعب على الإنسان والحيوان التنفّس في أثنائها.

تهطل الأمطار بفلسطين بين شهرَي تشرين الأوّل (أكتوبر) وآذار (مارس). ويكون هطولها غزيرًا ولمدّةٍ قصيرة. فتمتلئ الوديان بالسيول التي تجرف معها البيوت ذات الأساسات الضعيفة (متّى ٧/ ٢٧). وإذا انحبس المطر، تُصاب الزراعة بكارثة، لأنّها بعليّة في غالبيّتها. في أيّام يسوع، كان اليهود يصعدون في أورشليم إلى أسطحة منازلهم آخر ليلة من عيد الخيام (المظالّ) ليروا إلى أيّ اتّجاهٍ يذهب دخان الهيكل. فهم يؤمنون بأنّ ذلك يشير إلى السنة التالية، هل ستكون ممطرة أم لا. ومن شدّة قلّة المياه في فلسطين، أصبحت وفرته علامةً على محبّة الله ورضاه، وميزةً من ميزات الملكوت السعيد. يمكننا أن نتخيّل مشاعر مستمعي يسوع حين كلّمهم على الماء الحيّ والينابيع التي لا تنضب، خصوصًا حين أعلن ذلك في آخر أيّام عيد الخيام (يوحنّا ٧/ ٣٧-٣٨).

□ النباتات

لم يرَ يسوع في أثناء حياته على الأرض شجيرات التين الشوكيّ التي أُحضِرَت من المكسيك، ولا حقول عَبّاد الشمس. ولم يأكل الذرة الصفراء ولا الطماطم ولا الكريفون، فهذه كلّها أتت من القارّة الأمريكيّة، التي لم تكن مُكتشَفة بعدُ في أيّامه، أو من أوروبّا الغربيّة في العصور الوسطى. لكنّه عرف أشجار الحور والصنوبر والسرو والسنديان والبلّوط والبطم والخرّوب والتين والرمّان والزيتون والفستق الحلبيّ واللوز والزيزفون والأكاسيا. وعرف أيضًا الجمّيز الذي ينبت على أطراف

الطرق. وهو شجر ضخم جميل، تطفو جذوره فوق سطح الأرض في شكل أقواس تستند إلى الجذع وتسهّل لقصار القامة تسلّقه، مثلما فعل زكّا رئيس جباة الضرائب في أريحا (لوقا ١٩/٢-٤). وفي الصحراء، حين كان يسوع عند يوحنّا المعمدان، عرف أشجار النخيل والمرّ والكافور والأصف (الجامعة ١٢/٥). أمّا الخردل والغار، فكانا منتشرَيْن على سواحل طبريّة. وتشير الدراسات والوثائق إلى وجود غابات في الماضي بفلسطين، لكنّها اندثرت خاصّة في أيّام الأتراك.

يحتلّ شجر الزيتون المرتبة الأولى بين الأشجار المثمرة. فثماره تؤكل نيّئة أو مطبوخة، ومنه يُستخرَج زيت الإنارة والطعام. واستُعمِلَ زيت الزيتون أيضًا للزينة والاستطباب والطقوس الدينيّة. ومن شدّة أهمّيّة ذلك الشجر، صنع سليمان الملك من خشبه تماثيل الكروبين في الهيكل (١ ملوك ٦/ ٢٣). ينمو شجر الزيتون في كلّ مكان، ويعيش زهاء ٥٠٠ سنة. لذا، أصبح رمزًا إلى الحياة والفرح والسلام (تكوين ٨/ ١١ ومزمور ١٢٨/ ٣).

يأتي شجر التين في المرتبة الثانية. كان يُغرس غالبًا أمام البيوت من أجل ظلّه الوفير في أيّام الحرّ. وتعطي الشجرة ثمارها مرّتين في السنة. الأولى في الربيع، والثانية في أواخر الخريف. فلنتخيّل موقف الفلاّح من شجرة تينٍ لا تعطي ثمرًا على الإطلاق (لوقا ١٣/٦-٩). ويأكل الناس ثمار التين نيّئة طازجة أو مجفّفة، ويستعملونها لصناعة الحلويات.

وتحتلّ الكرمة المرتبة الثالثة. إنّها من الأشجار التي تتطلّب عنايةً دائمة وتقليمًا مستمرًّا ليكثر حملها (يوحنّا ١٥/ ٢). وهي شجرة محبوبة وشبه مقدّسة عند اليهود. لذلك طُرِّزت على قماش الهيكل كرمة بخيوط الذهب. كانت صناعة النبيذ منتشرة في فلسطين، وتُصدَّر الخمر إلى مصر وروما. وهي عالية درجة الكحوليّة، ولا تُشرَبُ إلاّ ممزوجةً بالماء. وقد حافظ المسيحيّون على تلك العادة في طقس القدّاس، وأضفوا عليها معانيَ روحيّة.

أمّا المزروعات، فيمكننا ذكر القمح والشعير والعدس والباذنجان والفليفلة والخيار والكوسا والبطّيخ والخسّ... بالإضافة إلى عدد من التوابل كالكمّون والقرفة والزنجبيل. وأحضِرَت نباتات الفول والبصل والثوم من مصر.

□ الحيوانات

كانت الحيوانات المفترسة في أيّام يسوع أكثر بكثيرٍ ممّا هي عليه اليوم في فلسطين. فالكتاب المقدّس يذكر الخنزير البرّيّ والذئب والثعلب والأسد والضبع والغزال وابن آوى والفهد والدبّ والقطّ الوحشيّ. وتداهم غالبيّة الوحوش المفترسة قطعان الغنم حين يشحّ الصيد. فيحسب لها الرعاة ألف حساب. وتحوي بحيرة طبريّة أنواعًا كثيرة من السمك. ويقول بعضهم إنّ في البحيرة ١٥٣ نوعًا من السمك الكبير، اعتمادًا على ما رواه يوحنّا في صورةٍ رمزيّة تعبّر عن الصيد الشامل الوفير (يوحنّا ٢١/ ١٢). ومن أنواع سمك بحر الجليل صنفٌ أخذ اسم سمك القدّيس بطرس. وهو يُخفي بيضه في فمه. وحين يفقس البيض وتخرج الصغار وتنمو تتضايق الأمّ، فتجبر صغارها على مغادرة فمها بأن تضع فيه حصاة أو قطعة معدنيّة ممّا تجده في قاع البحيرة. وربّما وجد القدّيس بطرس في فم ذلك النوع من السمك إستارًا فدفعه جزيةً عنه وعن يسوع (متّى ١٧/ ٢٤-٢٧).

كانت الحشرات الطائرة منتشرة في كلّ مكان، خصوصًا أيّام الصيف، حتّى إنّ أحد رؤساء الشياطين سمّي بعلزبوب أو بعل زبول، أي إله (بعل) الذباب (زبوب). أمّا الجراد، فقد اعتاد الناس أكله مشويًّا. وكانوا يخشونه إذا ازداد عدده وهاجم الحقول المزروعة. وفي المزارع والأرياف، ربّى الناس الدجاج والبطّ والإوزّ والحمام والغنم والماعز والبقر والجمال، وخصوصًا الحمير، إذ قلّما يجد المرء بيتًا لا يملك حمارًا لحمل الأمتعة أو للسفر. ومَن لا يملك واحدًا يتسأجره عند حاجته

إليه، تمامًا كما يستأجر الناس السيّارات السياحيّة في أيّامنا. كان تأجير الحمير والجمال مهنةً يكسب منها بعضهم لقمة عيشهم. فعند مدخل كلّ مدينة، يقف المؤجّرون ويعرضون خدماتهم لمَن يعزم على السفر أو يريد ركوب حمار، ويشيدون بقوّة بهائمهم وصلابتها (لوقا ١٩/ ٣٠-٣١). وكانوا يراقبون أيضًا حمير المسافرين القادمين وجمالهم، لعلّهم يجدون بينها حيواناتهم أو تلك التي لشركائهم في المدن الأخرى، فيستردّونها.

بالإضافة إلى الخدمات التي يقدّمها الحمار، كان اليهود يعدّونه رمزًا إلى السّلام والحياة الوديعة المتواضعة، في حين يرمز الحصان إلى الحرب والأبّهة والغزو. واعتقد القدامى أنّ كلّ حيوان استُعمِلَ لأغراضٍ دنيويّة لا يصلح للوظائف المقدّسة (عدد ١٩/ ٢ وتثنية ١٥/ ٩ و٢١/ ٣). لذلك أعلن زكريّا النبيّ أنّ المسيح البارّ المخلّص الوضيع سيأتي أورشليم راكبًا على حمار وعلى جحش ابن أتان (زكريّا ٩/ ٩)، أي على حيوانٍ لا يزال ابن أمّه ولم يركبه أحدٌ بعدُ. وقد أتمّ يسوع تلك النبوءة حين دخل أورشليم وسط احتفال بهيج قُبيل آلامه (متّى ٢١/ ١-٥). وحدّد معلّمو الشريعة الأثقال التي يحملها الحمار، لكي لا يرهق الناس حيوانات غيرهم. أمّا الجمل، فباستطاعته حمل ٥٠٠ كغ من البضائع والسير بها ٤٠ كم يوميًا. وحيث إنّ حجم ذلك الوزن كبير جدًّا، ولا يمكن إضافة شيءٍ عليه، لم يرَ المشرّعون ضرورة لتحديد حمل الجمل.

لم يتعوّد سكّان فلسطين تربية الكلاب. فكانت تتسكّع في الشوارع وتأكل من القمامة وتلحس قروح المُعدَمين مثل لعازر (لوقا ١٦/ ٢١). وحرّم معلّمو الشريعة رمي أيّ نوعٍ من الطعام للكلاب (متّى ١٥/ ٢٦)، لأنّ ذلك يعني هدر ما أعطانا إيّاه الربّ من خيرات. وإذا رمى أحدهم خبزًا لكلبٍ، قام بعمل تدنيسٍ ما بعده تدنيس. ولم يذكر الكتاب المقدّس القطط التي كانت منتشرة في مصر ويكرّمها الفراعنة. وليس في اللغة القديمة حتّى ما يكافئ اسم ذلك الحيوان. لا بدّ أنّ الفئران والجرذان كانت منتشرةً في كلّ مكان.

الوسط البشري

□ تاريخ اليهود في سطور

يؤرّخ اليهود ماضيهم ابتداءً من إبراهيم، جدّهم الكبير. وكثيرًا ما سمّوا أنفسهم نسل إبراهيم أو أبناء إبراهيم (يوحنّا ٨/ ٣٣-٤٠). كان اسم ذلك الجدّ أبرام، وكان يعيش في أور، على ضفاف الفرات، حين دعاه الله إلى أن يترك أرضه وعشيرته، ويذهب إلى أرضٍ يريه إيّاها، ووعده بأن يجعل نسله أمّةً كبيرة. فأطاع أبرام، ورحل مع قطعانه وعبيده إلى بلاد الكنعانيّين، ثمّ إلى مصر، وعاد إلى كنعان واستقرّ فيها. حينئذٍ وعده الربّ بأن يعطيه تلك الأرض ميراثًا، وأقام معه عهدًا، وغيّر له اسمه وجعله إبراهيم، أي أبا شعوبٍ كثيرة، وأمره بأن يختتن وكلّ ذكرٍ من عشيرته، وأن يكون الختان علامةً أبديّة لذلك العهد.

ترك حفداء إبراهيم بلادهم، وأقاموا في مصر هربًا من المجاعة التي حلّت بتلك المنطقة. وعاشوا هناك حياةً هانئة. لكنّ الأوضاع تغيّرت، واستعبدهم المصريّون. فأقام الله عليهم نبيًّا وقائدًا اسمه موسى، أخرجهم من أرض مصر بمعونة يد الربّ القديرة، وسار بهم في بريّة سيناء أربعين سنة. في أثناء ذلك المسير، تمّ تنظيم حياة الشعب وسنّ الشرائع والقوانين. وفي آخر الأمر، استقرّ العبرانيّون في أرض فلسطين، وأدار شؤونهم قضاة ثمّ ملوكٌ مثل داود وسليمان اللذان رفعا شأن أمّتهما وجعلاها تزدهر.

انقسم العبرانيّون بعد عهد سليمان إلى مملكتين: مملكة يهوذا

ومملكة إسرائيل. وحكم المملكتين ملوكٌ حادوا في غالبيّتهم عن طريق الربّ وعبدوا الأصنام. فغزتهم الشعوب المجاورة وأحرقت الأراضي التي أقاموا فيها والبيوت التي سكنوها. وفي نهاية الأمر، أتى البابليّون وخرّبوا هيكل الربّ الذي بناه سليمان، وسبوا كثيرًا من العبرانيّين ونقلوهم إلى بابل.

أقام المسبيّون في المنفى ردحًا من الزمن، وعادوا إلى شريعة إلههم وتمسّكوا بها، فتحسّنت أمورهم، وتمكّنوا من الحصول على إذنٍ بالعودة إلى فلسطين وإعادة بناء الهيكل في أورشليم. وعاد بعضهم إلى الأراضي التي سُبوا منها، وبنوا الهيكل وأقاموا حوله، وشرعوا في إصلاح إيمان الشعب الذي لم يذهب إلى السبي، والذي تأثّرت معتقداته بالديانات الوثنيّة.

□ إيمان اليهود في سطور

في عهد الآباء، أي في أيّام إبراهيم وإسحق ويعقوب، كان إيمان العبرانيّين بسيطًا، لا يتعدّى الختان والإيمان بالإله الواحد الذي سمّوه «إيل»[1] أو «إيلوهيم» وهو صيغة جمع في اسم مفرد. ولم يطلب ذلك الإله الوحيد أيّ عبادة أو كهنوتٍ أو هيكل أو قواعد سلوكيّة خاصّة. وكان العبرانيّون يقدّمون له بعض الذبائح حينًا بعد حين.

في الفترة الثانية، أي بعد أن رأى العبرانيّون كيف خلّصهم الربّ من عبوديّة فرعون بيدٍ قديرةٍ وعجائب خارقة، اغتنم موسى فترة الإقامة في الصحراء ونزول الوصايا العشر، فسنّ لشعبه قوانين تنظيميّة دقيقة في الأخلاق والعبادة، وأقام عليهم كهنة[2]. في ذلك الوقت، لم يتجدّد عهد الله مع الشعب فقط، بل تبلور في صيغةٍ محدّدة. وأخذ الربّ اسمًا جديدًا

---

(١) نجد آثار تلك التسمية في كثيرٍ من الأسماء اليهوديّة مثل: صموئيل وإسرائيل أو في أسماء الملائكة مثل جبرائيل وميخائيل وروفائيل.

(٢) راجع في هذا الصدد أسفار العدد والأحبار وتثنية الاشتراع.

وهو «يهوه»، أي الكائن. وساهم ذلك التحديد في تنظيم الأسَر (الأسباط) العبرانيّة التي تعبر الصحراء، فتمكّنت من الاستيلاء على بلاد كنعان بقيادة يشوع بن نون ثمّ القضاة. كما تمكّن داوُد من توطيد دعائم ملكه، وسليمان من بناء الهيكل الذي حمل اسمه، والذي صار مركز ثقل الأمّة الدينيّ. لكنّ الشعب خان شرائع الربّ، وعاش بحسب أخلاق الوثنيّين، ولم يصغِ إلى أنبيائه ولا إلى تحذيراتهم حتّى سُبيَ إلى بابل.

بدأت المرحلة الثالثة من إيمان العبرانيّين في الجلاء إلى بابل. فقد أظهر أنبياء السبي، مثل أشعيا وإرميا وحزقيال، أنّ العبادة الحقيقيّة لا تكون في تقديم الذبائح، بل في السير بحسب شريعة الربّ. بهذه الطريقة، أصبح للدين مفهوم أعمق، ويبرز فيه البعد الروحيّ. كان العبرانيّون يؤمنون بوجود الآلهة الأخرى حتّى ذلك الحين، ويعتقدون أنّ إلههم الواحد الذي يعبدونه أقواها. وفي السبي، أدركوا بطلان وجود الآلهة الأخرى، فآمنوا بأنّه لا إله إلاّ الله. كانوا يعتقدون أنّهم اختاروا «يهوه» إلهًا، فصاروا يؤمنون وهم في السبي بأنّ «يهوه» هو الذي اختارهم. وظهر حينئذٍ تعبير «شعب الله المختار» ليحلّ محلّ «الشعب الذي اختار الله إلهًا له». واحتقر العبرانيّون سائر الشعوب، واحتكروا الله لأنفسهم كما احتكروا حقّ امتلاك أرض فلسطين التي سكنوها حينًا وهجروها مرارًا[٣]. كانوا واثقين من أنّهم يختلفون عن باقي الشعوب، وأنّهم أسمى من غيرهم بفضل إيمانهم التوحيديّ وحبّهم لأرضهم وخضوعهم لقواعد أخلاقيّة ورغبتهم في تنظيم حياتهم الدينيّة والسياسيّة وفقًا لمبادئ معيّنة. فلم تعد الإتنيّة تحدّد هويّة الشعب، كما كان الأمر في الماضي، بل الإيمان والحفاظ

(٣) استقرّ العبرانيّون في فلسطين بقيادة يشوع بن نون حوالى السنة ١٢١٠ق.م. وبدأت مملكتهم في عهد شاول حوالى السنة ١٠٣٠ ق.م. وتمّ السبي حوالى السنة ٥٥٠ ق.م. وأذِنَ لهم الملك قورش بالعودة إلى فلسطين حوالى السنة ٥٣٨ ق.م. وانتهى وجودهم في فلسطين في السنة ٧٠ للميلاد. فإذا حسبنا زمن حكم المكّابيّين والهيرودُسيّين في فلسطين، يمكننا القول إنّ اليهود حكموا البلد في فتراتٍ متقطّعة لا يزيد مجموعها على ٦٠٠ سنة.

عليه مهما بهظ الثمن. لقد كانت جميع تلك الأمور حاضرة في ذاكرة الناس الذين عاشوا مع يسوع قبل ألفَي سنة.

□ عبرانيّون أم يهود؟

لعلّ أبرز الجماعات الإتنيّة أو الدينيّة التي تتكلّم عليها الأناجيل هي اليهود. لكنّ الكتاب المقدّس، بعهديه القديم والجديد، يطلق تسميات متنوّعة على ذلك الشعب. فهو شعبٌ عبرانيّ أو إسرائيليّ أو آراميّ.

• عبرانيّ

ربّما ترتبط كلمة عبرانيّ باسم عابر، وهو أحد حفدة سام بن نوح. لكنّها مشتقّة لغويًّا من فعل عبَرَ يعبر، ممّا يشير إلى أنّ العبرانيّين كانوا بدوًا رُحَّلًا، يتنقّلون باستمرار من بلاد ما بين النهرين إلى أرض كنعان ومصر، أي من الفرات إلى النيل. ومع أنّ العبرانيّين استقرّوا أخيرًا في المدن، ظلّت الصحراء في مخيّلتهم مكانًا مباركًا يبتعد الإنسان فيه عن رجاسة المدن ويتقرّب إلى الله. لهذا، أقام يوحنّا المعمدان في الصحراء يعظ الناس ويدعوهم إلى التوبة. وكانت الجموع تأتيه لتعتمد عن يده معترفةً بخطاياها، وتسأله النصح والإرشاد (لوقا ٣/ ٢-١٤). كما بدأ يسوع حياته التبشيريّة في الصحراء، حتّى إنّ تلاميذ يوحنّا المعمدان حسبوه منافسًا لمعلّمهم (يوحنّا ٣/ ٢٢-٢٦). وفي الصحراء أيضًا صام وجرّبه إبليس (متّى ٤/ ١-١١). وفي خريف كلّ سنة، يحتفل اليهود بعيد المظالّ، أو عيد الخيام، إحياءً لذكرى إقامة أجدادهم تحت الخيام في الصحراء، بعد أن خرجوا من مصر. لذا، حين يطلق اليهوديّ على نفسه اسم عبرانيّ، يشير إلى هويّته المقدّسة التي تكوّنت في أثناء مسيرته مع الله. ومن خلال تلك القدسيّة، أصبحت اللغة العبريّة لغةً مقدّسة، تُكتَب بها التوراة والنبوءات.

• إسرائيليّ

كلمة مشتقّة من إسرائيل، الاسم الذي أطلقه الملاك على يعقوب بن

إسحق بن إبراهيم، بعد أن صارعه طوال الليل (تكوين ٣٢/ ٢٩). والكلمة تعني «الذي صارع الله». وفي أيّام يسوع، أخذت هذه الكلمة مدلولًا روحيًا. وأصبحت تشير إلى صراع الإنسان، صورة الله، ومقاومته جميعَ أهوائه وتجارب إبليس.

● **يهوديّ**

لا نجد لتلك الكلمة أثرًا إلاّ في العهد الجديد، وفي سفر المكّابيّين الثاني (٦/٦). وهي التسمية التي أطلقها الرومانيّون على الإسرائيليّين فشاعت حتّى يومنا هذا. ولكي نعرف تاريخ تلك التسمية، علينا أن نعود إلى أيّام الملك نبوخذنصّر البابليّ. فقد غزا أرض فلسطين، وأخذ معه سبيًا إلى بابل من العبرانيّين غالبيّتهم من سبط يهوذا. وحافظ المسبيّون على إيمانهم وتمسّكوا بتقاليدهم وشرائعهم، ولم يشوّهوها بطقوس وثنيّة كما فعلت الأسباط العشرة التي بقيت في فلسطين. وحين عادوا إلى بلدهم، أقاموا في اليهوديّة، الإقليم الذي يحمل اسمهم، أي حول أورشليم مدينتهم المقدّسة. وأعادوا بناء الهيكل ومارسوا طقوسهم بحذافيرها، فعُرِفوا بالإخلاص إلى شريعتهم وبتعصّبهم. وفي أيّام يسوع، كان اسم يهوذيّ أو يهوديّ يُطلق على جميع أهل الختان الذين يؤمنون بالإله الواحد ويحفظون الشريعة، سواء كانوا من سبط يهوذا أم من الأسباط الأخرى.

● **آراميّ**

حين يقرِّب العبرانيّ بواكير أرضه إلى الربّ بوساطة الكاهن، يقول: «كان أبي آراميًّا تائهًا...» (تثنية ٢٦/ ٥). فالآراميّون شعب ساميّ عاش حياة بداوة في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. كان دائم الحلّ والترحال في القسم الشماليّ من بلاد ما بين النهرين، عند أعتاب سلسلة جبال طوروس. وكانت حاران، على نهر البليخ، عاصمة ذلك الإقليم. ومرّ إبراهيم بها في أثناء رحيله، وأقام أخوه فيها، وإليها ذهب يعقوب ليتزوّج رفقة. أمّا آرام، فهو أحد أبناء سام بن نوح. فالشعب اليهوديّ إذًا هو

شعبٌ خليط من الآراميّين والعبرانيّين الذين يمرّون بتلك المنطقة في تنقّلهم بين الفرات والنيل. وفي أثناء السبي إلى بابل، وجد المسبيّون في بلاد المنفى لغةً ليست غريبةً عليهم، وهي اللغة الآراميّة، فتكلّموها وحافظوا عليها حتّى بعد عودتهم إلى فلسطين، وأصبحت لغة حياتهم اليوميّة، وانحصر استعمال اللغة العبريّة في الطقوس الدينيّة والنصوص المقدّسة. لذا، يمكننا القول إنّ يسوع تكلّم الآراميّة وقرأ الكتب المقدّسة بالعبريّة.

□ جليل الأمم

فبالإضافة إلى الآراميّين، اختلط العبرانيّون بالحثّيين والمصريّين والآموريّين والعماليق والكلدانيّين وغيرهم. لذا، لا يمكننا التكلّم على العرق اليهوديّ. ففي أثناء السبي، سكن فلسطين آراميّون وأناضوليّون وحتّى من سكّان ما بين النهرين، بالإضافة إلى الكنعانيّين والفينيقيّين والفلسطينيّين الذين لم يهجروا أراضيهم قطّ كما فعل العبرانيّون. واختلطت أسباط إسرائيل العشرة، التي لم تذهب إلى السبي، بتلك الشعوب. وعندما عاد سبط يهوذا من السبي، قام منه أبناء المكّابيّين (١٦٥-١٠٤ ق.م) واستولوا على الحكم، وأجبروا غالبيّة سكّان فلسطين على اعتناق الديانة اليهوديّة. وهوّدوا أيضًا قبائل الآدوميّين في الجنوب. ومن هؤلاء خرج هيرودُس الكبير الذي أزاح المكّابيّين عن عرش السلطة، ونال من مجلس الشيوخ في رومة لقب «ملك اليهود».

لم تشمل سياسة التهويد المكّابيّة جميع أراضي فلسطين التي نعرفها اليوم. ففي الشمال، حيث الأراضي الخصبة، انتشرت تجمّعات سكّانيّة من مختلف الإتنيّات، وقلّ فيها عدد اليهود، فسُمّيَت المنطقة «جليل هغوييم»، أي منطقة (جليل) الأمم (غوييم). وعُرِفَت في أيّام يسوع باسمها المختصر: «الجليل». كان سكّان اليهوديّة يحتقرون أهل الجليل ويتّهمونهم بالتراخي في الحفاظ على الشريعة، ويسخرون من لهجتهم الخاصّة التي يمكن تمييزها بسهولة، كما ميّز الناس لهجة بطرس في أثناء

محاكمة يسوع (متّى ٢٦/ ٧٣). لكنّ يهود الجليل كانوا في الحقيقة أناسًا طيّبين. رجالهم أشدّاء ونساؤهم كريمات. عُرِفوا بنخوتهم وبشاشة أخلاقهم وخشونة طباعهم ومروءتهم. لم يكونوا من المتحذلقين في الفقه أو علم الكلام، لكنّهم كانوا أتقياء يحبّون الله حبًّا صادقًا، «ويقذفون الرعب في قلوب أعداء الحقّ»، كما يصفهم المؤرّخ اليهوديّ فلافيوس يوسيفس[٤]. فهل هذا هو السبب الذي جعل يسوع يختار الجليل مكانًا لإعلان البشارة؟ أم لأنّه ترعرع فيه وتطبّع بأخلاق سكّانه؟ مهما يكن الأمر، فقد بات معروفًا أنّ يسوع كان جليليًّا، عاش في الجليل وبشّر بالملكوت، بدل أن يذهب إلى الأقاليم الراقية، التي يكثر فيها اليهود الأتقياء، ممّن يفخرون بأنّهم أبناء إبراهيم وأوفياء لشريعة الربّ (يوحنّا ٨/ ٣٩). وكان لاختيار الجليل مكانًا لإعلان البشارة أثر بالغ في انتشار الديانة المسيحيّة بين سائر الشعوب والأمم.

□ السامريّون

عاشت في وسط فلسطين جماعة، أو مجموعة إتنيّة، تؤمن بالإله الواحد ولديها كتب التوراة وتعتبر موسى مشرّعًا عظيمًا. ومع ذلك، نظر اليهود إليها على أنّها كافرة. إنّها مجموعة السامريّين.

يعود تاريخ العداوة بين اليهود والسامريّين إلى حوالى السنة ٩٣٥ ق.م. فعندما مات الملك سليمان، انقسمت مملكته إلى قسمين: اليهوديّة وإسرائيل. كانت أورشليم عاصمة المملكة الأولى وشكيم عاصمة الثانية. ومع مرور الزمن، تحوّل العداء بين المملكتين إلى عداءٍ بين الطاهر والنجس. لأنّ يُربعام، أوّل ملكٍ لإسرائيل، بنى هياكل للأوثان على قمم الجبال، ونشرت الملكة إيزابِل الوثنيّة زوجة أحآب عبادة البعل.

---

(٤) فلافيوس يوسيفس مؤرّخ من القرن الميلاديّ الأوّل. عاش في أيّام يسوع بفلسطين، ثمّ هجرها وسكن في رومة. له مؤلّفات ثمينة جدًّا يخبرنا فيها عن أوضاع اليهود داخل فلسطين وخارجها، وآراء الناس فيهم. وأهمّ مؤلّفاته: تاريخ اليهود وحرب اليهود.

في السنة ٨٨٠ ق.م. بنى الملك عمري مدينة السامرة، وجعلها عاصمة الإقليم. فشمل اسم المدينة الإقليم كلّه وصار يُعرف بإقليم السامرة. وفي السنة ٧٣٣ ق.م. دمّر سرجون الأشوريّ السامرة ونفى غالبيّة أهلها، وأسكن محلّهم خليطًا من الشعوب الوثنيّة. فاختلطت تلك الشعوب بمَن بقي من الإسرائيليّين وتبنّت ديانتهم وبسّطتها. فلم يعد الخليط الجديد يقرّ من الكتب المقدّسة إلاّ بالتوراة، وقدّم الناس الذبائح على رؤوس الجبال لاستحالة سفرهم إلى أورشليم بسبب تبلبل الأوضاع الأمنيّة. وعندما عاد سبط يهوذا من المنفى، رفض السامريّون قبول فوقيّته الدينيّة، وتهرّبوا من مساعدته لإعادة بناء الهيكل (عزرا ٤/٤). وتوتّرت العلاقات بين الجماعتين حتّى وصلت إلى القطيعة. وفي أيّام الإسكندر المقدونيّ، حاز منسّى، ابن رئيس الكهنة وصهر حاكم السامرة، على إذنٍ لبناء هيكلٍ على جبل جِرزّيم ينافس هيكل أورشليم. وجعل نفسه كبير الكهنة، وأحضر مساعدين له من سبط لاوي، وزوّجهم نساء وثنيّات. وفي السنة ١٢٨، دمّر يوحنّا هِرقانس المكّابيّ مدينة السامرة. لكنّ هيرودُس الكبير أعاد بناءها بأسلوبٍ فاخرٍ في حوالى السنة ٣٠ ق.م، وسمّاها أوغسطا إكرامًا للقيصر أوغسطس. وهكذا، كان السامريّون في أيّام يسوع يقدّمون ذبائحهم على جبل جرزّيم ويصلّون إلى الله، ويقولون إنّهم أصحاب العبادة الحقيقيّة في إسرائيل (يوحنّا ٤/ ٢٠).

كانت العداوة بين السامريّين واليهود شديدة جدًّا، حتّى إنّ الحجّاج الجليليّين كانوا يزيدون مسيرة سفرهم إلى أورشليم أو العودة منها يومين أو ثلاثة، ليتفادوا العبور من السامرة. وكثيرًا ما حصلت صداماتٌ بين اليهود والسامريّين، منها ما يضحك ومنها مأسويّ. فعلى سبيل المثال، في سنوات حياة يسوع الأولى، ألقت جماعة من السامريّين عظامًا بشريّة بهيكل أورشليم في الليلة التي تسبق العيد، لكي يصير المكان نجسًا ويُمنع استعماله. وفي السنة ٥٢م، هاجم سامريّون حجّاجًا يهودًا، فردّ اليهود عليهم بهجومٍ دامٍ، حتّى إنّ حاكم سورية اضطُرّ إلى التدخّل وصلب عددًا

كبيرًا من اليهود لردع المهاجمين.

كان اليهود يسمّون السامريّين: «الحثالة»، ولا يقرّون بهم شعبًا[٥]. ويسمّون عاصمتهم شكيم «سيخارة»، أي خمّارة. وتقول أمثالهم إنّ خبز السامريّين أنجس من لحم الخنزير، وماء السامريّين أنجس من دم الخنزير. ومَن يصافح سامريًّا يبقى نجسًا حتّى المغيب. لذا، على اليهوديّ ألاّ يخالط ذلك الشعب، «وخير له أن يموت عطشًا من أن يسأل سامريًّا ماءً». لهذا السبب، تعجّبت السامريّة حين سألها يسوع ماءً (يوحنّا ٤/ ٩). ولهذا أيضًا، أخذ يسوع من سلوك السامريّين مثلًا ليؤنّب اليهود على قساوة قلوبهم وعمى بصيرتهم.

□ المدن اليونانيّة

في القرنين الثاني والأوّل قبل الميلاد، أشيدت في فلسطين مدن يونانيّة، بُني بعضها في عهد خلفاء الإسكندر، ونُظّمت بحسب الطريقة الهلّينيّة، وسكنها اليونانيّون، فألّفت بينها ما عُرف باسم المدن العشر. تنتشر المدن اليونانيّة في شمال شرق البلاد وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسّط. وقد نالت في عهد الحاكم بومبيوس استقلاليّة خاصّة، ورُبطت إدارتها بروما مباشرةً. وعندما هوّد المكّابيّون سكّان المنطقة، حدّوا من انتشار المدن اليونانيّة فيها. وقاوم اليونانيّون سياسة التهويد ببسالة، وفضّلت بعض المدن الخراب على اعتناق الدين اليهوديّ. وفي عهد هيرودُس الكبير، عاشت المدن اليونانيّة في سلام، وتعاون القائمون عليها مع ملك اليهود، لكنّهم حافظوا على استقلالهم ولم يخضعوا له.

بنى بَطْليمس مدنًا يونانيّة كثيرة على ساحل البحر الأبيض المتوسّط، وجعل هيرودُس من مدينة قيصريّة أهمّ ميناءٍ في فلسطين. وحين رمّم

---

(٥) يذكر العهد القديم كلماتٍ مثل «السامرة» أو «سكّان السامرة» ولا يقول «السامريّين» إطلاقًا، باستثناء آية واحدة وردت في سفر الملوك (٢ ملوك ١٧/ ٢٩).

عاصمة السامرة، أدخل عليها عناصر يونانيّة كثيرة، كما أشاد مدينة طبريّة وأسكن فيها عددًا كبيرًا من اليونانيّين نكاية بشعبه الذي عزف عن السكن فيها. فقد عدّ اليهود طبريّة مدينةً ملعونة ومدنّسة، لأنّها بُنيت على أنقاض مدافن قديمة. وسكن اليونانيّون أيضًا إقليم الجليل. وتبيّن التنقيبات الأثريّة أنّ وجود اليهود في ذلك الإقليم كان قليلًا. فعلى سبيل المثال، لم يُعثر في كورَزين إلاّ على آثار مجمعٍ يهوديٍّ واحدٍ صغير. وكما جرى للسامريّين، نشأت بين اليهود واليونانيّين عداوة شديدة كانت تؤدّي أحيانًا إلى شجاراتٍ مسلّحةٍ بين الشعبين.

نستنتج ممّا تقدّم أنّ فلسطين لم تكن يهوديّة مئة بالمئة أيّام يسوع، ولا في أيّ حقبة من تاريخ إقامة اليهود فيها. ففي أيّام سليمان، بلغ عدد اليهود أوجه، لكنّه لم يتجاوز المليون شخص. ويشير الكتاب المقدّس بوضوح إلى ديمومة وجود غير اليهود في فلسطين، وأنّ إسرائيل أصغر جميع الأمم.

☐ يهود الشتات

لم يكن يهود فلسطين يشعرون بأهمّيّتهم إلاّ في الأعياد. ففي تلك المناسبات، تأتي إلى أورشليم أعدادٌ كبيرة من يهود الشتات، أي الذين يعيشون في المهجر، ممّا يشكّل مصدر رزق هامًّا لسكّان المدينة المقدّسة. كان عدد يهود الشتات يفوق عدد المقيمين في فلسطين. لهذا، كثُرت الفنادق وأماكن الصرافة ومدارس الأجانب اللّاهوتيّة. ففي حدث العنصرة، يذكر سفر أعمال الرسل حوالى أربع عشرة جنسيّة كانت حاضرة في العيد بأورشليم (٢/ ٥-١٣). كما يذكر لوقا الإنجيليّ سمعان القيرينيّ الذي ساعد يسوع في حمل الصليب (٢٣/ ٢٦). وشاول الطرسوسيّ، أي بولس الرسول، أتى من قيليقية ليدرس الشريعة عن يد جملائيل. ويعدّد الفيلسوف اليهوديّ فيلون الإسكندريّ البلاد التي احتمى بها اليهود ووجدوا فيها ملجأً آمنًا، ويقول: «مصر وفينيقية وسورية وآسية الصغرى

وروما ومقدونية وقورنتس... ناهيك عن بلاد ما بعد الفرات وبابل...».

كانت الإسكندريّة وروما أهمّ مدينتين من مدن يهود الشتات. فقد أقام اليهود في غالبيّة المدن المصريّة الهامّة، ووطّدوا دعائم وجودهم. وحين بنى الإسكندر مدينته، دعاهم إليها ومنحهم حقوق المواطنين اليونانيّين. فعاشوا فيها وازدهرت أحوالهم، وبلغ عددهم حوالى خُمس السكّان أو خمسَيهم. وفي روما، سيطر اليهود على جزءٍ كبيرٍ من التجارة الخارجيّة. وأثنى عليهم شيشرون الفيلسوف روحَ المؤازرة وحسنَ الجماعة وموهبة الإدارة. وشملهم قيصر برعايته حتّى إنّ شعب روما لاحظ شديد حزنهم عليه عند وفاته. وقدّر المؤرّخون أعداد يهود الشتات بـ ٧ أو ٨ ملايين نسمة، أي حوالى ١٠٪ من سكّان الإمبراطوريّة الرومانيّة.

ألّف يهود الشتات في المدن التي سكنوها جماعاتٍ متلاحمة ذات طابعٍ دينيّ ونظام مستقلّ عن الإدارة الرومانيّة. كانوا يجتمعون يوم السبت للصلاة وبتّ الشؤون التنظيميّة. لذلك دأب رسل المسيح على الذهاب إلى تلك المجامع ليعلنوا البشارة. وتساهلت السلطات الرومانيّة مع اليهود، ولم تُجبرهم على تقريب الذبائح إلى الأصنام، وسمحت لهم بعبادة إلههم والصلاة إليه من أجل الإمبراطور. وحصل بعض اليهود على الجنسيّة الرومانيّة كما هو حال شاول وأبيه. ومع أنّ يهود الشتات لم يشاركوا مباشرةً في الإدارة الرومانيّة، إلاّ أنّ كثيرين منهم تبوّأوا مناصب رفيعة في الدولة، خصوصًا في دواوين الخزانة والضرائب واستيراد القمح وتصديره.

وحافظ يهود الشتات على هويّتهم الثقافيّة وشرائعهم، مع أنّ بعضهم عاش على الطريقة اليونانيّة أو الرومانيّة. فتكوّنت لديهم عقليّة منفتحة تختلف عن عقليّة يهود فلسطين اختلافًا كبيرًا. كان لذلك الأمر أثر في نموّ الفكر الدينيّ. فعلى سبيل المثال، أدخل فيلون الإسكندريّ مفهوم الرمزيّة في فهم النصوص المقدّسة. واقتبس أمورًا كثيرة من الفلسفة اليونانيّة مثل

مسألة الكلمة «لوغس» الأفلاطونيّة، واستعملها في مفهوم فكر الله. وظلّ أسلوب فيلون سائدًا طابع فكر مدرسة الإسكندريّة حتّى في الدراسات اللاهوتيّة المسيحيّة. وبفضل روح الانفتاح تلك، تمكّن بولس الرسول من توسيع آفاق الديانة المسيحيّة الناشئة. ويعود إليه الفضل في تحريرها من الصبغة اليهوديّة وانفتاحها على العالم الوثنيّ وترسيخ قواعدها اللاهوتيّة.

لم ينغلق يهود الشتات على أنفسهم في المحافظة على تقاليدهم، بل رأوا أنّ الشتات فرصة لإعلان إيمانهم للوثنيّين وجذبهم إلى دينهم. لهذا السبب، تُرجم الكتاب المقدّس في الإسكندريّة إلى اللغة اليونانيّة، وهو ما نسمّيه الترجمة السبعينيّة. واهتدى عدد من الوثنيّين إلى الإيمان اليهوديّ، واكتفى آخرون بالتزام مبادئه الأخلاقيّة والروحيّة، فأطلِقَ عليهم اسم «الذين يتّقون الله». فقائد المئة في كفرناحوم كان منهم (لوقا ٧/ ١-٥)، وقُونيليوس أيضًا (أعمال ١٠) ووزير ملكة الحبشة (أعمال ٨/ ٢٦-٤٠). ويذكر المؤرّخ اليهوديّ فلافيوس يوسيفس أنّ غالبيّة الذين يتّقون الله كانوا من النساء.

لم يعش يهود الشتات في سلامٍ دائم، بل تعرّضوا مرارًا لاضطهاداتٍ عنيفة، لأنّ الناس حسدوهم على نجاحهم، وخشوا تكتّلهم ومؤازرة بعضهم بعضهم الآخر، وتضايقوا من عدم احترامهم سائر الديانات واحتقارهم آلهة الشعوب الأخرى. وفي أيّام السلم، استغلّ يهود الشتات نفوذهم في رومة وعلاقاتهم الطيّبة بالسلطة لدعم يهود فلسطين وتمييزهم من السكّان الآخرين. ولعلّ شعور الناس بذلك الدعم كان سببًا آخر لاضطهادهم. وفي الستّينات بعد الميلاد، قام يهود فلسطين بثورات دامية على الرومانيّين، تحوّلت إلى عصيانٍ عامّ. فزحفت الجيوش الرومانيّة على أورشليم ودمّرتها في السنة ٧٠، ولاحقت العصاة في كلّ مكانٍ وقتلتهم، وضربت مؤازريهم، أي يهود الشتات، بقبضةٍ من حديد في كلّ مدينةٍ وُجِدوا فيها من مدن الإمبراطوريّة. في ذلك التاريخ، انتهى الوجود اليهوديّ بفلسطين.

الإطار السياسي

□ قيصر والله

حين سُئِلَ يسوع هل يجوز دفع الجزية لقيصر، أجاب: «أدّوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله» (مرقس ١٢/ ١٣-١٧). قد يبدو لنا الجواب منطقيًّا، خصوصًا وأنّ المسيحيّين دأبوا على سرده كلّما اختلطت الأمور المادّيّة بالروحيّة. لكنّ المسألة لم تكن سهلة في أيّام يسوع، لأنّ الناس لا يعرفون أين تبدأ الأمور الخاصّة بقيصر وأين تنتهي. كان الرومانيّون يسيطرون على فلسطين، ويرى اليهود أنّ تلك السيطرة احتلال. لكنّ «الاحتلال الرومانيّ» له طابع خاصّ. فالرومانيّون حكموا مستعمراتهم وفقًا لعادات الشعب المحكوم وتقاليده. ففي فلسطين مثلًا، ظلّت القوانين والتشريعات كما كانت عليه بعد العودة من السبي، وسُلِّم زمام السلطة أحيانًا إلى حكّام يهود من أبناء البلد. وفي أثناء حكم الرومانيّين إقليم اليهوديّة، امتنع الولاةُ عن إدخال صور الإمبراطور أو تماثيل آلهتهم إلى المدينة المقدّسة احترامًا لشريعة اليهود. وكانوا يقضون بين الناس بحسب تلك الشريعة، وأعطوا السنهدريم، أي مجلس الأمّة اليهوديّة، الحقّ ببتّ كثيرٍ من القضايا ذات الطابع الدينيّ كالزنى والكفر ومخالفة السبت. لهذا، يمكننا أن نقول إنّ الناس عاشوا بحسب نظامَين، النظام الرومانيّ والنظام اليهوديّ. وتظهر المشكلات حين يتعارض النظامان. وهو ما حصل حين حاول بنطيوس بيلاطس أخذ مال الهيكل لجرّ المياه إلى أورشليم. فقد واجه معارضةً شديدة، مع أنّ جزءًا من مال الهيكل مخصّص لجلب المياه إلى المدينة

المقدّسة. لماذا ثار الناس على بيلاطس؟ لأنّه لا يحقّ لحاكم وثنيّ «نجس، صاحب قلفة»[1] أن يستعمل المال المقدّس للهيكل. فلو قام هيرودُس، الحاكم اليهوديّ، بتلك المحاولة بدل بيلاطس الوثنيّ، لما تظاهر الناس عليه. ولعلّ محاكمة يسوع خير مثالٍ على اختلاط النظامَين. ففي البداية، اتّهم السنهدريم يسوع بالكفر. ولأنّه أراد صلبه، والصلب لا يُنفّذ إلاّ بأمر الحاكم، والحاكم لا يبتّ القضايا الدينيّة، حوّل رؤساء اليهود المسألة إلى قضيّةٍ سياسيّة. وشعر بيلاطس بالفخّ وقال لمتّهمي يسوع: «خذوه أنتم وحاكموه بحسب شريعتكم. فأجابوه: لا يجوز لنا أن نحكم على أحدٍ بالقتل» (يوحنّا ١٨/ ٣١). وحين شعروا بأنّ الحاكم يريد إطلاق سراحه، جعلوا القضيّة سياسيّة بحتة. «إن أخليتَ سبيله فما أنتَ من أصدقاء قيصر، لأنّ مَن يدّعي المُلكَ يكون عدوّ قيصر» (يوحنّا ١٩/ ١٢).

كانت شكاوى اليهود على بيلاطس إلى السلطة في رومة كثيرة. فبالإضافة إلى حادث جرّ المياه، قامت عليه مظاهرة حين أدخل إلى أورشليم دروعًا عليها صورة الإمبراطور، ومظاهرةٌ أخرى حين سكّ عملةً تحمل رموزًا وثنيّة. وانتهز هيرودس أنتيباس تلك الفرص ليبيّن لرومة كيف لا يحترم بيلاطس مشاعر شعبه وشرائع اليهود، آملًا في عزله وضمّ إقليمه إلى إقليم الجليل الذي يحكمه. وبسبب جميع تلك المشكلات، لم يشأ بيلاطس مخالفة رؤساء اليهود في محاكمة يسوع، ورضي بأن يصلبه اعتمادًا على فتوى السنهدريم، لا على القانون الرومانيّ[2].

---

(١) «صاحب القلفة» تسمية يُشار بها إلى غير اليهود. لأنّ ختان الذكور، أي نزع القلفة، علامة على عهد الله مع شعبه (تكوين ١٧/ ١٠).

(٢) يبيّن الإنجيليّون، في سردهم محاكمة يسوع، موقف بيلاطس المتردّد والضغوط التي تعرّض لها كي يحكم بالصلب على بريء، أقلّه من وجهة نظر القانون الرومانيّ.

□ مجلس السنهدريم

في أثناء السبي، شعرت الجماعات المنفيّة إلى بابل بغربةٍ روحيّة كاملة. لأنّ جميع مقوّمات الأمّة سقطت. إنّها هناك، دون أرضٍ ولا مَلكٍ ولا هيكل. فما الذي تبقّى لها؟ لم يبقَ إلاّ الشريعة، ورجال الله القائمين على صونها وتعليمها. لذا، التفّ المنفيّون حول كهنتهم، وأسّسوا بنيةً أخرى للأمّة، وحافظوا عليها حتّى بعد عودتهم من السبي. وصاروا يؤمنون بأنّ السلطة لله وحده، وهو يقود شعبه بوساطة ممثّليه على الأرض، أي مجلس السنهدريم وكبير الكهنة.

اشتُقّت كلمة سنهدريم من الكلمة اليونانيّة «سينِدريّون» التي تعني مجلس شيوخ الشعب. ويدّعي اليهود أنّ عادة الحكم بوساطة المجلس تعود إلى أيّام موسى (عدد ١١/١٦). لكنّنا لا نجد لها أثرًا في أيّام الملوك، وأوّل ذكرٍ لها ورد على لسان فلافيوس يوسيفس، معاصر يسوع. فهو يخبرنا عن مجلسٍ للشيوخ تمّ تكوينه في عهد أنطيوخُس الثالث. ولم يبرز دوره إلاّ في أيّام يوحنّا هِرقانُس المكّابيّ (١٣٢-١٠٤ ق.م)، وكان أعضاؤه من وجهاء العائلات اليهوديّة الهامّة في فلسطين. وفي عهد الإسكندرة صالومة، انضمّ إليه أعضاء من طبقة الكهنة. ولم يُلغه الرومانيّون حين استولوا على فلسطين، بل منحوه صفةً قانونيّة.

يتألّف السنهدريم من سبعين شخصًا، كما ورد في سفر العدد الذي ذكرناه آنفًا[٣]. وتوزّع مقاعده بالتساوي تقريبًا بين الفئات التالية: رؤساء

---

(٣) حافظت الكنيسة الكاثوليكيّة على ذلك العدد في تشكيل مجلس الكرادلة حتّى المجمع الفاتيكانيّ الثاني. وتقول بعض المخطوطات إنّ يسوع اختار سبعين تلميذًا وأرسلهم يبشّرون، دلالةً على إدارة شعب الله الجديدة، في حين تذكر أقدم المخطوطات أنّ يسوع اختار اثنين وسبعين إشارة إلى عدد الأمم الوثنيّة الواجب تبشيرها (لوقا ١٠/١-٢٠). ففي سفر التكوين، ورد في النصّ العبريّ أنّ عدد الأمم هو ٧٠، في حين هو ٧٢ في النصّ اليونانيّ. وكان متيّا الذي انتُخِبَ بدل يهوذا الإسخريوطيّ ويُسطس الذي رُشّح معه منهم (أعمال ١/٢٣)، وكذلك تلميذا عمّاوس (لوقا ٢٤/١٣-٣٥).

الكهنة، أي كبار الكهنة المستقيلين وممثّلي الأربع وعشرين طبقة كهنوتيّة، والكتبة ومعلّمي الشريعة، وشيوخ الشعب، أي زعماء العائلات النبيلة التي يمكن لبناتها أن يتزوّجن الكهنة. يمثّل هؤلاء الأعضاء أهمّ تيّارين يهوديّين في فلسطين، أي الفرّيسيّين والصدّوقيّين. وورد في التلمود أنّ تعيين الرئيس يتمّ بالانتخاب. لكنّ العهد الجديد ويوسيفس المؤرّخ يبيّنان أنّ الرئاسة من حقّ رئيس الكهنة.

يظهر السنهدريم في محاكمة يسوع على أنّه مجلس قضاء. لكنّ دوره يفوق ذلك بكثير. فهو يدرس المسائل الدينيّة، ويعالج القضايا السياسيّة، ويسنّ القوانين والتشريعات، وله شرطته الخاصّة، وهو على اتّصالٍ مباشر بالسلطة الرومانيّة. ولمّا كانت الأمور الدينيّة والسياسيّة ممتزجة بعضها ببعض في أيّام يسوع، يمكننا القول إنّ السنهدريم أشرف على كلّ شيء، وهو أمرٌ لم يكن مستحَبًّا عند بعض الناس.

كانت سلطة رئيس الكهنة أوسع من سلطة رئاسة السنهدريم التي يتمتّع بها. فهو رئيس طبقة الكهنة، ممسوحٌ بالزيت المقدّس، وخاضعٌ لأنظمة حياةٍ صارمة هدفها المحافظة على قداسته وطهارته. ويمكن المرء أن يميّزه من النظرة الأولى بسبب ثيابه الخاصّة. فهو يختلف عن سائر الناس لأنّه يمثّل الله، وهو قائد الشعب الروحيّ. وساهمت الظروف السياسيّة قُبيل ميلاد المسيح في تعزيز دوره القياديّ. فقبل قرنٍ ونصف، شغل ذلك المنصب سمعان ويوناتان المكّابيّان، بطلا حرب التحرّر من السلوقيّين اليونان. وظلّ المنصب متوارَثًا حتّى أيّام يوحنّا هِرقانُس، الذي أضاف إلى نفسه لقب «الملك». فأصبح لرئيس الكهنة دورٌ سياسيّ ودينيّ في آنٍ واحد. وبعد المعارك الدمويّة أيّام الإسكندرينيّ في السنة ٧٦ ق.م، دخل الجيش الرومانيّ السوريّ أرض فلسطين وتسلّم زمام السلطة، وانحسر دور رئيس الكهنة ثانيةً في الشؤون الدينيّة، لكنّه لم يفقد لقبه السياسيّ. وفي السنة ٣٧ ق.م، قطع هيرودُس الكبير رأس كبير الكهنة، وأنهى حقّ الأسرة المكّابيّة في وراثة ذلك المنصب. كما فصل السلطة

المدنيّة عن الدينيّة، فأعلن نفسه ملكًا، وعيّن آخر رئيسًا للكهنة. ومع ذلك، حافظت ذاكرة الشعب على دور رئيس الكهنة المزدَوج، معتبرةً إيّاه الحاكم المطلق.

منذ أيّام هيرودُس، دأبت السلطة السياسيّة على التحكّم بالسلطة الدينيّة. وأصبح للتهديد والتآمر والمال دورٌ في اختيار المرشّحين لذلك المنصب. وكان الاختيار يقع على أكثر الكهنة مرونةً. فإذا تعنّت بعد ذلك، يُعزل ويُعيَّن سواه على الرغم من الصفة القدسيّة التي يتمتّع بها. ففي أيّام يسوع، سلّم قيرينُس حاكم سورية منصب رئيس الكهنة إلى حنّان في السنة ٧م. فظلّ في منصبه سبع سنوات حتّى عهد الإمبراطور طيباريُوس. وبعد عزله بسنة، تمكّن بوساطة نفوذه الكبير من منح ذلك المنصب لابنه أليازار ثمّ لصهره قيافا، الذي ظلّ في المنصب ١٨ عامًا. وفي السنة ٣٦، عزله حاكم سورية فيتيليوس، وعيّن مكانه ابني حميه يوناتان بن حنّان ثمّ حنّان بن حنّان الذي اتّخذ اسمًا يونانيًّا وهو تيوفيلُس.

إحترم اليهود في أيّام يسوع رئيس الكهنة ويجّلوه وعدّوه تجسيدًا حيًّا للشريعة. فأحاطوه بالإكرام المهيب، وسُرّوا برؤيته يقيم في أجمل قصور أورشليم. وكان يكفي رئيس الكهنة أن يطلق نداءً واحدًا لتقوم الثورة أو تخمد. لذا، حرص السياسيّون في البلاد على انتقاء رئيس الكهنة، ثمّ على إقامة علاقات طيّبة معه. وتُظهر الأناجيل كيف حاول بيلاطُس إرضاءه، لأنّ التعامل مع زعيم اليهود كان حسّاسًا، خصوصًا إذا كان محنّكًا مثل حنّان.

□ السياسة في فلسطين أيّام يسوع

لكي نفهم الحياة السياسيّة في فلسطين في أيّام يسوع، علينا أن نعود حوالى مئة سنة إلى الوراء، أي إلى أيّام الإسكندرينيّ (١٠٦-٧٦ ق.م) ابن يوحنّا هِرقانُس. كان متسلّطًا مثل أبيه، ومنح نفسه لقبَي الملك ورئيس الكهنة. فقامت عليه جماعة من المؤمنين الغيّورين، الذين يدّعون أنّهم

أبناء الحسّيديّين، أبطال مقاومة اليونانيّين. وعابوا عليه حروبه الدائمة وتحالفه مع أصحاب القُلَف، وسلوكه غير الأخلاقيّ، خصوصًا زواجه بأرملة، وهو أمر تحرّمه الشريعة على رئيس الكهنة (أحبار ٢١/ ١٣). فقمع الإسكندرينيّ ثورتهم بعنفٍ. خمسون ألف جثّةٍ طُرِحَت أرضًا، وثمانمئة سجينٍ صُلِبوا، ورئيس اليهود الروحيّ والزمنيّ يتناول أمام الصلبان وليمته ويتمتّع بعشيقاته وبمنظر المصلوبين يتلوّون ألمًا، وتتفطّر قلوبهم وهم يرون الجنود يذبحون نساءهم وأولادهم أمام عيونهم.

لقد شطرت تلك المأساة الشعب إلى حزبين، الأوّل مع الثوّار والثاني مع سياسة القمع باستعمال العنف. وتمنّى كثير من اليهود تدخّل مَن يمنع تكرار مجازر كهذه. وبعد موت الإسكندر، تسلّمت أرملته، الإسكندرة صالومة، زمام السلطة (٧٦-٦٧ ق.م). وظهر الثوّار ثانيةً، وملأوا السنهدريم بأصدقائهم من معلّمي الشريعة. وعندما ماتت الملكة، عُيِّنَ هِرقانُس الثاني، ابن صالومة، ملكًا ورئيس كهنة. فثار عليه أخوه أرسطوبولُس الثاني، واتّهمه بالغباء وعدم الكفاءة. ودارت الحرب الأهليّة رحاها مخلّفةً الكثير من القتلى والجرحى والمنكوبين. وفي أثناء ذلك، قام البدو الأدوميّون والعرب الأنباط بعدّة غزواتٍ على مدن اليهود وقراها، وأوسعوها نهبًا رسبيًا. وأصبح الحال لا يُطاق. فأرسل وجهاء اليهود مبعوثين إلى حاكم دمشق في السنة ٦٣ ق.م. يسألونه التدخّل ليعيد السلام بينهم. وعلِمَ الأخوان المتنازعان بالأمر، فأرسل كلٌّ منهما رسله إلى دمشق لاستمالة حاكمها مقابل مبالغ طائلة من المال. وكان يحكم دمشق في ذلك الحين والٍ اسمه بومبيّوس.

وبعد شهورٍ من التردّد، قرّر بومبيّوس التدخّل ومساندة هِرقانُس الغبيّ. وزحف بجيشه إلى أورشليم ليقضي على أرسطوبولُس، فاحتمى هذا في الهيكل مع معاونيه، فحاصره الجنود السوريّون ثلاثة أشهر، ثمّ فتحوا ثغرةً في السور واقتحموا الهيكل. ودخل بومبيّوس قدس الأقداس، والسيف بيده، وكلّه شوقٌ إلى رؤية إله ذلك الشعب، فلم يجد فيه شيئًا، لا

تمثالًا ولا صورة. لقد دخل الجيش السوريّ الرومانيّ فلسطين بناءً على طلب اليهود، ولأجل إحلال السلام بينهم. لهذا، كان في أيّام يسوع مَن يقبَلون الوجود الرومانيّ في بلدهم حتّى بعد مرور أكثر من ثلاثة أرباع قرن.

حوّل بومبيّوس مناطق اليهود إلى محميّةٍ رومانيّة، وجعلها تستقلّ عن الأقاليم الساحليّة اليونانيّة، وفرض عليها الضريبة المباشرة لروما، وثبّت هِرقانُس الثاني، رئيس كهنة اليهود، في منصبه الدينيّ والسياسيّ، ومنحه لقب الحاكم بدل الملك، وأرسل أخاه أرسطوبولُس مع ابنيه الإسكندر وأنتغونس أسرى إلى روما. لكنّ السجناء الثلاثة فرّوا من السجن بعد فترةٍ من الزمن، وعادوا إلى فلسطين وشكّلوا عصاباتٍ إرهابيّة، وأشعلوا نار الحرب الأهليّة مرّةً ثانية. فاضطُرّ الجيش السوريّ إلى التدخّل مرّة ثانية وثالثة لتهدئة الأوضاع. وجعل الحكّام الرومانيّون يفكّرون في نظام حكمٍ يلائم ذلك الشعب الغريب الأطوار. في تلك الأثناء، ظهرت في الميدان السياسيّ قوّة ثالثة سيكون لها شأنٌ هامّ. فمَن هي تلك القوّة؟

كان يوحنّا هِرقانُس، جدّ هِرقانُس الثاني وأرسطوبولُس الثاني، قد عيّن في أيّام حكمه شيخًا من بادية الجنوب حاكمًا على منطقة الأدوميّة الصحراويّة. واسم الشيخ أنتيباطِر. ومات الشيخ فخلفه ابنه الذي يحمل الاسم نفسه. وازداد نفوذ الابن بازدياد ثروته وبفضل معاهدته مع مملكة الأنباط في البتراء. فعيّنه بومبيّوس مساعدًا للمسكين هِرقانُس الثاني. واهتدى أنتيباطِر الأدوميّ إلى اليهوديّة، وبدأ يحلم في أن يصير سيّد إسرائيل. فتقرّب من الرومانيّين، وصادق قيصر، ونال منه لقب حاكم، ووضِعَت في أمرة ولدَيه هيرودُس وفيصَيل (فيصل؟) فرقتان من الجيش. وتسلّم هيرودُس ولاية الجليل وهو في الثامنة عشرة من عمره، فأظهر حنكةً في الإدارة وبراعة في إخماد ثورات الوطنيّين، خصوصًا تلك التي قادها المدعوّ حزقيّا. لهذا استاء منه السنهدريم، وغالبيّة أعضائه من الوطنيّين، وحاول إدانته، لكنّه لم يفلح في ذلك. وقمع هيرودُس ثورةً ثانية

قامت احتجاجًا على جور الضرائب التي فرضها الرومانيّون على الشعب، ممّا جعله المرشّح الوحيد لخلافة أبيه أنتيباطِر الثاني في السلطة والثروة، خصوصًا بعد موت الأب مسمومًا، لأنّه يماثله في الطموح ومهارة القيادة.

عرف هيرودُس وأخوه كيف يتقرّبا من إمبراطور رومة، وكيف يعلنا ولاءهما لكلّ مَن يعتلي العرش هناك. ولم تُجدِ المساعي اليهوديّة في إبعادهما عن الحكم. ففي عهد الإمبراطور أنطونيوس، عشيق الحسناء كليوباترا، حصل هيرودُس وأخوه على لقب أمير الربع. لكنّ أنطيغونس المكّابيّ، ابن أرسطوبولُس الثاني، استفاد من انشغال الإمبراطور بعشقه، وزحف على أورشليم مع عددٍ من الوطنيّين وجماعات المستائين من الضرائب. ولكي لا يتدخّل السوريّون ويبعدوه، وعد الحكومة الرومانيّة بأن يقدّم للإمبراطور، إن استولى على أورشليم، ألف مثقالٍ من الذهب وخمسمئة امرأة من شعبه هديّة. وشبّت الحرب الأهليّة للمرّة الثالثة، ودامت عدّة شهور. في آخر الأمر، استولى أنطيغونس على المدينة المقدّسة، وأعلن نفسه ملكًا ورئيس كهنة، وقبض على هِرقانُس المسكين وقطع له أذنيه وحطّم أسنانه لكي لا يصلح للكهنوت. فالشريعة تقضي بأن يخلو الكاهن من العيوب الجسديّة. وعندما رأى فيصئيل، أخو هيرودُس، أنّه يوشك على السقوط في يد عدوّه، انتحر محطّمًا رأسه بصخرة. وهرب هيرودُس إلى حصن مسّادة على البحر الميت. وحين علم بانتصار أنطيغونس وموت أخيه، أبحر إلى رومة، ووصلها في أثناء إعلان الهدنة بين أنطونيوس وأوكتافيوس. كان المتنازعان مشغولَيْن بأمورٍ كثيرة أهمّ من شؤون فلسطين. لذا، رأوا في هيرودُس الواصل إليهم خير مَن يُنهي فوضى اليهود، خصوصًا وأنّه خطيب ميريام، وهي أميرة حشمونيّة، أي من السلالة الملكيّة، ممّا يمنح حكمه شرعيّةً. وهكذا، اتّفق سادة رومة على إعلان هيرودُس، ابن الثلاث والثلاثين سنة، ملكًا لليهوديّة. وكان ذلك في السنة ٤٠ ق.م.

ظلّت رحى الحرب الأهليّة دائرة في فلسطين ثلاث سنواتٍ بعد

تنصيب هيرودُس ملكًا. وفي آخر الأمر، زحف الملك على أورشليم برفقة أحد عشر فيلقًا من المشاة وستّة آلاف فارس سوريّ. وبعد المجزرة الاعتياديّة، ألقى هيرودُس القبض على أنطيغونس، وقطع له رأسه بإذنٍ من الإمبراطور أنطونيوس[٤]. ثمّ حلّ السنهدريم الذي طالما قاومه ولم يقبل شرعيّة سلطته. وهكذا، ولِدَ يسوع في زمن هيرودُس الأدوميّ الملقّب بهيرودُس الكبير.

□ هيرودس الكبير

دام حكم هيرودُس الأدوميّ في الأقاليم اليهوديّة الفلسطينيّة من السنة ٣٧ ق.م إلى السنة ٤ ق.م[٥]. ويرتبط اسم ذلك الملك في ذاكرة المسيحيّين بمذبحة أطفال بيت لحم كما رواها متّى الإنجيليّ. ويبيّن البحث في شخصيّته أنّه كان رجلًا شديد البأس وسياسيًّا بارعًا بعيد النظر. أطلق معاصروه لقب الكبير عليه لعظمة ملكه، حتّى وإن كان ثمن تلك العظمة باهظًا. إنّه آخر ملوك إسرائيل العظماء وقد حرص في سياسته على التقرّب من رومة، أو بمعنى أدقّ، من الرجل الأوّل فيها. فعلى سبيل المثال، ساند أنطونيوس في البداية، وتحوّل عنه بحنكةٍ حين أغرق أكتافيوس أسطوله. وفي أثناء التتويج، قال للإمبراطور الجديد: «كنتُ الصديق الوفيّ لأنطونيوس. وحاولتُ مرارًا أن أمنعه عن سلوك طريق الهلاك الذي دفعته فيه كليوباترا. إن وثقتَ بي، أكون أوفى أصدقائكَ». وفي أورشليم، بنى قصره المحصّن في جوار الهيكل ليراقب جميع تحرّكات المعارضة، ويقضي عليها في مهدها. لأنّ غالبيّتها تجتمع في الهيكل وتنطلق منه. وسمّى ذلك القصر «أنطونيا» على اسم أنطونيوس. وسمّى إحدى صالاته «قيصر»، وأطلق اسم أغريبا على صالة أخرى، وهي

---

(٤) كانت النبالة الرومانيّة تقضي بعدم قتل حاكم أو قائد متمرّد دون إذنٍ من الإمبراطور.
(٥) تثبت الأبحاث التاريخيّة أنّ يسوع ولِدَ في السنة ٦ ق.م. أي في عهد هيرودُس كما تقول الأناجيل.

أسماء الأباطرة الذين توالوا على كرسيّ رومة في أثناء حكمه. بهذه الطريقة، تمكّن من توسيع رقعة سيطرته حتّى قاربت في امتدادها مساحة مملكة سليمان في أيّام مجده. وحين تخلّص من منافسه أنطيغونس بمساعدة الجيش السوريّ، دفع مالًا كثيرًا ليعود ذلك الجيش إلى بلده، ويكون هو السيّد الوحيد على أراضي مملكته بمعونة جيوشه المرتزقة.

لم ينصّب هيرودُس نفسه رئيس كهنة، لأنّه يعلم أنّ اليهود لن يقبلوا ذلك إطلاقًا. فكان يعيّن رؤساء الكهنة بنفسه، ويختارهم من عائلاتٍ قليلة النفوذ لكي لا يزاحموه على السلطة. ففي أثناء ملكه، عيّن حوالى سبعة رؤساء كهنة لم يحفظ التاريخ لهم ذكرًا باستثناء صهره أرسطوبولُس الحشمونيّ. فقد تسلّم مهمّته الكهنوتيّة وهو في السابعة عشرة من عمره. وبعد ستّة أشهرٍ من تعيينه، شعر هيرودُس بأنّه يدبّر له مكيدة، فأرسل حرسَه فأغرقوه وهو يستحمّ في حوض السباحة بقصر أريحا. أمّا هِرقانس الثاني، الذي قطع له أنطيغونس أذنيه وحطّم أسنانه، فقد أعطاه هيرودُس مسكنًا في أورشليم، وأحاطه برعاية أبويّة تقديرًا لما عاناه من أعدائه.

كان هيرودُس دائم القلق في حكمه. فهو يعلم أنّ اليهود يكرهونه لأنّه أدوميّ، دخيل على الديانة اليهوديّة[٦]، فرضه الرومانيّون عليهم فرضًا. بالإضافة إلى أنّ سلوكه يخالف الشريعة أحيانًا. فعلى سبيل المثال، علّق النسر الرومانيّ على باب الهيكل، مع أنّ الشريعة تحرّم استعمال الصور والمنحوتات. فتسلّل أربعون شابًّا إلى الهيكل ليلًا وحطّموا النسر. فاعتقلهم وأحرقهم أحياء. ومع ذلك، ازدهر الاقتصاد في

---

(٦) أطلق اليهود اسم «الدخيل» على كلّ مَن اعتنق ديانتهم، لأنّه لا ينحدر من سلالة الأسباط الاثنَي عشر. وتُطلق تلك التسمية أيضًا على أبناء الدخلاء وحفدتهم وجميع ذرّيّتهم. وكان بعض اليهود، خصوصًا الكتبة والفرّيسيّون، يزدرون الدخلاء ويسمّونهم «سيّئو الختان». وقد انتقد يسوع ذلك الموقف من الدخلاء أشدّ انتقاد (متّى ٢٣/١٥).

أيّامه، وساد السلام. وهو أمر من شأنه أن يهدّئ كثيرًا من النفوس، خصوصًا وأنّ الناس يذكرون بهلع معاناتهم الحروب الأهليّة وكوارثها. وانتشرت في عهده المباني الضخمة والصروح، وكثُرت الولائم وشُيِّدَت الحصون والقلاع كقلعة البحر الأحمر والهيروديون، وأعيد بناء المدن مثل مدينة السامرة، وأصبح ميناء قيصريّة أجمل موانئ البلاد. وفي أورشليم، بنى هيرودُس الكبير مسرحًا ومدرّجًا للألعاب وحلبةً للسباق، مع أنّ اليهود الأتقياء يعارضون الألعاب والتمثيل الوثنيّ(٧). وبنى حصن الأنطونيا في جوار الهيكل كما قلنا، وباشر ترميم الهيكل وتوسيعه وزخرفته.

كانت المعارضة تشتدّ في بعض الأحيان وتتحوّل إلى مقاومة منتظمة، فيُضطرّ هيرودُس إلى قمعها بأساليب وحشيّة. وازداد بطشه عنفًا حين كشف أمر عدّة مؤامراتٍ حيكت عليه، خصوصًا من طرف أسرته. ويذكر التاريخ أنّه أمر بذبح جميع أطفال الحشمونيّين، أي أبناء سلالة الملك الشرعيّة. وعندما شكّ في تآمر امرأته ميريام الحشمونيّة عليه لاغتياله، سلّمها للتعذيب، مع أنّها الزوجة الوحيدة التي أحبّها من بين زوجاته العشر. وعندما ماتت من التعذيب، دفن معها جميع أبنائها الذين ولدتهم له. كما قتل خمسةً من أبنائه ولدتهم له زوجات أخريات للسبب نفسه. وقبل يومٍ واحدٍ من وفاته، أمر بقطع رأس ابنه أنتيباطر. لذلك علّق أوغسطس قيصر على تصرّفاته تلك بسخريةٍ وقال: «في فلسطين، من الأفضل أن يكون المرء خنزيرًا من أن يكون ابنًا لهيرودُس». فإنّ أوغسطس يعلم أنّ اليهود لا يذبحون الخنزير لأنّهم لا يأكلون لحمه.

دام حكم هيرودُس على هذا النحو ٣٣ سنة. فهنا شنق مئات الفرّيسيّين لأنّهم انتقدوه علنًا، وهناك قتل ٣٠٠ ضابط شكّ في تآمرهم عليه بالسامرة. وحين يحاول شبّان غيّورون أن ينزعوا النسر الرومانيّ الذي علّقه على باب الأقداس في الهيكل، يحرقهم أحياء أو يأمر برجمهم.

(٧) كان المشاركون في الألعاب يتبارون وهم عراة.

وباتت آخر أيّام حكمه أحلك ظلمةً من أوّلها. فقد أصيب بالحمّى التيفيّة، وكاد يموت منها، فخلّف ذلك في نفسه آثارًا نفسيّة وجسديّة سيّئة. صار يرى في كلّ قريبٍ منه صورة قاتل. وشعر بالذنب لأنّه قتل زوجته ميريام الحشمونيّة التي أحبّها، فجعل يناديها في جميع أرجاء القصر، ويزيد تعذيب مَن يعتقد أنّهم أعداؤه. وابتعد الجميع عنه، فعاش في صمت قبورٍ لا يقطعه إلاّ صلوات عمّال الهيكل وصرخات المعتقَلين. وأصيب بالسرطان المعويّ، وانتشرت القروح في جسده، ولم تفده حمّامات المياه المعدنيّة قرب البحر الميّت بشيء. ودخل في نزاعٍ رهيبٍ تملأه كوابيس صور ضحاياه، فأوصى بقتل جميع نبلاء مملكته حين يموت، «لكي يكون هناك بكاءٌ على الأقلّ».

واستولى الحزن واليأس والخوف على قلوب الناس، وانقطع الرجاء. لأنّهم إن تخلّصوا من طغيان هيرودُس، سيقعون دون شكّ فريسة الحرب الأهليّة مرّةً أخرى، أو سيرزحون تحت نير السيطرة الرومانيّة. في وسط ذلك الجوّ القاتم، ظهر ملاكٌ في السماء لرعاة يبيتون في البرّيّة بالقرب من بيت لحم وقال لهم: «لا تخافوا، إنّي أبشّركم بفرحٍ عظيمٍ يفرح له الشعب كلّه، وُلِدَ لكم اليوم في مدينة داوُد مخلّص وهو المسيح الربّ» (لوقا ٢/ ١١).

□ ورثة هيرودس

يخبرنا لوقا الإنجيليّ بأنّ يوحنّا المعمدان ظهر في البرّيّة يعمّد ويدعو إلى التوبة «في السنة الخامسة عشرة من حُكم القيصر طيباريُوس، إذ كان بنطيوس بلاطس حاكمَ اليهوديّة، وهيرودُس أمير الرُّبع على الجليل، وأخوه فيلبُّس أمير الرُّبع على ناحية إيطورية وطراخونيطس، وليسانياس أمير الرُّبع على أبيلينة، وحنّان وقيافا عظيمَي الكهنة...» (لوقا ٣/ ١). ما الذي حصل؟ لقد انقسمت مملكة هيرودُس الكبير بعد وفاته إلى أربع ولايات، وسيطر الرومانيّون على اثنتين منها. وحصل كلّ والٍ يهوديّ فيها على لقب أمير الربع.

رأى هيرودُس قُبَيل وفاته أنّه ما من وريثٍ يمكنه إدارة المملكة وحده، ولا بدّ من التعاون العائليّ. لذا، أوصى بأن تجزّأ المملكة إلى أربعة أقسام. فوهب لولده أرخِلّاوس، ابن السامريّة ملتاك، القسم الأوسط من البلد، أي أدوم واليهوديّة والسامرة، ولأنتيباس قسم الجليل مع امتداد جنوبيّ باتّجاه الضفّة الغربيّة، ولفيلبُّس ابن كليوباترا، وهي مصريّة يونانيّة من مواليد أورشليم، جزء ما بعد جِنّاسَرِت حتّى منطقة باشان الجبليّة. ويبدو أنّه وهب لهيرودُس فيلبُّس الأوّل، وهو ابنه البكر، ولاية أبيلينة. لكنّه كان ضعيف الشخصيّة، فنُحّي عن العرش تنحية صريحة. فجعل يعلّل نفسه، بعد خسارة المملكة، بتولّي منصب رئيس الكهنة، لأنّ أمّه من السلالة الكهنوتيّة. لكنّه عوض عن أن يُكافأ على انتظاره الطويل للتاج المقدّس، رآه يتنقّل على التوالي إلى أخوال أمّه فإلى جدّه فإلى عمومته، وهو لا يزال كاهنًا بسيطًا عرضةً لاستهزاء هيروديّا، زوجته الطموح، التي تركته بعد حين لتتزوّج أخاه هيرودُس أنتيباس، أمير الربع في الجليل.

• **أرخِلّاوس**

مات هيرودُس في عيد الفصح، فرأى اليهود في تلك المصادفة فألًا حسنًا، لأنّ الفصح عيد التحرّر من العبوديّة. وحين انتهت مراسم الدفن في قلعة الهيروديون، أعلن أرخِلّاوس أنّه سيبحر إلى رومة ليقابل أوغسطس وينال منه تصديقًا على لقبه الملكيّ. وسأل الشعب المجتمع في أورشليم ما هي طلباته، فطالب هذا بتخفيض الضرائب وذلك بمعاقبة مستشاري هيرودُس. حينئذٍ أعلن الوريث رفضه جميع الطلبات، ممّا سبّب بلبلة شديدة. فتدخّل الجنود وداهموا الهيكل ثمّ غادروه تاركين وراءهم ٣٠٠٠ جثّة. وبعد رحيل أرخِلّاوس، شبّت ثورة أخرى احتجاجًا على جور أحد جباة الضرائب الرومانيّين، فتدخّل الجيش مرّتين ولم يفلح في إعادة الهدوء. وانتشرت العصابات المسلّحة في كلّ فلسطين، وأُحرِقَ قصر أريحا، وفرّ ألفا جنديّ من جيش هيرودُس، وانطلقوا يداهمون

قطعات الجيش الملكيّ. وبرز قادة للثوّار أعلنوا أنفسهم ملوكًا مثل أترنجانُس في اليهوديّة ويهوذا الجليليّ، وهو ابن حزقيّا، أحد الذين أعدمهم هيرودُس لتآمره عليه. واضطُرّ حاكم سورية إلى التدخّل شخصيًّا لتهدئة الأوضاع، وصلب حوالى ألفي يهوديّ. فبعث وجهاء اليهود رسلًا إلى رومة يسألون القيصر أن يلغي وصيّة هيرودُس. فلم يمنح أرخِلّاوس إلاّ لقب والٍ على أن يعيّنه ملكًا في المستقبل إن كان حكيمًا فطنًا في إدارة ولايته.

وعاد أرخِلّاوس إلى فلسطين، وشرع يرتكب الخطأ تلو الخطأ حتّى عادى جميع أبناء ولايته. فقد عزل رئيس الكهنة وعيّن آخر ما لبث أن عزله أيضًا، وأغاظ الفرّيسيّين حين تزوّج غلافيرا الجميلة، أرملة أخيه الإسكندر الحشمونيّ، وهو زواج تحرّمه الشريعة. وزاد الضرائب لإعادة بناء قصر أريحا، ولتأسيس مدينة تحمل اسمه. فاندلعت الثورة ثانيةً، وعاد معها نظام القمع. لذلك خاف يوسف خطيب مريم أن يعود إلى اليهوديّة، وأوحي إليه بالحلم أن يذهب إلى الجليل، ويقيم في الناصرة (متّى ٢/ ٢٢-٢٣). ولم يسكت اليهود على تعسّف أرخِلّاوس، فسافر وفدٌ منهم إلى رومة في السنة ٦م، وطالب بمحاكمة ذلك المستبدّ. فحوكم ونُفي إلى فِينّا حيث قضى نحبه.

كان حكم ابنَي هيرودُس الآخَرَين أفضل من حُكم أرخِلّاوس. وكانا يتنافسان في إظهار الولاء لرومة. فحين بنى هيرودُس أنتيباس مدينةً جديدة سمّاها طبريّة على اسم طيباريوس، أطلق فيلبّس اسم جوليا، زوجة الإمبراطور، على بيت صيدا، وعندما رمّم الأوّل مدينة ليفيا، بنى الآخر «قيصريّة»، التي عُرِفَت باسم «قيصريّة فيلبُّس» لتمييزها عن قيصريّة، الميناء الفلسطينيّ الهامّ على ساحل البحر الأبيض المتوسّط.

- **هيرودُس أنتيباس**

كان هيرودُس أنتيباس والي الجليل في أيّام يسوع. واعتادت

الأناجيل اختصار اسمه إلى هيرودُس. وهو الذي وصفه يسوع بالثعلب حين أخبره بعض الفرّيسيّين بأنّه ينوي قتله (لوقا ١٣/ ٣٢). وقد أثار هذا الوالي فضيحةً حين طلّق امرأته الشرعيّة في السنة ٢٨م، وتزوّج بهيروديّا، امرأة أخيه من أبيه هيرودُس فيلبُّس الأوّل، وزوجها حيّ يُرزق. وعندما احتجّ يوحنّا المعمدان علنًا على الزواج، زجّه في السجن ثمّ قطع رأسه (مرقس ٦/ ١٤-٢٩). وفي أثناء محاكمة يسوع، كان حاضرًا في أورشليم لأجل الفصح. فحاول بيلاطس التخلّص من ورطة الحكم على يسوع، فأرسله إلى هيرودُس، والي الجليل، لأنّ يسوع كان جليليًّا (لوقا ٢٣/ ٦-٧).

عاش هيرودُس أنتيباس حياةً وثنيّة. ووضع في قصره كثيرًا من الصور والمنحوتات التي تحرّمها الشريعة. لكنّه حرص على أن يظهر بمظهر اليهوديّ الغيّور على دينه. لذا، نعته يسوع بالثعلب. كان يرسل تقادمه إلى الهيكل بانتظام، ولم ينقش صورًا على عملته. وآزر المحتجّين على بيلاطس الذي أدخل تروسًا إلى أورشليم عليها صورة الإمبراطور. وسعى مرارًا إلى تسويد صفحة حاكم اليهوديّة أمام إمبراطور رومة، طمعًا في ضمّ المدينة المقدّسة إلى ولايته. واستغلّ احترام الرومانيّين تقاليد الشعوب الخاضعة لهم، وجعل يبيّن لأصحاب الشأن كيف لا يحترم بيلاس تقاليد اليهود، وكيف لا يصلح للمنصب الذي يشغله. لهذا السبب، نشأ عداءٌ بين بنطيوس بيلاطس وهيرودُس. ويقول لوقا الإنجيليّ إنّهما تصالحا في أثناء محاكمة يسوع (لوقا ٢٣/ ١٢).

وبسبب أحلام هيرودُس التوسّعيّة، عكف على تخزين السلاح في قصوره. فوشى به ابن أخيه هيرودُس أغريبا الأوّل. في بداية الأمر، نفى هيرودُس التهمة. ثمّ ادّعى أنّه يفعل ذلك ليصدّ هجمات العرب. لأنّ العرب الأنباط يضمرون له الشرّ بعد أن تزوّج أميرةً منهم ثمّ طلّقها ليتزوّج هيروديّا. ولم يقنع دفاعه قاليغولا، إمبراطور رومة في ذلك الحين، فنُفي إلى مدينة ليون الفرنسيّة. وخُيِّرَت هيروديّا بين الذهاب معه إلى المنفى أو

العودة إلى فلسطين، فاختارت أن تظلّ مع الرجل الذي تكبّد كثيرًا من المتاعب لأجلها. طبعًا، لم يشِ هيرودُس أغريبا الأوّل بعمّه وفاءً للرومانيّين، بل طمعًا في الاستيلاء على ولايته. وكان له ما أراد. ففي السنة ٣٧م، عيّنه الإمبراطور واليًا خلفًا لعمّه فيليبُّس الذي مات في السنة ٣٤. وبعد الوشاية، ضُمّ الجليل إلى ولايته.

• **فيلبّس**

لم يكن لفيلبُّس، ثالث وريث هيرودُس، دورٌ هامٌّ في التاريخ. فقد حكم إقليمًا صغيرًا معزولًا، يسكنه شعبٌ قال فيه إسطرابون المؤرّخ إنّهم لا يعيشون إلاّ من الجريمة. كان يعلم أنّ الطموحات الكبيرة لا تلائم طبعه اللطيف الوديع. فصبّ اهتمامه على الفنون والآداب والعلوم، وخصوصًا الجغرافيا التي برز فيها. فقد تمكّن من حلّ مشكلة منابع نهر الأردنّ. كان لا يتكلّم إلاّ اليونانيّة، ويعيش على الطريقة اليونانيّة، ولم يتردّد في نقش صورته على العملة التي سكّها لولايته، مثل أيّ أميرٍ يونانيّ.

يمكننا القول إذًا إنّه ساس فلسطين في أثناء حياة يسوع العلنيّة رجلان وهما هيرودُس أنتيباس اليهوديّ، والي الجليل، وبنطيوس بيلاطس الرومانيّ، والي اليهوديّة والسامرة. أمّا الولاية التي انتُزِعت من أرخِلّاوس، فكانت قليلة الأهمّيّة بالنسبة إلى البلد. وكان يديرها حكّامٌ يعيّنهم والي سورية.

• **بنطيوس بيلاطس**

إنّه رومانيّ الأصل والمنشأ. تسلّم ولاية اليهوديّة والسامرة في السنة ٢٦م، وهو من العسكريّين المعروفين بإخلاصهم للإمبراطور. في أناجيل محاكمة يسوع، يظهر بيلاطس ضعيف الشخصيّة. يحبّ العدل لكنّه جبان. يسعى إلى أن يكون مستقيمًا، لكنّه يخشى أن يشكوه أحدٌ إلى الإمبراطور. لقد عانى صعوبات كبيرة في إدارة ولايته، وعجز عن معالجة المشكلات التي واجهته بفطنة. فبالإضافة إلى الأزمات التي أشرنا إليها

سابقًا، أي مشروع جرّ المياه إلى أورشليم وإدخال صور الإمبراطور إلى المدينة المقدّسة، يخبرنا لوقا أنّ بعض الحجّاج الجليليّين تظاهروا في الهيكل فمزج دمهم بدم ذبائحهم (لوقا ١٣/ ١). فزادت كراهيّة اليهود له وازداد استياؤه منهم. فأيّ حاكمٍ يرضى بأن تُمارَس عليه ضغوطٌ ليحكم ظلمًا كما حدث له في محاكمة يسوع؟ ولعلّه، من شدّة استيائه، علّق على الصليب جملة «يسوع الناصريّ ملك اليهود»، ليعبّر عن كرهه لليهود. وبعد ستّ سنواتٍ من تلك المحاكمة التاريخيّة، قام نبيٌّ في السامرة وأكّد أنّ تابوت العهد وأدوات الليترجيّة التي استعملها موسى في الطقوس مدفونة في رأس جبل جِرِزّيم، وأنّه سيذهب بنفسه ليجدها. وفي اليوم الموعود، تجمّع الناس عند سفح الجبل وبدأوا يتسلّقونه وهم ينشدون المزامير. وعند القمّة، كان جنود بيلاطس في انتظارهم لتفرقتهم. وحدث صدام بين الجيش والجمع وانتهى بمجزرة. فاشتكى السامريّون إلى فيتيليوس حاكم سورية، فعزله، واستدعته رومة وحكمت عليه بالنفي إلى بلاد الغال. ويقول أوسابيوس إنّ بيلاطس انتحر في المنفى يائسًا.

□ السياسة في أيّام الرسل

توالى الحكّام على السامرة واليهوديّة بعد بيلاطس حتّى السنة ٣٧م. وفي تلك السنة، توحّدت إدارة الولايات، كما كانت في أيّام هيرودُس، وحكمها هيرودُس أغريبا الأوّل، حفيد هيرودُس الكبير. إنّه آخر ملوك اليهوديّة. يسري في عروقه دم العائلة الأدوميّة المالكة وكبار الكهنة المكّابيّين. فهو حفيد الزوجة الحشمونيّة التي قتلها هيرودُس. تربّى في رومة، وعاش طيش شبابه مع قاليغولا، الذي صار إمبراطورًا وجعله واليًا مكان فيلبّس، ثمّ انتزع له ولاية الجليل من عمّه، كما ذكرنا سابقًا، وسلّمه إدارة شؤونها. كان هيرودُس أغريبا الأوّل حاذقًا في الحكم وفطنًا في الإدارة، مثل جدّه هيرودُس الكبير. فبعد اغتيال قاليغولا، أرسل جيشًا لدعم قلوديوس. وعندما نُصِّبَ هذا إمبراطورًا، عبّر لأغريبا عن شكره بأن

أضاف إلى مملكته إقليمَي السامرة واليهوديّة. وهكذا، توحّدت مملكة هيرودُس الكبير ثانيةً تحت لوائه.

عاش أغريبا بحسب شريعة اليهود. واهتمّ بتمويل الهيكل والصلاة فيه يوميًّا. وأرسل شرطته مرّةً لملاحقة شبّانٍ وثنيّين أدخلوا تمثال الإمبراطور إلى مجمعٍ يهوديّ. ولكي ينال رضى السنهدريم، طارد المسيحيّين فقتل يعقوبَ أخا يوحنّا بالسيف وسجن بطرس (رسل ١٢/١-٣). وبنى سورًا ثالثًا لحماية أورشليم. لكنّ تقواه اليهوديّة كانت خدعة بارعة. ففي قيصريّة، عاش على الطريقة اليونانيّة، ونصب تماثيل له ولبناته، وسكّ نقودًا تحمل صورته، وكتب عليها عبارة «صديق الرومان».

مات أغريبا الأوّل، فلم يسلّم الرومانيّون ابنه أغريبا الثاني مملكة أبيه، ولم يرث منه إلاّ المال وإقليم عنجر الذي كان يديره أحد عمومه. ونهج أغريبا الثاني منهج أبيه في التقرّب من رومة، ونال حظوةً في عيني نيرون، وتمكّن من مبادلة ولايته بتلك التي حكمها فيلبُّس، ثمّ ضمّ له الإمبراطور ولاية الجليل أيضًا. فعبّر لنيرون عن شكره وغيّر اسم قيصريّة فيلبّس وجعله نيرونيا.

سخّر أغريبا الثاني يهوديّته لخدمة مصالحه الشخصيّة. لكنّ قصّة عشقه لأخته برنيقة، أرملة هيرودُس العنجريّ، وعشق طيطس لها في الآن نفسه، صارت على كلّ لسان. ويذكر سفر أعمال الرسل أنّها كانت معه عند فسطُس حين تمّت محاكمة بولس (أعمال ١٣/٢٥). كانت تطمح إلى أن تكون إستير الثانية. لكنّ المملكة الهيروديّة فقدت كلّ قوّتها بعد موت أغريبا الأوّل. وباتت الأمور في يد الولاة الإمبراطوريّين أمثال فيلِكس وفسطُس وقومانس. واستمرّ الوضع يتدهور في فلسطين، واليهود يحلمون بعودة أيّام المكّابيّين ويستعدّون للحرب، حتّى تفجّرت الأزمة في الستّينات. حينئذٍ، زحفت الجيوش الرومانيّة على أورشليم ودمّرتها، وأحرقت هيكلها في السنة ٧٠. وفي السنة ١٣٥، سحق ابن الكوكب ثورةً يهوديّةً ثانية، وأنهى بذلك كلّ وجودٍ سياسيّ لليهود في المنطقة.

□ حرب اليهود

في مطلع الستّينات، قويت شوكة المعارضة، وبرز دور الخنجريّين بقيادة يوحنّا الجشقالي. كان هؤلاء يغتالون الرومانيّين ومَن يتعاونون معهم بالخناجر. ونشبت نزاعات بين الأحزاب، وتناحر الصدّوقيّون والفرّيسيّون والغيّورون داخل المدينة المقدّسة. فمنهم مَن تحصّنوا في برج داوُد، ومنهم مَن طوّقوا الهيكل واحتلّوا أوفيل وبيت حسدا، ومنهم مَن اعتصموا داخل الحرَم. وهبّ الخنجريّون يسبون النساء اليهوديّات وينتهكون الأعراض ويستبيحون القتل والسرقة. فزحف طيطس على أورشليم في نيسان (أبريل) من السنة ٧٠ وحاصرها. وكان فيها عشرة آلاف محارب يهوديّ وخمسة آلاف أدوميّ من المرتزقة. فظنّ اليهود أنّهم قادرون على مواجهة الحصار بأعدادهم وأسوار مدينتهم المنيعة والمنجنيقات التي استولوا عليها من الكتائب الرومانيّة. لكنّهم لم يحسبوا حساب المؤونة، خصوصًا وأنّ الحصار ضُرِبَ حول المدينة وحجّاج الفصح فيها. فعانى الناس الفاقة وبدأوا يسعون إلى الهرب. فكان كلّ مَن حاول الفرار يقع في متاريس المحاصرين. وكان الرومانيّون يبترون أيدي النساء الفارّات ويردّونهنّ إلى المدينة، ويصلبون الرجال أمام عيون مواطنيهم. واندلعت يومًا أمعاء أحد المصلوبين من كثرة الدنانير الذهبيّة المخبّأة فيها، فأخذ الرومانيّون منذ ذلك الحين يبقرون بطون المصلوبين عن يد معاونيهم في الجيش من البدو والزنوج.

واشتدّت وطأة المجاعة، فأكل بعض الناس بعضهم الآخر. وبعد مائة يوم من الحصار، داهمت الجيوش المحاصرة أورشليم فوجدت أهلها أطيافًا من الجوع. واعتصم في الهيكل مَن تمكّن من الفرار من حدّ السيف. وحاول طيطس أن يستولي على الهيكل من دون إضرام النار فيه فعجز. فأشعل النيران عند الأبواب، فالتهب الأرز النفيس ومال الذهب والفضّة وانهار رواق سليمان. وعبر العُصاة ألسنة اللهب وفرّوا من الهيكل حيث كانوا يختبئون، ولجأوا إلى المدينة العالية. فتعقّبتهم الخيّالة

وقتلتهم. واقتحم الجنود الهيكل وأمعنوا بمَن فيه قتلًا وسبيًا، وذبحوا الكهنة وذكّوا الحرائق.

في تلك الأثناء، كان المسيحيّون يقيمون خارج المدينة، لأنّهم شعروا باقتراب الخطر ففرّوا في الوقت المناسب. فقد تذكّروا يوم كان يسوع خارجًا من الهيكل فقال له واحد من تلاميذه: «يا معلّم انظر! يا لها من حجارة ويا لها من أبنية!». فقال له يسوع: «أترى هذه الأبنية العظيمة؟ لن يُترك هنا حجر على حجر من غير أن يُنقَض» (مرقس ١٣/ ١-٢). وكان المسيحيّون يتذكّرون الكوارث التي أنبأ يسوع بحدوثها في أورشليم (متّى ٢٤/ ١٥-٢٢)، كلّما وردتهم أخبار الدمار المريعة.

□ كيف ساس الرومانيّون فلسطين؟

احترمت الإدارة الرومانيّة يهود فلسطين احترامًا فائقًا، وراعت مشاعرهم الدينيّة إلى أقصى الحدود. كان حاكم اليهوديّة يسكن قيصريّة، ولا يأتي إلى أورشليم إلاّ في الأعياد، ليراقب عن كثب تجمّعات اليهود التي قد تؤدّي إلى انتفاضة شعبيّة. وما سبب إقامة الحاكم بعيدًا عن عاصمة ولايته إلاّ رغبته في عدم جرح مشاعر اليهود الذين يستاؤون من رؤية حاكمهم يعيش على الطريقة الوثنيّة داخل مدينتهم المقدّسة. كما أقامت قطعات الجيش في سورية، ولم يبقَ في الأراضي اليهوديّة إلاّ فرقٌ مساعدة قوامها جنود يونانيّون وسوريّون وسامريّون. أمّا اليهود، فكانوا معفيّين من خدمة العلم. كلّ هذا لأنّ رومة أمرت حكّام أقاليم اليهود بأن يحترموا مشاعر الشعب، خصوصًا في المسائل الدينيّة. ودأب القياصرة على إرسال تقادمهم إلى الهيكل بانتظام. فعلى سبيل المثال، يخبرنا فيلون الإسكندريّ أنّ أوغسطس أمر بأن يُقرَّب يوميًّا ثور وحَمَلان ذبيحةً إلى الربّ على نيّته ونيّة الشعب الرومانيّ. وحين يُضطرّ الجيش إلى دخول أورشليم، يُخفي صور الإمبراطور المنقوشة على دروعه وراياته. ولم تُستعمل في اليهوديّة إلاّ عملات برونزيّة، ولم تُنقش عليها أيّ صورة،

وإنّما اسم الإمبراطور وبعض الرموز اليهوديّة. وكان يهود فلسطين، مثل يهود الشتات، معفيّين من إكرام تماثيل الإمبراطور، في حين أُجبِرَت الشعوب الأخرى على ذلك الإكرام. وحين أعلن قاليغولا المجنون نفسه إلهًا، اتّفق حاكم سورية وأغريبا الأوّل على عدم الانصياع لأوامره.

نستنتج من ذلك كلّه أنّ سبب استياء اليهود من الرومانيّين لم يكن سياسيًّا بقدر ما كان اقتصاديًّا. فالضرائب لم تكن باهظة، لكنّ جباتها استغلّوا تحصيلها أسوأ استغلال ليغتنوا. ولم يراعوا أنّ اليهوديّ مُلزمٌ أيضًا بدفع ضريبة الهيكل.

كانت الإدارة الرومانيّة تحصي عدد رعاياها لأجل حساب الضرائب. ففي أيّام يسوع، تمّ إجراء ثلاثة إحصاءات. الأوّل في السنة ٢٨ ق.م. والثاني في السنة ٨م، والثالث في السنة ١٤. ويتمّ الإحصاء بأن يعود المرء إلى «بيت أجداده». لذلك تضايق السكّان كثيرًا، خصوصًا وأنّهم شعروا في الإحصاء بأنّ الرومانيّين يعدّونهم مثلما تُعَدُّ البهائم. بالإضافة إلى ذلك، صعُب على اليهود أن يقبلوا حكم الغرباء لهم، لشعورهم بأنّهم شعبٌ مصطفى. فعلى الرغم من تاريخهم الحالك، والحروب المدنيّة التي أفنى بعضهم فيها بعضهم الآخر، ودور الرومانيّين، وخصوصًا السوريّين، في إحلال السلام بينهم، أبت كرامتهم أن ترضى بحكم «الكفّار الحقيرين الأنجاس»، كما كانوا يردّدون. لأنّ التلمود يعتبر الرومانيّ، وحتّى أيّ إنسان غير يهوديّ، نجسًا ويجب تجنّب التعامل معه أو الدخول إلى بيته. ففي محاكمة يسوع، اضطُرّ بيلاطس إلى الخروج من داره لكي يتحاور مع اليهود (يوحنّا ١٨/٢٨). ويقرّ بطرس الرسول بأنّه حين دخل بيت قرنيليوس، قائد المئة، قام بعملٍ غير مشروع (أعمال ١٠/ ٢٨). وفي أشعار سيبيلّيا، يصف اليهود جيرانهم الرومانيّين بأنّهم «الوطنيّون وفجّار وقتلة». ومع ذلك كلّه، عاش في أيّام يسوع يهودٌ مستنيرون رأوا في الحكم الرومانيّ حلًّا لحروبهم الأهليّة، ورادعًا للغزاة. لذلك نصح القدّيس بولس المسيحيّين بأن يخضعوا للسلطة ويصلّوا لأجلها (رومة ١٣/

١-٥). فموقف اليهود من الوجود الرومانيّ في فلسطين لم يكن واحدًا. فقد كان هناك مَن يتزمّت ويتمسّك بالحرفيّة وينادي بالعصيان، وهناك مَن يقبل الخضوع لأنّه لا يقايض مبدأ السلام بأيّ مبدأ آخر مخالف.

الفصل الرابع

الحياة العائلية

□ ولادة طفل

حين يولد طفلٌ في أسرةٍ يهوديّة، تعمّ الفرحة جميع الناس، وترتفع الزغاريد، «لأنّه وِلِدَ لنا ولدٌ، وأعطيَ لنا ابنٌ» (أشعيا ٨/ ٥). فمنذ أن بارك الله إبراهيم، وجعل النسل علامة البركة، أصبحت الولادة إشارةً إلى رضى الربّ عن الوالدين. وما أكثر أبيات المزامير التي تؤكّد ذلك الإيمان. أمّا العقم، فهو علامة حلول غضب الله على الأهل. فمن دعاء أليصابات، أمّ يوحنّا المعمدان، يظهر كيف أنّ العاقر عار في وسط أهلها (لوقا ١/ ٢٥). واعتقد القدماء أنّ حياة المرء في نسله. ويقول معلّمو الشريعة إنّ الرجل الذي لم يُرزق أبناء هو كالميت. وفي العهد القديم، قبلت النساء العواقر أن يبني أزواجهنّ لهنّ نسلًا من إمائهنّ، مثل سارة زوجة إبراهيم وراحيل امرأة يعقوب (تكوين ١٦/ ١-٢؛ ٣٠/ ١-٦). ومَن يمتنع عن الإنجاب عمدًا، يرتكب إثمًا عظيمًا، ويحلّ غضب الربّ عليه كما حلّ على أونان (تكوين ٣٨/ ٩-١٠).

كانت نساء اليهود يفخرن إذا تمّت الولادة بسهولة، ودون مساعدة قابلة. فالولادة العسيرة علامة على عقاب الله. ألم يقل لحوّاء حين طردها من الجنّة: «لأكثّرنّ مشقّات حملكِ تكثيرًا»؟ (تكوين ٣/ ١٦). لذلك يوحي الإنجيليّان متّى ولوقا إلى أنّ العذراء ولدت دون حضور الناس، أي ولادة سهلة لم يساعدها فيها أحد. لأنّ المولود هو كلمة الله لا يحمل خطيئة الأجداد. وحين يولد الطفل، تخبر القابلة الأب بأمره، فيدخل إلى

مخدع الأمّ، ويضع الوليد على ركبتيه علامةً على الإقرار بشرعيّة المولود، وفخره بأن يكون له أبًا. لذلك، صار يوسف خطيب مريم العذراء أبًا ليسوع، وذكر متّى سلالته على أنّها سلالة المسيح (متّى ١)، وقالت مريم لابنها حين وجدته في الهيكل: «يا بُنيّ، لِمَ صنعتَ بنا ذلك؟ فأنا وأبوكَ نبحث عنكَ متلهّفَين» (لوقا ٢/ ٤٨).

وبعد أن يُقمّط الطفل، يأتي الناس ليروه. فإن كان المولود ذكرًا، كانت التهاني حارّة. وإن كانت أنثى، صارت باردة، تشبه العزاء في بعض الأحيان. لأنّ البنت تنتقل إلى عائلةٍ أخرى بعد زواجها، فلا تكثّر كنز أسرتها. إنّها، كما يقول التلمود: «كنزٌ مزيّف... وهمٌ، لأنّ على الأهل أن يراقبوها دومًا». ويبلغ فرح الولادة أوجه إن كان المولود الأوّل ذكرًا. حينئذٍ يُدعى الطفل بكرًا. ولا تعني تلك الكلمة أنّ هناك مَن يليه. بل إنّه سيتسلّم رئاسة الأسرة، ويتحمّل مسؤوليّة ذلك المنصب ومزاياه، كأن يرث ضعف حصّة إخوته.

بعد الولادة، يتحتّم على الأمّ أن ترضع ابنها. ويلحّ معلّمو الشريعة على ذلك الأمر. وتدوم الرضاعة سنتين أو ثلاث سنوات، لكي يشتدّ عوده، ويتمكّن من مقاومة الأمراض التي قد يصاب بها من الطعام. وفي الآن نفسه، تؤخّر الأمّ بالرضاعة دورتها، فيرتاح جسمها قبل أن تحمل ثانيةً. تلك كانت أقدم وسيلةٍ في التاريخ لتنظيم النسل، وهي مستعملة إلى الآن في أرياف صعيد مصر. ويؤكّد علماء النفس أنّ الرضاعة الطويلة تجعل الولد حنونًا عاطفيًا وشديد التعلّق بأمّه. على أساس ذلك، يمكننا تقدير علاقة يسوع بأمّه. فقد عاش معها حوالى ٣٠ سنة، ولم تتركه في أثناء حياته العلنيّة. ولا يمكننا فهم كلامه لها أو فيها إلاّ انطلاقًا من ذلك الارتباط (متّى ١٢/ ٤٦-٤٨ ويوحنّا ٢/ ٤). وعلى الصليب، في ذروة آلامه، شعر بألم الفراق الذي ستشعر به أمّه. فاختار يوحنّا الإنجيليّ، التلميذ الذي يحبّه، ليكون بالقرب منها في الحياة الأرضيّة (يوحنّا ١٩/ ٢٦). وعند فطام الطفل، تُقام وليمة عامرة، أسوةً بالوليمة التي أقامها

إبراهيم عند فطام ابنه إسحق (تكوين ٢١/ ٨).

□ الختان والطهور

تفرض الشريعة أن يُختن كلّ صبيّ (أحبار ١٢/ ٣). ويتمّ الختان في اليوم الثامن. إنّه علامة عهد الله مع إبراهيم وشعبه (تكوين ١٧/ ١٠). لذا، يمكن إجراء الختان حتّى إن وقع اليوم الثامن في السبت. ويقوم بالختان رجلٌ متمرّس، لأنّ الأمر في غاية الدقّة والحرج. فبحسب التلمود، عليه أن ينزع القلفة بسكّينٍ من السيلكس، ويمصّ الدم ويضمّد الجرح بمزيجٍ من الزيت والكمّون. فإن لم تُرفع القلفة بكاملها، لا يحقّ للمختون أن يأكل من بواكير الأرض. ولا يمكن الأمّ أن تقوم بالختان إلاّ في الحالات الاضطراريّة، كما فعلت صفّورة زوجة موسى (خروج ٤/ ٢٥) والنساء في زمن المكّابيّين، اللواتي فضّلن الموت على العدول عن ختان أبنائهنّ (١ مكّابيّين ١/ ٦٠-٦٣). وفي أيّام يسوع، تناولت شتائم كثيرة موضوع الختان. كان اليهود يسخرون من اليونانيّين الذين يعيشون معهم في فلسطين وينادونهم: «أصحاب القُلف»، واليونانيّون ينادون اليهود: «المقشّرين».

تنصّ الشريعة أيضًا على أنّ المرأة نجسة بعد الولادة بسبب سيلان الدم. وتظلّ في نجاستها أربعين يومًا إن كان المولود ذكرًا وثمانين يومًا إن كان أنثى. في أثناء تلك الفترة، على المرأة النفساء ألاّ تمسّ أيّ شيءٍ مقدّس أو تذهب إلى الهيكل أو المجمع، بل أن تمكث في بيتها. وحين تنقضي المدّة، تُحضر إلى الكاهن حمَلًا حوليًّا، أي عمره سنة، وحمامة أو يمامة. فإن لم يكن بوسعها شراء الحمل، تأتي بزوج حمام أو يمام. فيذبحهما الكاهن، ويصلّي على المرأة فتطهر من سيلان دمها (أحبار ١٢/ ١-٨). ويذكر الإنجيليّ لوقا أنّ العذراء قامت بطقوس الطهارة تلك، إشارةً إلى أنّ ولادتها تمّت مثل سائر النساء، أي مع سيلان الدم، لأنّ المسيح تجسّد حقًّا، ولم يعبر أحشاء أمّه كما تعبر الشمس الزجاج، وفقًا

لما ترويه بعض القصص المنحولة عن ميلاد يسوع. وحافظ التقليد المسيحيّ على تلك العادة، أي الصلاة على المرأة النفساء قبل دخولها الأوّل إلى الكنيسة بعد الإنجاب. لكنّه ألغى ضرورة سفك الدم، وحذف التعابير التي تتكلّم على الطهارة والنجاسة. فتحوّلت الصلاة الكنسيّة من رتبة تطهير إلى شكر لله على نعمة الولادة، وبركة للطفل وأمّه.

في الزمن القديم، كانت الشعوب تذبح أبكارها لآلهتها. فمنع الربّ تلك العادة في شريعته، وأوصى أن يُكرّس الولد البكر للربّ، وأن يُذبح حيوانٌ فداءً عنه، ذكرى لليوم الذي حمى فيه الربّ أبكار العبرانيّين حين أنزل بمصر ضربته العاشرة. وفي أيّام يسوع، كان الفقراء يقدّمون زوج حمام أو فرخي يمام، ويدفعون مالًا للهيكل فداءً عن الصبيّ. وهو ما فعلته العائلة المقدّسة حين ولِدَ يسوع. فقد قدّمت زوجَي حمام، زوجًا عن الأمّ وزوجًا عن يسوع (لوقا ٢/ ٢٢-٢٤).

□ التسمية

يختار الأهل اسم ابنهم يوم الختان. وللاسم أهمّيّة قصوى في إيمان الشعب اليهوديّ. إنّه يشير إلى ما يرجوه الأهل، أو إلى ما يريده الله من الإنسان، أو إلى الظروف التي ولِدَ فيها الطفل، والتي قد تحدّد مصيره. ففي التوراة وكتب الأنبياء دلائل كثيرة على ذلك. فإبراهيم، أي أبا شعبٍ كثير، نال اسمه من الربّ بعد أن وعده بأن يجعله أبا عددٍ كبيرٍ من الأمم (تكوين ١٧/ ٥). وإسحق، أي إضحك، لأنّ الله جعل لأمّه ما يُضحك إذ ولدته في شيخوختها (تكوين ٢١/ ٦). ويعقوب لأنّه أتى عقب أخيه التوأم عيسو. وموسى، أي المنتشَل من الماء. وصموئيل، أي الله سمع. ويوحنّا، أي الله تحنّن، ويسوع، أي الله يخلّص. وهناك مَن يختار أسماء لأولاده أخِذَت من الحيوانات مثل ظبية ودبّورة، أو من النبات مثل وردة وسوسن، أو تيمّنًا بشخصيّة لها جلالها مثل داوُد وسمعان ويهوذا... ويتمّ اختيار الاسم بالاتّفاق بين الأب والأمّ (لوقا ١/ ٥٩-٨٦). وكان في

أيّام يسوع يهود يختارون لأبناءهم أسماءً يونانيّة مثل فيلبّس وبرتلماوس، أو يأخذون اسمًا يونانيًا إضافيًا مثل سمعان بطرس وشاول بولس، أو اسمًا عبريًا اصطبغ باليونانيّة مثل متّى وتدّاوس، أو اسمًا مكافئًا يونانيًا مثل تيودورُس وتيوفيلس. ولم تشع بين عامّة الشعب أسماء الشهرة. فالشخص يتميّز باسمه واسم أبيه مثل يوحنّا بن زكريّا ويوحنّا بن زبدى. وقد يتميّز باللقب مثل سمعان الغيّور أو يوحنّا المعمدان، أو بمدينة المنشأ كيسوع الناصريّ أو مريم المجدليّة.

□ التربية

بعد ختان الطفل، يُسلّم أمر تربيته إلى أمّه، فإن كان المولود بنتًا، تظلّ في رعاية أمّها حتّى زواجها. فتشارك في الأعمال البيتيّة من غسيلٍ وتنظيفٍ وطبخٍ وغزلٍ وجلبِ مياه. وفي العائلات القرويّة، تساعد الفتاة أهلها في أعمال الحقل وحراسة الغنم نهارًا. أمّا الصبيّ، فلا يبقى في كنف أمّه إلاّ وقتًا قصيرًا. حين يشتدّ عوده، يتعلّم حرفة أبيه ليساعده بأسرع وقتٍ ممكن. هذا ما نلمسه في مثل الابنين (متّى ٢١/ ٢٨) والابن الكبير في مثَل الابن الضال (لوقا ١٥/ ٢٩). لا شكّ أنّ يوسف النجّار علّم يسوع حرفته.

ويهتمّ الأب أيضًا بتربية ابنه. وما أكثر أقوال معلّمي الشريعة في ذلك الموضوع. «لا تميّز ابنًا عن ابن». «لا تهدّد ابنك، بل عاقبه أو اسكت». «لا تعِد ابنك بشيءٍ من دون أن تلبّيه، وإلاّ تعلّم الكذب منك». «إذا دخل الجنون قلب الولد فالسوط يطرده». وتعتمد التربية أيضًا على أن يعلّم الأب ابنه الإيمان وحفظ شريعة الربّ (تثنية ٦/ ٧). فيروي الأب لأولاده تاريخ شعبه ومعاني الشرائع، كما أوصى الله عمله في احتفال الفصح (خروج ١٣/ ٨).

قبل مئة سنة تقريبًا من ميلاد يسوع، في أيّام الملكة الإسكندرة صالومة، أسّس رابي سمعان في أورشليم أوّل مدرسة لتعليم الشريعة.

ومنذ ذلك الحين، انتشرت مدارس التلمود في جميع مدن فلسطين وبلداتها. كان الأولاد يذهبون إلى المجمع ليتعلّموا التوراة والمزامير عن ظهر قلب، مثل التعليم في «الكتّاب» بأوائل القرن العشرين. إنّها الصورة التي ينقلها إلينا يسوع للأولاد في الساحة (لوقا ٧/ ٣١-٣٢). لم يكن يحقّ للبنات أن يذهبن إلى تلك المدارس. وتقع مسؤوليّة تربيتهنّ الدينيّة على عاتق والديهنّ. فإذا تأمّلنا نشيد مريم: «تعظّم الربَّ نفسي...» (لوقا ١/ ٤٦-٥٥)، نلاحظ أنّه مطرّز بآياتٍ كثيرة من الكتاب المقدّس، دلالة على أنّها كانت تعرف النصوص المقدّسة معرفةً حسنة، ولا يعود الفضل في ذلك إلى المدارس الدينيّة، بل إلى والديها.

تستمرّ فترة التعلّم حتّى سنّ الثالثة عشرة. وإذا أراد الطالب متابعة دروسه، يذهب إلى أورشليم للتخصّص، كما فعل شاول الطرسوسيّ، أي بولس الرسول. فقد كان تلميذ جملائيل. بهذه الطريقة يصبح الطالب أحد علماء الشريعة.

□ سنّ البلوغ

ورد في إحدى كتب التلمود ما يلي: «في سنّ الخامسة، على الولد أن يبدأ الدروس المقدّسة، وفي العاشرة، عليه أن يدرس التقليد. وفي الثالثة عشرة، عليه أن يعرف كلّ شريعة الربّ وأن يعمل بها. وفي الخامسة عشرة، تبدأ مرحلة تقوية المعارف». يبدأ سنّ البلوغ إذًا في الثالثة عشرة من العمر. منذئذٍ، عليه أن يتلو صلاته ثلاث مرّاتٍ يوميًا، وأن يصوم ويحجّ إلى أورشليم. وحين يدخل الهيكل، يحقّ له الذهاب إلى فناء الرجال. لقد صار شابًا بالغًا.

يتمّ الاحتفال بسنّ البلوغ في المجمع بطريقةٍ خاصّة. يقف الولد أمام المعلّمين فيسألونه في الشريعة ويجيبهم. ثمّ يقرأ بصوتٍ عالٍ مقطعًا من الكتاب المقدّس. حينئذٍ يضمّه رئيس المجمع إلى صدره، فتزغرد النساء فرحًا. ويصبح الولد حينذاك ابنًا للشريعة. ويذكر لوقا الإنجيليّ حدث

بلوغ يسوع عندما فقده أبواه فوجداه في الهيكل «جالسًا بين المعلّمين يستمع إليهم ويسألهم» (لوقا ٢/ ٤٦). فقد كان من عادة الفقهاء أن يجلسوا للتعليم في أروقة الهيكل ويتحلّق تلاميذهم حولهم. وكان بعض الفتيان ينضمّون إلى تلك الحلقات، ويُسمح لهم أحيانًا بطرح الأسئلة. وقد روى فلافيوس يوسيفس أنّه كان ينضمّ إلى تلك الحلقات حين كان غلامًا. ويروي لوقا أنّ يسوع اكتشف، وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره، أنّ رسالته هي أن يهتمّ بأمور الآب، أي أن يطبّق الشريعة، لا كما يعلّمها العلماء، بل كما أرادها أبوه السماويّ.

□ رباط اللحم والعظم

حين فرّ يعقوب خائفًا من أخيه عيسو، بعد أن سلب منه حقّ البكريّة، ذهب إلى خاله لابان. وعندما التقاه، صاح الخال: «أنتَ عظمي ولحمي حقًّا» (تكوين ٢٩/ ١٤). تصوّر لنا تلك العبارة الرمزيّة واقعًا حيًّا حتّى في أيّام يسوع. فالأسرة خليّة المجتمع الأساسيّة. والولادة فيها تحدّد انتماء المولود العرقيّ والدينيّ في آنٍ واحد. وللأب فيها سلطان. ففي أعمال الرسل، حين يهتدي ربّ الأسرة إلى الدين المسيحيّ، يهتدي معه جميع أهل بيته (أعمال ١٥/ ٣٤ و١٨/ ٨).

لا تشمل كلمة «عم» العبريّة التي تعني الأهل، الأبَ والأمّ وأولادهما فقط، بل الأقارب أيضًا. كما تشمل كلمة «أخا» الآراميّة، التي تعني الأخ، كلًّا من أولاد العمّ والخال وحتّى درجات القرابة البعيدة، وقد تشير أيضًا إلى أعضاء القبيلة نفسها (٢ ملوك ١٩/ ١٣). فإبراهيم يخاطب ابن أخيه ويقول له إنّهما أخوان (تكوين ١٣/ ٨)، وفي سفر أخبار الأيّام مات ألعازار من دون أن يُرزق أبناء، فتزوّجت بناته بإخوتهنّ أبناء قيش (١ أخبار ٢٣/ ٢١-٢٢). ويخبرنا يوحنّا أنّ أمّ يسوع وقفت عند الصليب ومعها أختها التي اسمها مريم أيضًا (يوحنّا ١٩/ ٢٥). لذا، حين يتكلّم الانجيليّون على إخوة يسوع، فإنّهم لا يقصدون بالضرورة الإشارة إلى أنّ

يسوع إخوة وأخوات من أمّه ويوسف.

□ الزواج وقوانينه

يعير التعليم اليهوديّ الزواج أهمّيّة كبيرة. فقد خلق الله الإنسان لينمو ويتكاثر ويملأ الأرض (تكوين ١/ ٢٨). ومع ذلك، ظهرت في أيّام يسوع فئات امتنعت عن الزواج مثل الأسّينيّين الذين عاشوا قرب البحر الميّت وفي وادي قمران، والناذرين الذين يتعفّفون إلى حين. ويمكننا أن نقول إنّ القرون الميلاديّة الأولى شهدت التقاء تيّارَين متناقضَيْن. العفّة وتعدّد الزوجات. وتنوّعت تعاليم معلّمي الشريعة في شأن عدد الزوجات. فهذا يسمح بعددٍ لامحدود، وذاك بأربعة فقط، وآخر يعطي المرأة حقّ الطلاق إن تزوّج بعلها امرأةً أخرى. ومع ذلك، اتّفق الجميع على أنّ الاقتران بامرأة واحدة هو الصورة المثاليّة للزواج. لذا، حُرِّمَ تعدّد الزوجات على رئيس الكهنة. والتزم الصدّوقيّون بمبدأ الزوجة الواحدة أسوةً باليونانيّين والرومانيّين. ولم تسُد عادة الزواج بامرأةٍ واحدة إلاّ في القرن الرابع الميلاديّ. أمّا سنّ الزواج، فكان بين الـ١٨ و٢٤ سنة للذكور، وعند البلوغ للإناث، أي بين الـ١٢ و١٣ سنة.

تتضمّن تشريعات الزواج مجموعةً من الالتزامات والمحظورات. فالشريعة تمنع الزواج بأجنبيّة (خروج ٣٤/ ١٥-١٦) مخافة أن يحيد الزوج عن عبادة ربّه. وكم مرّة ثار المصلحون على قومهم لأنّهم يقترنون بالوثنيّات (نحميا ١٣/ ٢٣ وما يليها). وتمنع الشريعة أيضًا زواج الأقارب بالدم. الابن بأمّه أو زوجة أبيه أو أخته أو أخته من أبيه أو عمّته أو خالته، والرجل بحفيدته أو زوجة ابنه، أو أختين معًا، أو زوجة الأخ إن كان الأخ على قيد الحياة. لهذا السبب عارض يوحنّا المعمدان زواج هيرودُس أنتيباس بهيروديّا زوجة أخيه فيلبّس (متّى ١٤/ ٣-٤).

لكنّنا نجد في الكتاب المقدّس قصصًا كثيرة عن أناسٍ خالفوا تلك المحظورات. فموسى النبيّ تزوّج صفورة المدينيّة، وكانت راعوت

موآبيّة، وتزوّج إبراهيم سارة أخته من أبيه، وتزوّج أبو موسى عمّته. ولا تقول الشريعة شيئًا عن زواج الأب ببناته، كما حدث مع لوط، وزواج العمّ أو الخال ببنات إخوته أو أخواته. ومن ناحيةٍ أخرى، تُجبر الشريعة الأخ على الزواج بامرأة أخيه إن مات الأخ ولم يكن له نسل. ومَن يرفض ذلك، يحقّ لزوجة الأخ أن تفضحه أمام الجميع بطريقةٍ مهينة ومثيرة للضحك في آنٍ واحد (تثنية ٢٥/٧-١٠). واعتمد الصدّوقيّون على ذلك التشريع في سؤالهم يسوع عن قيامة الأموات. فقد طرحوا عليه حالة امرأةٍ تزوّجت سبعة إخوة على التوالي ولم تضع لهم نسلًا (متّى ٢٢/٢٣-٣٣).

□ الخطبة والزفاف

حين يختار الأهل أو الشابّ فتاةً، تُطلب يد العروس من وليّ أمرها، وتتمّ الخطبة في حال الموافقة. وهي تدوم سنةً للخطيبة العذراء، وشهرًا للأرملة. كان مفهوم الخطبة عند العبرانيّين قريبًا جدًّا من مفهوم الزواج. وللخطبة جميع امتيازات الزواج ما عدا المساكنة. إنّها تكافئ كَتْبَ الكتاب عند المسلمين. والزواج هو ليلة الدخلة، أي حين تنتقل العروس من بيت أهلها إلى دار زوجها لتقيم فيها. حين شكّ يوسف خطيب مريم العذراء في شأنها، ظهر له الملاك في الحلم وقال له: «لا تَخف أن تأتي بامرأتكَ إلى بيتِكَ» (متّى ١/ ٢٠).

ما الذي يحدث للخطيبة إن اتُّهِمَت بالزنى؟ إنّها تخضع لامتحان الماء المرّ كما تخضع له المرأة المتزوّجة. يؤتى بالفتاة إلى الكاهن، فيهدل شعرها ويأخذ ماءً مقدّسًا في وعاء خزف، ويأخذ من الغبار الذي في أرض الهيكل ويلقيه في الماء. ويحلّف الفتاة ويكتب اللعنات التي ستصيبها إن كانت خاطئة وأنكرت خطيئتها. ويمحو الورقة التي كتب عليها اللعنات بالماء المرّ ويُشربها إيّاه. فإن سقط الجنين بعد ذلك ثبُتت عليها التهمة فتُرجَم (عدد ٥/١١-٣١). ويذكر إنجيل غير قانونيّ نُسِبَ إلى يعقوب الرسل أنّ العذراء خضعت لذلك الامتحان. ومن جهةٍ أخرى، إذا

أراد خطيبٌ فسخ خطبته، عليه أن يكتب لخطيبته كتاب طلاق. وإن مات قبل الزواج، عُدّت خطيبته أرملة. وإن حملت منه قبل الزواج، يكون المولود شرعيًّا.

جرت العادة أن يدفع الخطيب مهرًا لأبي خطيبته (تكوين ٣٤/ ١٢ و١ صموئيل ١٨/ ٢٥ وخروج ٢٢/ ١٥-١٦). كما يُدفع المهر إذا أغوى رجلٌ فتاةً وأجبِرَ على الزواج بها. ومهر العذراء أغلى من مهر الأرملة. وبالإضافة إلى المهر، على الخطيب أن يقدّم هدايا لخطيبته. أمّا عقد الزواج، فيوقّع في منتصف الشهر القمريّ. يوم الأربعاء إن كانت العروس عذراء، ويوم الثلاثاء إن كانت أرملة. وحين يتمّ كلّ شيء، يُقام احتفالٌ كبير. إنّه يوم الزفاف.

تُقام الأعراس عادةً في فصل الخريف. فبعد الحصاد وجني الثمار، تمتلئ الجيوب وترتاح العقول. ويُدعى إلى العرس الأهل والأقارب والأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء. لهذا، اصطحب يسوع تلاميذه إلى عرسٍ في قانا الجليل دُعي إليه هو وأمّه. ويبدو أنّ أصحاب ذلك العرس كانوا من الميسورين بدليل عدد الأجران المعدّة لمراسيم الوضوء ووجود وكيل مائدة. وفي العشيّة التي تسبق يوم الزفاف، يذهب العريس مرتديًا حلّة العرس إلى بيت عروسه، يرافقه موكبٌ يقوده صديق العريس الذي يهتمّ بجميع الأمور المادّيّة. وتُحمَل العروس على محفّة وتسدل برقعًا شفّافًا على وجهها. وفي أثناء المسير، يردّد المرافقون أناشيد خاصّة بالعرس، كما ورثوها عن أجدادهم. وعندما يصل الموكب إلى البيت حيث سيقيم العروسان، يُرشّ الطيب ويتلو الأهل صلاة البركة[1]. ويبدأ الرقص والغناء، ويشارك العريس فيهما، في حين تظلّ العروس مع صديقاتها في

(١) في الكتاب المقدّس نماذج لصلوات البركة في العرس (تكوين ٢٤/ ٦٠ وطوبيّا ٩/ ١١ وراعوت ٤/ ١١).

الغرفة المعدّة لها. وفي اليوم التالي، يلهو الشبّان ويتبارون وترقص الفتيات، ثمّ يتناول الجميع الطعام، الرجال منعزلون عن النساء. وعند المساء، تقف عشر عذارى بالقرب من العروس، ويقدّم الناس هداياهم إليها. وعندما يصل العريس، يعود الناس إلى الرقص والأكل والشرب، النساء مع الرجال في هذه المرّة، حتّى وقتٍ متأخّرٍ من الليل. وتدوم الاحتفالات من ثلاثة أيّام إلى ثمانية.

لقد تميّز اليهود بالقناعة في الأكل والشرب في حياتهم العاديّة. بيد أنّهم كانوا يميلون إلى الترغّد حتّى الإسراف في مثل تلك المناسبات. فكانت الأطباق الدسمة تتوالى على الموائد طويلًا، بسمنها الفائض ولحوم طرائدها وسمكها المشويّ وبصلها، وكانوا يكثرون من الشرب. فالشرب والمأدبة، في العبريّة، لفظان مترادفان، وليس لهما أيّ مدلول مستقبح، حتّى إنّ يسوع لم يتردّد عن تحويل ماء ستّة أجران إلى خمر، والحضور سكارى على حسب قول وكيل المائدة (يوحنّا ٢/ ١-١٠).

□ المرأة اليهوديّة

على الرغم من غياب النصوص التي تحطّ من شأن المرأة في الكتاب المقدّس، دأب اليهود في أيّام يسوع على احتقارها وعدّوها من ممتلكاتهم الخاصّة، وفقًا للوصيّة الأخيرة من الوصايا العشر: «لا تشتهِ امرأة قريبكَ ولا خادمه ولا خادمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا ممّا لقريبك» (خروج ٢٠/ ١٧). فمن واجب المرأة أن تخلص لزوجها، ولا يحقّ لها أن تفرض عليه إخلاصًا مماثلًا. وحقّ الطلاق في يد الرجل. ولا تأكل المرأة مع الرجال، بل تظلّ واقفةً لخدمتهم. وعليها أن تسير بجانب الطريق في الشارع، وأن تتنحّى للرجال في الهيكل. وأن تغطّي شعرها حين تخرج من دارها. وقد حافظ التقليد البيزنطيّ على تلك العادة في أيقونات العذراء، فصوّرها مغطّاة الشعر دلالة على أنّ مريم كانت فاضلة ملتزمة شرائع

دينها[٢]. والكلام مع المرأة في الشارع عيبٌ كبير، حتّى وإن كان المتكلّم زوجها. لهذا السبب، دهش تلاميذ يسوع حين رأوه يكلّم السامريّة (يوحنّا ٤/٢٧). وفي البيت، تُغطّى النوافذ المطلّة على الشارع بالمشربيّات لكي تتمكّن المرأة من رؤية العالم الخارجيّ من دون أن يراها أحد.

المرأة في نظر التشريع اليهوديّ قاصرة، ويمكن زوجها أن يلغي جميع التعهّدات التي تقطعها على نفسها. ولا يؤخذ بشهادتها في المحكمة إلاّ في حالاتٍ استثنائيّة، ولا يمكنها أن ترث من زوجها ولا من أبيها. ومن جهةٍ أخرى، يترتّب على الزوج أن يؤمّن جميع احتياجات البيت. ومن العار أن يأخذ ما تجنيه زوجته من عملها في الحياكة أو في مهنةٍ أخرى. ولا يُلزم التلمود الأهل تعليم بناتهم وتثقيفهنّ في الدين، ولا يجبر النساء على حفظ الشريعة في الصلاة والصوم والإقامة تحت الخيام في عيد المظال... لأنّ المرأة تكون نجسة أحيانًا بسبب الطمث الشهريّ.

ومن المشيرات إلى تدنّي مكانة المرأة في المجتمع اليهوديّ، يمكننا الإشارة إلى عدم وجود امتحان للرجل الزاني يشبه امتحان الماء المرّة للمرأة، وإلى دورها السلبيّ في مسألة الطلاق. فالشريعة لا تعطيها حقّ طلبه. ويرخّص بعض معلّمي الشريعة المتساهلين للرجل في تقدير خطورة الأسباب الداعية إليه. تُدرج في علل الطلاق خروج المرأة من دون حجاب أو ظهور ثؤلل (حبّة) في وجهها وإن بغير شعر، أو أن تحترق الطبخة بسببها. وفي عهدٍ لاحق، سمح رابي عقيبة للرجل أن يطلّق امرأته إن لم تعد تروقه أو عثر على أصلح منها. وفي أيّام يسوع، لم يحرّم الطلاق إلاّ الأسّينيّون. فقد ورد في مخطوطاتهم: «يزني كلّ مَن يتزوّج امرأتين كلتاهما على قيد الحياة. «ذكرًا وأنثى خلقهما الربّ»: هذا هو مبدأ الخلق». وقد سأل فرّيسيّون يسوع عن ذلك وقالوا: «أيحلّ لأحد أن

---

(٢) حول موضوع التزام العذراء الشريعة، راجع كتابنا، **العذراء والطفل في الفنّ البيزنطيّ**، «موسوعة المعرفة المسيحيّة»، مريم العذراء، دار المشرق، ١٩٩٧، ص ٩-١٠.

يطلّق امرأته لأيّة علّة كانت؟» فجاء جوابه دفاعًا شبه صريح عن المرأة وحقوقها، حتّى إنّ تلاميذه قالوا: «إذا كانت حالة الرجل مع المرأة هكذا، فلا خير في الزواج» (متّى ١٩/٣-١٠).

الفصل الخامس

الفئات الإجتماعية

□ التمييز الطبقيّ

في العهد القديم، صنّف العبرانيّون أنفسهم بحسب قبائلهم. كلّ قبيلةٍ تنحدر من جدٍّ هو أحد أبناء يعقوب الاثني عشر، وتحمل اسمه. واعتاد الكتاب المقدّس تسمية تلك القبائل أسباط إسرائيل الاثني عشر. لكنّ ذلك التوزيع فقد معناه في أيّام يسوع، ولم يبقَ منه إلاّ مَن أوكلت إليهم مهامّ دينيّة كالكهنة واللاويّين. وعرف المجتمع اليهوديّ أنماطًا كثيرة ممّا نسمّيه التمييز الطبقيّ. ففي الشؤون الدينيّة، هناك تميز بين اليهود الأصليّين، أي المنحدرين من الأسباط الاثني عشر، والأجانب، أي الوثنيّين، والدخلاء، أي الذين انتقلوا من الإيمان الوثنيّ إلى اليهوديّ ولا ينحدرون من أسباط إسرائيل. وقد رأينا في الفصل الثالث المشاكل التي عاناها الهيرودسيّون في الحكم لأنّهم دخلاء ولا تحقّ لهم قيادة الأمّة اليهوديّة. بالإضافة إلى ذلك، عانى المجتمع اليهوديّ تمييزًا طبقيًّا على أساس المستوى الاقتصاديّ، أي تمييز بين الفقراء والأغنياء، مع أنّ الشريعة تلحّ على أنّ الجميع سواسية في نظر الله. لذا، شدّد يسوع على مبدأ المساواة وواجب الغنيّ تجاه الفقير. فالغنى في نظره هبة من الربّ، أو وكالة سلّمها الله للإنسان، وأمره بأن يحسن إدارتها ويشارك الآخرين فيها، لا أن يتمسّك بها وكأنّها ملكه وهو مصدرها. ذلك هو المغزى الجوهريّ الذي يُستخلَص من التطويبات وأمثال الغنيّ ولعازر والكرّامين القتلة والوزنات والحوار مع الشابّ الغنيّ... وذلك هو ما قصدته

العذراء في نشيدها: «حطّ الأقوياء عن العروش ورفع الوضعاء» (لوقا ١/ ٥٢). وعلى الصعيد الدينيّ والإيديولوجيّ، ظهرت داخل المجتمع اليهوديّ فئات تميّزت بسلوكها وأفكارها وذكرتها الأناجيل مرّاتٍ كثيرة، وهي الكهنة واللاويّون ومعلّمو الشريعة والكتبة والفرّيسيّون والصدّوقيّون والغيّورون والأسينيّون. فمَن هم هؤلاء؟ كيف نشأوا؟ وما هو دورهم في أيّام يسوع؟

□ الكهنة واللاويّون

سرى هذا القولُ المأثور: «إنّ عدد الكهنة واللاويّين في أورشليم يساوي عدد حجارة الهيكل». إنّ ذلك التعبير لا يخلو من المبالغة. لكنّ تعقيد الطقوس في الهيكل تطلّب عددًا كبيرًا من الناس وصل في بعض الأحيان إلى ٢٠٠٠٠ رجل. وفي أيّام موسى، نال سبط لاوي مهمّة الخدمات الدينيّة، وأوكِلت المهامّ الكهنوتيّة إلى هرون أخي موسى وأولاده. فنشأت منذ ذلك الوقت طبقة كهنةٍ لاويّين. وظهرت أهمّيّتها في عهد الملوك، عندما بُني الهيكل وأصبح الكهنة وسطاء وحيدين لتقديم الذبائح إلى الربّ. وازدادت تلك الأهمّيّة بعد العودة من السبي، حين أضحى الدين في إسرائيل رباط الأمّة الوحيد. وفي أيّام يسوع، تميّز الكهنة عن اللاويّين. الكهنة يُحيون الرتب الدينيّة واللاويّون يساعدونهم. ولم يكن جميع أبناء نسل هرون كهنة ذوي شأنٍ، أو جميع اللاويّين خدّامًا للهيكل، لأنّه تألّفت جماعةٌ من هاتين السلالتين، حفظت لنفسها حقّ القيام بالدور الدينيّ، للاستئثار بما يُقدّم للهيكل من أعشار وتبرّعات. وحين يُطلب من السنهدريم ممارسة حقّه في انتخاب كبار كهنة يقومون بمهامّ إداريّة أو يشغلون مناصب رفيعة في إدارة الهيكل، كان الاختيار يقع دومًا على أبناء الطبقات الغنيّة. لذلك، تحوّلت مجموعة كبار الكهنة إلى طبقة منغلقة على ذاتها، فخورة بنفسها وتحتقر الآخرين، ونشأت بينهم وبين سائر الكهنة عداوات وكراهية.

يرأس الكهنة شخصٌ له صفة قدسيّة خاصّة يدعى رئيس الكهنة. وقد رأينا كيف فقد ذلك المنصب أهمّيّته في أيّام يسوع، وكيف استخدمه الرومانيّون لصالح سياستهم. ومع ذلك، ظلّ الشعب يوقّر رئيس كهنته ويحيطه بإجلالٍ واحترامٍ قلّ مثيلهما. عند تكريس رئيسِ الكهنة، يُمسح رأسه بزيتٍ استُخلِصَ منَ أشجار زيتونٍ معيّنة لذلك الغرض. ويُمزج الزيت بأغلى أنواع العطور. وتُقدَّم ذبائح الشكر طوال أسبوعٍ كامل. ويخضع رئيس الكهنة لقوانين وشرائع في غاية الصرامة. فلا يحقّ له الزواج بأرملةٍ أو مطلّقة أو زانية تائبة، ولا أن يأكل لحم طريدةٍ أو أيّ حيوانٍ لم يُذبح طقسيًّا، أو أن يشرب خمرًا قبل الاحتفالات الطقسيّة، ولا أن يقترب من جثّة أو يقصّ شعرةً واحدة من لحيته.

يُشترط في الكاهن أن يكون سليم الجسم و«دون أيّ عيبٍ جسديّ» (أحبار ٢١/١٦ وما يليها). وقد رأينا كيف فقد المِسكين هِرقانس الثاني وظيفته حين قُطِعت أذناه. وعندما يتمّ اختيار شخصٍ للكهنوت، يعتكف في أثناء طقوسٍ دينيّة (خروج ٢٩ وأحبار ٨). يبدأ الطقس بأن يتوضّأ الشخص المختار، ويلبس رداءً صوفيًّا أبيض ويُمسح بالزيت، ثمّ يقرّب ثلاث تقادم، ثورًا وكبشَيْن، يضع يديه عليهما قبل أن يذبحهما. وبعد ذلك، يُمزج زيتٌ بدمٍ من الحيوان الثالث ويُقدَّم للكاهن المكرَّس، فيدهن أذن المكرَّس اليمنى وإبهامه اليمنى وقدمه اليمنى، ثمّ يدهن يديه وفخذه بمزيج شحم الكبش وخبز الفطير وزهر الطحين، وتؤخذ تلك الموادّ بعد ذلك وتُحرق في محرقة الهيكل.

يتمتّع الكاهن بجميع حقوق الطبقات الكهنوتيّة الأخرى. ويحقّ له أن يأكل من لحم الذبائح والخبز المقدَّم. وتتمتّع زوجاته وأولاده بالحقّ نفسه. ويُقال إنّ هيروديًّا، زوجة هيرودس أنتيباس غير الشرعيّة، لم تتردّد في الاستفادة من تلك الحقوق لكونها من سلالةٍ كهنوتيّة. وتحدّد الشريعة عقوباتٍ خاصّة شديدة الصرامة إن اقترف الكاهن إثمًا أو قام بفعلٍ نجس. وتُجلد بناته ونساؤه إن سلكن سلوكًا سيّئًا. ولعلّ ذلك هو سبب عدم

إسعاف الكاهن واللاوي للجريح على طريق أريحا في مثل السامريّ الرحيم، لأنّ مسّ الجرح نجاسة، وقد يعاقَبان عليه (لوقا ١٠/ ٣١-٣٢).

يرتدي الكهنة في الأيّام العاديّة ثيابًا بسيطة، وهي ثوبٌ أبيض محصورٌ عند الخصر بحزام عريض يلفّه حول جسمه ثلاث لفّات، وقبّعة مخروطيّة الشكل. أمّا في الاحتفالات، فتزداد الثياب تعقيدًا. إنّها تتألّف من أربع قطع: من سروال طويل فضفاض وثوب مصنوع من قطعة قماش واحدة وحزام مطرّز بعرض أربع أصابع وعمامة. ويرتدي رئيس الكهنة ثيابًا مماثلة مصنوعة من أقمشة أنفس، ويضيف إلى عمامته شريطين أحدهما بنفسجيّ والآخر أبيض. ويضع فوق ثوبه درع الكهنوت، وهو قماش مستطيل الشكل في منتصفه فتحة لإدخال الرأس، ينسدل على الجسم من قدّام ومن وراء، لونه بنفسجيّ وأطرافه السفلى مطرّزة بأشكال الرمّان، وتتدلّى بينها جريسات ذهبيّة لإبعاد الشياطين وتنبيه الناس إلى اقتراب تلك الشخصيّة المهمّة. ويضع على الدرع الأفود المصنوعة من خيوط الذهب والقرمز، تُثبّت إلى الكتفين بكتّافيّتين ذهبيّتين يزيّنهما حجران من العقيق اليمانيّ، نُقِشت عليهما أسماء أسباط إسرائيل الاثني عشر. وتُعلّق على الأفود عند الصدر سلسلة ذهبيّة تتدلّى منها حقيبة قماشيّة عليها اثنا عشر حجرًا كريمًا، وفي داخلها الأوريم والتوميم (خروج ٢٨/ ٣ وما يليها). وفي الاحتفالات الكبيرة، يضع رئيس الكهنة على رأسه قلنسوة بدل العمامة، تعلوها عقدة ذهبيّة كُتب عليها: «المجد ليهوه». أمّا في يوم الغفران، فلا يرتدي إلاّ ثوبه الأبيض علامةً على الندامة وانسحاق القلب.

درجت العادة في أيّام يسوع أن يحتفظ الرومانيّون بثياب الكهنة، ولا يعطونها إلاّ لكبار الكهنة في أيّام الاحتفالات. ونال الإمبراطور قلوديوس حظوةً عند الشعب لأنّه ألغى تلك العادة. ولا تُغسل الثياب الصوفيّة الليترجيّة التي يرتديها الكهنة، بل تُحرق في مجمرة الهيكل. وكان الكهنة يسيرون حفاةً داخل الهيكل، ويقوم اللاويّون برشّ البلاط على الدوام بماء

الوضوء وماء تنظيف دم الذبائح.

منذ أيّام الملك داود، تمّ توزيع الكهنة على أربع وعشرين فرقة (١ أخبار الأيّام ٢٤/٧-١٩). كلّ واحدةٍ تخدم الهيكل مدّة أسبوع. ويأتي أفرادها من جميع مدن فلسطين وقراها عندما يحين دورها. فيمضون الليلة الأولى، وهي ليلة السبت عادةً، في بهو الهيكل. وفي اليوم التالي، يلقون القرعة ليحدّدوا مَن يذبح أو ينظّف أو يحضّر أو يضع البخور أو ينفخ في البوق. . . وتقوم الفرقة طوال الأسبوع بمراقبة الأسوار وإدارة المال وبتّ قضايا المخالفات البسيطة داخل الهيكل. والفرقة التي يأتي دورها أيّام الأعياد تكون سعيدة الحظّ بسبب كثرة التقادم. ويشير لوقا في بداية إنجيله إلى أنّ زكريّا، أبا يوحنّا المعمدان، كان من فرقة أبيّا، وهي الفرقة الثامنة، أكثر الفرق إجلالًا. وقعت عليه القرعة في دور فرقته ليحرق البخور أمام الربّ. فكان عليه أن يمثل مرّتين في اليوم أمام مذبح البخور في وحدة المحراب، وراء حجابٍ يخفيه عن أنظار المصلّين في الخارج. فيرفع البخور المقدّس إلى الله مع تلاوة الدعاء. وهناك ظهر له الملاك وبشّره بولادة يوحنّا (لوقا ١/٥-٩).

يساعد الكهنة في مهامّهم صفّ من اللاويّين. كانوا يسلخون جلد الذبائح ويقطّعون لحمها ويخبزون خبز التقادم ويراقبون المستودعات ويحرسون الأواني المقدّسة، كما يقومون بأعمال أمانة السرّ للسنهدريم وإدارة الهيكل. كانت مهامّهم تدرّ عليهم أرباحًا طائلة، لأنّهم معفيّون من الضرائب، ولهم نصيب من الأعشار والتقادم. ويقوم اللاويّ بخدمة الهيكل من سنّ ٢٥ سنة إلى ٥٠. ومرتبتهم هي أدنى من مرتبة الكهنة الذين يحرصون دومًا على ألاّ يتجاوز اللاويّون حدود صلاحيّاتهم. وكان المسؤول عن الهيكل يعاملهم معاملةً قاسية. فإن وجد أحدهم نائمًا في أثناء مناوبته ضربه ضربًا مبرحًا، حتّى إنّه إذا سُمِعَت صرخات من الهيكل وسأل سائلٌ ما الأمر، أجابه الناس: «لا شيء. إنّهم يؤدّبون لاويًّا».

□ الكتبة ومعلّمو الشريعة

عاشت في أيّام يسوع جماعة لا تنتمي إلى طبقة مَن يقومون بالطقوس الدينيّة، ولا تتميّز عن سائر الشعب في لبسها، ولا يحقّ لها أكل لحم الذبائح أو خبز التقدمة، ولا تدّعي الانتماء إلى سبطٍ معيّن. إنّها جماعة الكتبة. وهي تنقسم نظريًّا إلى فئتين: المستشارون القانونيّون، أي معلّمو الشريعة، والنسّاخ، أي الكتبة. ويمكن الشخص الواحد أن يقوم بكلتا المهمّتين. لذا، كثيرًا ما اقترن اسم الكتبة باسم معلّمي الشريعة.

بفضل الكتبة، أخذ العهد القديم قالبه الذي نعرفه. فقد جمعوا بعد السبي كلّ الكتب المقدّسة ونسّقوها في مجلّدٍ واحد، خصوصًا في أيّام الكاتب عزرا. ولأنّهم يقضون غالبيّة وقتهم في نسخ النصوص الملهمة ودرسها، تفوّقوا في العلوم الدينيّة على جماعات الكهنة الذين لا يجيدون إلاّ طرائق تقديم الذبائح وحرق البخور. كان الكتبة ومعلّمو الشريعة في أيّام يسوع يسيطرون على كلّ المجامع اليهوديّة في المدن والقرى داخل فلسطين وخارجها، ويشرفون على المدارس العليا التي يتخصّص فيها الطلاّب بالشريعة. وإذا كانت الأناجيل تقرن اسما الكتبة والفرّيسيّين، فهذا يعني أنّ الأمور التشريعيّة لم تكن في يد الفرّيسيّين وحدهم. فالتلمود، المرجع الأساسيّ لكثيرٍ من التشريعات، ليس إلاّ مجموعة تعاليم كبار الكتبة ومعلّمي الشريعة.

ألّف الكتبة ومعلّمو الشريعة في ما بينهم طبقة مستقلّة ينتمي أعضاؤها إلى جميع شرائح المجتمع من صنّاع وزرّاع وأصحاب أملاك. وأقرّ يسوع بعلمهم (متّى ١٣/ ٥٢) وجادلهم، لكنّه عاب عليهم جمودهم. فمن كثرة بحثهم في الكتب المقدّسة، تمسّكوا بالحرف وأهملوا الروح. ومع أنّ الأناجيل تشير إلى وجود بعضهم في الجليل، إلاّ أنّ غالبيّتهم أقامت في أورشليم، مؤلّفةً جماعة متّحدة ومتعاونة، على الرغم من اختلاف الآراء فيها والجدالات العلنيّة بين أعضائها. وإذا سُئل واحدهم عن أهمّيّة دورهم

في إسرائيل، يجيب بما ورد في سفر نحميا كيف شرح أسلافهم التوراة للشعب أيّام الكاتب عزرا (نحميا ٨).

ترك الكتبة للكهنة كلّ ما يقدّمه الهيكل من مقامٍ ومردود ماديّ، ولكبار الكهنة الشؤون السياسيّة التي يحبّون الاهتمام بها، واكتفوا بممارسة دورهم في الخفية، ممّا جعل فعّاليّتهم أقوى. فهم الذين دافعوا عن الشريعة أيّام المكّابيّين وحفظوها من كلّ تأثيرٍ وثنيّ، ونمّوا الفكر الدينيّ، وأداروا مدارس التعليم، خصوصًا المدارس التخصّصيّة في أورشليم، وأشرفوا على القضاء وعيّنوا القضاة وحدّدوا قوانين الأحكام. كما نشروا المجامع في كلّ مكان وشرحوا الشريعة فيها. وكان لممثّليهم في السنهدريم دور أصحاب الكفاءة في أيّ جماعة. وبفضلهم، لم يعد ذلك السنهدريم حكومة أو محكمة عليا وحسب، بل أكاديميّة لمعالجة المسائل الدينيّة، سواء كانت عظيمة الشأن أم قليلته. باختصار، تدخّل الكتبة في جميع الأمور، ونالوا حظوةً في عيون الشعب، وعُدّوا حُماة الشريعة.

لا يصبح المرء معلّم الشريعة كما يصبح الإنسان في أيّامنا معلّمًا في الجامعة، أي أنّه لا يحتاج إلى اجتياز امتحاناتٍ كثيرة وأطروحة ونقاش... فبإمكان أيّ يهوديّ أن ينال ذلك اللقب، سواء كان فقيرًا أو غنيًّا، صاحب حسبٍ ونسب أو ابن عاملٍ أو فلاّح. مَن أراد أن يكرّس نفسه لدرس الشريعة، عليه أن يتبع الدروس في إحدى المدارس التي يديرها كبار المعلّمين. كانت الدروس تُلقى غالبًا في باحات الهيكل عند إحدى البوّابات. ويرافق التلاميذ معلّمهم عدّة سنوات، يسمعون دروسه ويجتهدون في حفظ كلّ كلمةٍ يقولها، ويرافقونه حيثما انتقل، ويتحزّبون له في جدالاته مع معلّمي المدارس الأخرى. وفي وقتٍ ما، يعلن المعلّم أنّ فلانًا من تلاميذه نال ما يكفيه من المعرفة. حينئذٍ، يترك التلميذ معلّمه، ويعود إلى بيته ومهنته، فيجني لقمة عيشه من عرق جبينه. ويضيف إلى نشاطه اليوميّ مهمّة تعليم الشريعة أو بتّ الحالات المستعصية.

التزم معلّمو الشريعة أن يطبّقوا في حياتهم ما يعلّمونه. كانوا يرتدون ثيابًا بسيطة، ويربطون دومًا إلى أذرعهم وجباههم العصائب المكتوبة التي يضعها اليهود في أثناء الصلاة. وعصائبهم أكبر من التي تستعملها العامّة. يتكلّمون برصانةٍ واتّزان، ويدرسون النصوص المقدّسة ويحلّلونها بشغفٍ لينهلوا أكبر قسطٍ من الحكمة الكامنة فيها. فقد كانوا يقولون: «إنّ كلام التوراة نور وحياة، ودرسه أعظم من بناء الهيكل، ومحبّته أفضل من إكرام الوالدين». وجُمِعَت تعاليمهم في كتبٍ أهمّها «المِشنا»، وهو كتاب دوِّنَ بالعبريّة التقليديّة، يحوي ٦٣ مقالًا تشمل جميع نشاطات الإنسان وأعماله. ويُلحق به كتاب «الجَمَرة»، وهو مجموعة شروحات لمقالات المِشنا، مدوّن بالآراميّة، وغايته أقلمة التعاليم القديمة مع كلّ زمانٍ ومكان. وهناك كتاب المِدراش، وهو مجموعة شروحاتٍ للكتاب المقدّس بأسلوب وعظيّ.

لم تنل تلك الكتب قالبها النهائيّ إلاّ في القرنين الثالث والرابع الميلاديّين. فالمِشنا صدر في النصف الثاني من القرن الثاني، والجَمَرة في القرن الرابع، وتكوّن المِدراش من منتصف القرن الرابع إلى نهاية القرن الثالث عشر. لكنّ مضمونها يعود إلى أيّام يسوع. ففي المِشنا نجد تعاليم رابي هِلال الذي مات في السنة ١٠ م. وأوّل مشروعٍ لكتاب الجَمَرة يعود إلى أيّام خراب أورشليم في السنة ٧٠ م. قام به معلّمو الشريعة الذين لجأوا إلى شواطئ بحيرة طبريّة.

يمكن مَن يقرأ الإنجيل من دون انتباه أن يخلط بين معلّمي الشريعة والفرّيسيّين الذين طالما انتقدهم يسوع، فينظر إليهم نظرة ازدراء. لكنّ ذلك يشوّه صورتهم. فمعلّم الشريعة ليس فرّيسيًّا بالضرورة. صحيح أنّ غالبيّتهم عادوا يسوع في أثناء محاكمته، لأنّ موقفه الروحيّ يعاكس مواقفهم، إلاّ أنّنا لا نستطيع تجاهل أناس منهم مثل نيقوديمُس، الذي يبدو، من خلال ما كتبه القدّيس يوحنّا، رجلًا فاضلًا منفتحًا (يوحنّا ٣)، لم يخشَ إظهار علاقته بيسوع (يوحنّا ١٩/٣٩). وحتّى من بين المعلّمين

الفرّيسيّين، لا يمكننا نسيان جملائيل، ذلك الرجل الطيّب المعتدل في مواقفه، الذي دافع عن الرسل بأسلوب منفتح دون أن تربطه بهم علاقة ما (رسل ٥/ ٣٤-٣٩).

☐ الفرّيسيّون والصدّوقيّون

لكي نفهم فكر الفرّيسيّين والصدّوقيّين، علينا أن نعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، حين قاوم اليهود خطر الوثنيّة بقيادة المكّابيّين. كان الجميع يعارضون اليونانيّين السلوقيّين عندما فرضوا عباداتهم الوثنيّة على اليهود. وحين كُتب لهم النصر، شعر كبار الكهنة والملوك الحشمونيّون، من سلالة المكّابيّين، بأنّ العالم الرومانيّ اليونانيّ يضغط على شعبهم من كلّ جانب. لذا، رأوا أنّه من الفطنة التعامل معهم، والتمسّك في الآن نفسه بالأمور الجوهريّة التي تحافظ على رباط الأمّة. وأطلقوا على أنفسهم اسم «الصدّوقيّين»، الذي يعني «الصادقين» أو أبناء صادوق، كبير كهنة سليمان، لأنّ كبار الكهنة كانوا منهم. لكنّ صغار الناس، الذين آزروا المكّابيّين وكبار الكهنة في مقاومة اليونانيّين، رفضوا ذلك المبدأ. وظهرت بينهم فئة سمّت نفسها «الأتقياء»، فأعلنت أنّه من المحال أن يُدافَع عن الإيمان إن وافق الشعب على أيّ اتّصالٍ بالوثنيّين. «علينا أن نعيش يهودًا بين يهود، وأن نرفض كلّ ما هو غير يهوديّ لأنّه كفر ونجاسة». باختصار، على المؤمن الحقيقيّ أن «ينفصل» عن الوثنيّين وكلّ مَن يُشَكّ في أنّه يتعامل معهم. وسُمّي دعاة الانفصال: «الفروسيم» (الفارزين)، أي الذين ينادون بالفصل (الفرز) بين اليهود والوثنيّين. إنّهم الفرّيسيّون.

الفارق الأوّل بين الصدّوقيّين والفرّيسيّين إذًا هو الإجابة عن السؤال، كيف نحافظ على شعبنا بين الأمم؟ أبالفطنة والدبلوماسيّة والحذر، كما يقول الصدّوقيّون، أم بالتعصّب والانعزال والانغلاق، كما يقول الفرّيسيّون؟ ومن الخلاف الأوّل ظهر خلافٌ آخر. فقد نادى

الصدّوقيّون بالتمسّك بشريعة موسى وقوانينها الـ ٦١٣ فقط. «وكلّ مسألة لم تعالجها الشريعة، فلنتصرّف فيها بطريقةٍ تلائم عصرنا». فيجيبهم الفرّيسيّون: «لا. علينا أن نجعل الشرائع الدينيّة تتدخّل في جميع حركات الإنسان وسكناته». وجعل الكتبة يكمّلون الشريعة المكتوبة بشريعة أخرى شفهيّة، ودأبوا على تطويرها وتعديلها منذ العودة من السبي. لهذا السبب، لم يظهر بين الصدّوقيّين أناس يعلّمون الشريعة أو كتبة، وأصبحت المسائل التشريعيّة من اختصاص الفرّيسيّين. يمكننا إذًا أن نقول إنّ الصدّوقيّين «محافظون» في المسائل الدينيّة، و«ديمقراطيّون» في المسائل السياسيّة. أمّا الفرّيسيّون، فعلى نقيضهم تمامًا، لأنّهم تشدّدوا في موقفهم السياسيّ، وأكثروا من الفتوى في المسائل الدينيّة.

في أيّام يسوع، كان الصدّوقيّون ينتمون في غالبيّتهم إلى الطبقات الغنيّة، أي كبار الموظّفين والتجّار وملاّك الأراضي والكهنة. إنّهم يديرون شؤون العبادة والاقتصاد، ومنهم مَن تسلّم وظائف سياسيّة ودبلوماسيّة هامّة وتعامل مع الرومانيّين. ومع ذلك، لا يمكننا القول إنّهم متآمرون مع العدوّ. فهم يكرهون الوثنيّين، لكنّهم يسعون وراء أهون الشرّين، فيحاولون استغلال الظروف لصالح أمّتهم.

على الصعيد الدينيّ، لم يقرّ الصدّوقيّون إلاّ بالتوراة، ورفضوا كلّ ما لم يُذكر فيها صراحةً، وعدّوه إضافة غير قانونيّة. فلم يؤمنوا بقيامة الأموات (متّى ٢٢/ ٢٣-٣١) ولا بالملائكة والشياطين (أعمال ٢٣/ ٦-٨) ولا بتدخّل الله في حياة الإنسان، أي النعمة. وطالبوا بتطبيق شرائع السنة السبتيّة الحرفيّ، أي إعتاق العبيد والمسامحة بالديون، في حين قبل معلّمو الشريعة الفرّيسيّون استثناءات كثيرة لتلك الشرائع. ويقول المؤرّخ اليهوديّ فلافيوس يوسيفس إنّ الشعب عاب على الصدّوقيّين قساوتهم وتعاليهم على صغار الناس بسبب ثقافتهم الواسعة. لا شكّ في أنّهم عادوا يسوع مثل الفرّيسيّين، لأنّ تعاليمه تحرّر من الشريعة المكتوبة، وقد تؤدّي حركته إلى بلبلة علاقاتهم بالرومانيّين. على كلّ حال، كان نفوذ الصدّوقيّين

يتضاءل تدريجيًّا في أيّام يسوع حتّى زال مع اندلاع حرب اليهود.

حاول الحشمونيّون، الذين يميلون إلى الصدّوقيّين، أن يسحقوا الفرّيسيّين. وصلب الإسكندرينيّ ثمانمائة منهم دفعة واحدة. وبعد نهاية حكم أولئك، بدأ نفوذ الفرّيسيّين يزداد على حساب الصدّوقيّين، وبلغ عددهم في أيّام يسوع حوالى ستّة آلاف. كانت غالبيّة قادتهم من الكتبة ومعلّمي الشريعة، ولهم حظوة في عيون صغار الناس. ولم يكن جميع الفرّيسيّين كتبة ولا مثقّفين، بل ضمّت صفوفهم بعض الكهنة وكثيرًا من عامّة الشعب. ومع ذلك، عُرِفَ الفرّيسيّون بكبريائهم. فقد عدّوا أنفسهم خيرة الشعب وأصحاب الحقّ وحُماة الشريعة، واحتقروا كلّ مَن ليس على الصراط المستقيم، وعادوا الرومانيّين وأعوانهم من الحكّام اليهود، أي الهيرودسيّين. ولمّا اعتمد عداؤهم على الدين، لم يلجأوا إلى العنف إلاّ حين كان يتعرّض إيمانهم للخطر. وكانوا يرسلون الوفد تلو الوفد إلى رومة طالبين أن يحكمهم الرومانيّون مباشرةً بدل الخضوع لنير الحشمونيّين الصدّوقيّين أو الهيرودسيّين الدخلاء. ولم ينظّموا فصائل مسلّحة لمقاومة الرومانيّين، بل دأبوا على تجاهلهم والابتعاد عنهم.

من الناحية الدينيّة، تميّز الفرّيسيّون بالتديّن، وسعوا إلى أن تدير الشريعة جميع نشاطات حياتهم اليوميّة. لذا، قبلوا تعاليم الكتبة وكلّ تحديث يجرونه، كالإيمان بقيامة الأموات والدينونة والملائكة والشياطين وتدخّل الله في حياة الإنسان. وانقسم الفرّيسيّون إلى فريقين، واحد متشدّد وآخر متساهل. فحين وِلِدَ يسوع، كان رابي شمعي يرأس الفريق الأوّل، ورابي هلال يرأس الثاني. ويُروى أنّ الطرفين اختلفا في ثلاثمئة مسألة. فعلى سبيل المثال، جاء وثنيّ إلى رابي شمعي وقال له ساخرًا: «أصير يهوديًّا إن شرحت لي الشريعة في الزمن الذي أستطيع فيه أن أقف على رجلٍ واحدة». فضربه معلّم الشريعة بعصاه وطرده. وذهب الوثنيّ إلى رابي هلال وسأله الأمر نفسه، فقال له: «لا تعمل للناس ما لا تريد أن يعمله الناس لك. ففي هذه الوصيّة كلّ الشريعة». ويبدو أنّ تيّار رابي

هلال طغى على التيّار الآخر في عصر يسوع وبعده.

عانى الفرّيسيّون في أيّام يسوع أزمات جمّة. فقد تسلّلت إلى صفوفهم جماعات لها غايات بعيدة عن الإيمان. ومن تلك الجماعات، يمكننا ذكر الغيّورين بقيادة جماعة الإسخريوطيّين من حَمَلة الخناجر، الذين يباغتون الجنود الرومانيّين ويطعنوهم. وهناك أيضًا مَن اصطبغوا بالفرّيسيّة، تصفهم إحدى فقرات التلمود وصفًا طريفًا. «هناك سبعة أنماط من الفرّيسيّين. فرّيسيّ أين مصلحتي؟ وفرّيسيّ المظاهر، والفرّيسيّ الدامي الرأس، لأنّه يخفض رأسه وهو يسير لكي لا ينظر إلى النساء فيرتطم بالجدران، وفرّيسيّ المِدَقّ، لأنّه يسير محنيّ الظهر، فيشبه منظره مِدقّ الهاون، وفرّيسيّ ما هو واجبي لأعمله، وفرّيسيّ أقوم بعمل خيرٍ يوميًّا. وفي الآخر، الفرّيسيّ الصحيح، الذي يخاف الله ويحبّه».

يحتلّ الفرّيسيّون مكانًا كبيرًا في الأناجيل. فقد كان المسيح على اتّصال دائم بهم، وما أكثر ما انتقدهم بلهجة قاسية: «الويل لكم أيّها الكتبة والفرّيسيّون المراؤون، فإنّكم تُقفلون ملكوت السموات في وجوه الناس، فلا أنتم تدخلون، ولا الذين يريدون الدخول تدعونهم يدخلون...» (متّى ٢٣). ما الذي عابه يسوع عليهم؟ أوّلًا، الكذب والرياء. إنّهم كالقبور المكلّسة، ويحمّلون الناس أحمالًا ثقيلة ولا يحملونها. لعلّه قصد في ذلك مَن صُبِغوا بالفرّيسيّة. ثانيًا، الكبرياء. وهي تظهر في استئثارهم بالأماكن الأولى وادّعائهم أنّهم مرشدو الشعب. ثالثًا، تمسّكهم بصغائر الأمور، كتعشير النعنع والكمّون، وإهمالهم ما هو جوهريّ، أي محبّة الله والقريب. وأخيرًا، التشبّث بالحرف وإهمال الروح. ومع ذلك، رضي يسوع بأن يجادلهم (متّى ١٥/١-٦)، ويردّ على أسئلتهم حتّى التي تخفي فخاخًا (مرقس ١٢/١٣ ولوقا ١٠/٢٥ ويوحنّا ٨/٦). ويتناول الطعام معهم (لوقا ٧/٣٦ و١١/٣٧). أمّا هم، فلم يتردّدوا في تنبيهه حين أضمر هيرودُس أنتيباس الشرّ له (لوقا ١٣/٣١). ربّما فعلوا ذلك بدافع كرههم للهيرودسيّين. على كلّ حال، مال كثير من

الفرّيسيّين إلى المسيحيّة بعد القيامة. ولعلّ بولس الرسول أشهرهم، وهو فرّيسيّ ابن فرّيسيّ (أعمال ٢٣/٦ و٢٦/٥ وفيلبّي ٣/٥). فجميع الفرّيسيّين ليسوا أشرارًا، وكثير منهم عاشوا حياة تقوى وورع، حتّى وإن لم يفهموا رسالة المسيح التي سعت إلى تحريرهم من الحرفيّة. لأنّ الحرف يقتل، أمّا الروح فيُحيي.

□ الغيّورون

إنبثقت من فئة الفرّيسيّين جماعة عُرِفَت باسم الغيّورين. وهي تضمّ رجالًا دمويّين لا يقبلون إلاّ الله سيّدًا عليهم. ويفضّلون تحمّل أشدّ أنواع العذابات على الخضوع لإنسانٍ مهما علا شأنه. كانوا يؤمنون بأنّ الله لا يتدخّل في مسألة تحرّرهم من الرومانيّين إلاّ إذا ساهموا في ذلك. ولم يكفّوا عن السعي لبلوغ تلك الغاية مهما بلغ تعبهم وإرهاقهم.

تألّفت جماعات الغيّورين قبل ميلاد المسيح. وبرز بين صفوفها قادة مشاهير أمثال يهوذا الجماليّ الذي عُرِفَ باسم يهوذا الجليليّ، وصادوق الفرّيسيّ، اللذين قادا ثوراتٍ مسلّحة على الرومانيّين في أثناء الإحصاء. وعجز الغيّورون عن إثارة الشعب كلّه، فلجأوا إلى العمليّات الإرهابيّة. كانوا يتسلّحون بالخناجر، ويطعنون الرومانيّين وكلّ مَن يعدّونه خائنًا للأمّة. وسعوا إلى قتل القدّيس بولس، لكنّه نجا منهم (أعمال ٢٣/ ١٢...).

كان الغيّورون يجنّدون أنصارهم من بين الفارّين من وجه العدالة والفقراء والمعدمين. ففي البلد عشرة آلاف عاطلٍ عن العمل بعد انتهاء بناء الهيكل، وآلاف الفلاّحين المديونين. وقد وصف يسوع حالة البلاد الاقتصاديّة في أمثاله عن الديون. وكان من تلاميذه واحدٌ اسمه سمعان الغيّور (لوقا ٦/ ١٥). ويُعتقد أنّ يهوذا الإسخريوطيّ كان منهم، لأنّه يمكن أن تعني كلمة إسخريوط «سيخير»، وهي تُطلق على الرعاع وجماعة المقاومة. كان السيخيريّون يطعنون ضحاياهم بالخناجر الصغيرة في

الأسواق والأماكن العامّة، ويصرخون بعد ذلك مندّدين بالقتلة بين الحشد المضطرب. وتطلق الأناجيل على بطرس اسم سمعان «بر يونا» (متّى ١٦/ ١٧)، الذي يمكن ترجمته ابن يونا، كما يمكن الاعتقاد بأنّه من الغيّورين أيضًا، لأنّ الناس لقّبوا الغيّورين بالبريونيّين، أي المشرّدين في المناطق الصحراويّة[1].

لجأ الرومانيّون إلى أشدّ أنواع العنف لقمع حركة الغيّورين. فصلب طيباريوس إسكندر عشرين ألف واحدٍ منهم في اليهوديّة، وذبح فيلكس ثلاثين ألفًا ثاروا في جبل الزيتون. وعلى الرغم من عنف القمع، اتّسعت حركة الغيّورين حتّى شملت جميع يهود فلسطين في السنة ٦٦م. فأرسلت رومة جيوشها بقيادة طيطس، وحاصرت المدينة المقدّسة مئة يوم، ثمّ دخلتها ودمّرتها.

□ النذور والبرّيّة

لم تنحصر التقوى اليهوديّة في الانتماء إلى الفرّيسيّين أو الطبقة الكهنوتيّة. فكثيرٌ من الرجال والنساء كانوا ينذرون نذورًا لينالوا عطيّةً من الربّ أو ليشكروه على نعمةٍ منّ بها عليهم، تمامًا كما يفعل المؤمنون في أيّامنا. ويتعهّد الناذر بتقديم قربان للهيكل، ذبيحة أو بيتًا أو أيّ شيءٍ يملكه. فيمتنع عن استعماله لصالحه، أو عن إعطائه حتّى لأهله إن كانوا بحاجةٍ إليه. وفي حالاتٍ خاصّة، يمكنه استعادة قربانه بدفع فدية معيّنة يحدّدها القانون. ونظّم معلّمو الشريعة مسألة النذور، ووضعوا شروطًا لقبولها. فعلى سبيل المثال، لا يحقّ للقاصرين أو المرأة المتزوّجة أن ينذروا لله من دون إذنٍ من ربّ الأسرة. وقد انتقد يسوع تعليمات النذور لتناقضها مع شريعة موسى. لأنّ المشرّعين سمحوا للناذر بأن يحرم والدَيه من المساعدة بحجّة النذر (مرقس ٧/ ١١).

---

(١) راجع خيرت تَيسن، ظلّ يسوع الجليليّ، الفصل ١٥.

ولا ينحصر النذر في تقريب شيءٍ إلى الربّ، بل يتعدّاه إلى تكريس الذات أيضًا. لذلك يُطلَق اسم «النذور»، حتّى في أيّامنا، على الوعود التي يعد بها الشخص حين يرغب في أن يعيش حياةً رهبانيّة. وفي الفصل السادس من سفر العدد شرح مفصّل لما يُلزَم به مَن نذر نفسه لله العليّ، سواء كان رجلًا أو امرأة. وتُسمّى تلك الفئة «النذيرون» (عاموس ٢/ ١١). وفي الهيكل، خُصّصت لهم حجرات صغيرة في باحة النساء. ويكرّس لهم كتاب المِشنا مقالًا كاملًا. على النذير أن يلتزم حياة التقوى مدّة شهرٍ على الأقلّ، يتعهّد في أثنائه بثلاثة نذور: أن يمتنع عن العنب بجميع أشكاله، أي من الطازج إلى الزبيب، وكلّ منتجاته، أي من العصير إلى الخمر والخلّ، وأن يحلق شعره قبل بدء النذر إن أراد، لأنّه يُمنع عن قصّ شعرة من جسمه في أثنائه، وألاّ يقترب من جثّة، حتّى وإن كانت لأبيه. وتسمح المدرسة الهلاليّة بأن يدفن النذير جثّةً في حال الضرورة، كأن لا يترك إنسانًا معلّقًا على خشبة حتّى الليل.

ما الذي يدفع الناس إلى النذر؟ ربّما الرغبة في نيل أمرٍ ما من الربّ. وربّما لتطهير الجسد والنفس. ففي التلمود قصّة طريفة لراعٍ شابٍّ وسيمٍ داهمته التجربة حين رأى صورته على صفحة المياه. فهرعَ إلى الهيكلَ وحلق شعر رأسه ونذر، لكي لا يفخر بجسد مصيره طعامٌ للدود والحشرات. وفي بداية حرب اليهود، اعتكفت الملكة برنيقة في الهيكل، فحلقت شعر رأسها، ونذرت، وامتنعت عن الخمر، وأمضت وقتها في الصوم والصلاة. ويقول تقليد قديم، تدعمه نصوصٌ غير قانونيّة، إنّ العذراء مريم نذرت نفسها للربّ وأقامت في الهيكل. وكثير من الصور تظهرها جالسةً هناك تغزل أو تنسج أقمشةً ليترجيّة.

بالإضافة إلى الناذرين، جرت العادة أن يختلي بعض الرجال أو النساء في الصحراء. ففي أيّام يسوع، كان للصحراء معنًى روحيّ في ذاكرة الشعب. إنّها المكان الذي عاش فيه الأجداد أربعين سنةً، فاختبروا رعاية الله لشعبه، وتغيّرت أفكار قلوبهم، وصاروا أشدّاء في القتال، وتخلّصوا

من عقليّة العبوديّة التي ترسّخت فيهم طوال أيّام إقامتهم في مصر. وفي الصحراء أيضًا، نزلت الشريعة وانتظمت حياة الشعب. إنّها أفضل الأماكن التي يتخلّى فيها الإنسان عن جميع مغريات العالم، ويكتفي باليسير للعيش في سبيل التقرّب من إلهه. وتدوم العزلة في الصحراء أربعين يومًا. وهي مدّة إقامة موسى في جبل سيناء ومسيرة إيليّا حتّى جبل حوريب (١ ملوك ١٩/٨). إنّها أيضًا المدّة التي قضاها يسوع قبل بدء حياته التبشيريّة. في أثناء تلك الفترة، يواظب العتوحّد على الصلاة والصوم في نظر الربّ.

□ رهبان البحر الميّت

يتحدّث كتّاب اليهود في أيّام يسوع، مع شيء من التحفّظ، عن جماعات دينيّة أقامت في الصحراء قرب البحر الميّت. ويصفها فلافيوس يوسيفس بأنّها «المدرسة الفلسفيّة اليهوديّة الثالثة» بعد الصدّوقيّين والفرّيسيّين. كان أعضاؤها يمضون وقتهم في الصلاة والعمل اليدويّ، «بعيدًا عن النساء والحبّ والمال». ويخضعون لنظام حياةٍ قاسٍ، ولا يهتمّون إلاّ بأمور الله. ويضمّون أعضاء جددًا إلى جماعتهم من معتكفي الصحراء، وفقًا لقانون انتخابٍ صارم. مَن هي تلك الجماعات، ومتى أُنشئت، وما دورها في المجتمع أيّام يسوع؟

في حوالى السنة ١٥٠ ق.م، عندما فقدت المقاومة التي شنّها الشعب على السلوقيّين طابعها الحربيّ، بدأ الملوك وكبار الكهنة الحشمونيّين، حفدة المكّابيّين، يميلون إلى التساهل. فلم يكتفِ عدد من «الحسّيديّين»، أي الأتقياء، بما أظهره الفرّيسيّون من معارضة سلميّة للحكم على الصعيد العقائديّ، وعقدوا العزم على قطع صلتهم بالنظام الحاكم والعودة إلى الصحراء، إلى جذور الشعب العبرانيّ المقدّسة. في البداية، تألّفت جماعاتهم من عدد من الكهنة، أبناء صادوق، حماة العهد. فأقاموا على شواطئ البحر الميّت، وأعلنوا انتماءهم إلى شخصٍ

غامض لقّبوه «معلّم البرّ»، وهو رئيس الجماعة، وسمّوا أنفسهم: «أصفياء الله». ويُعرفون اليوم، في الأبحاث التاريخيّة الكتابيّة، باسم الرهبان الأسّينيّين، أو الحسّانيّين، أوالحسّيديّين.

كرّس الأسّينيّون حياتهم للدرس الشريعة وحفظها والدفاع عنها. فأصبح وجودهم وأسلوب حياتهم إدانة لكهنة الهيكل ووكلائه. لذلك، شبّ بينهم وبين السلطة اليهوديّة الرسميّة خلاف دام، وأعدِمَ واحد من معلّمي البِرّ، وهرب عدد من أعضاء الجماعة إلى دمشق، ولم يعودوا إلى قمران إلاّ حين استولى بومبيوس والي دمشق على فلسطين في السنة ٦٣ ق.م، ووعدهم بحمايتهم من أعدائهم. وظلّت الحياة النسكيّة قائمة في تلك المنطقة حتّى حرب اليهود. ففي ربيع السنة ٦٨، قاد طيطس فيلقه العاشر إلى إقليم البحر الميّت، ودمّر جزءًا من دياراتهم وأقام الجنود فيها، وذُبح الرهبان أو هربوا، بعد أن خبّأوا مخطوطاتهم الثمينة في المغاور.

يدخل المرء في جماعة الأسّينيّين بعد أن يُمضي فترة اختبار مدّتها ثلاث سنوات. في البداية، يعيش مع الجماعة سنة، ثمّ يذهب ويعود ليعيش سنتين. وفي حال قبوله، يتخلّى عن جميع أملاكه لصالح الجماعة، ويقسم على الخضوع للقوانين والرؤساء، ويعلن انفصاله عن أهل الظلمة، ورغبته بأن يعيش في الحقّ والعدل والمحبّة. حينئذٍ يواظب على الوضوء عدّة مرّاتٍ في اليوم، ويرتدي ثوبًا صوفيًّا أبيض، ويحفظ قواعد الطاهر والنجس بحذافيرها، ولا يأكل اللحم، ويتناول طعامه مع الجماعة في ساعاتٍ معيّنة من النهار، ويحتفل معهم بالأعياد والمناسبات.

ينتمي إلى الأسّينيّين أفراد من الكهنة واللاويّين والعلمانيّين. ويعيّن على كلّ جماعة رئيس. أمّا السلطة العليا فتتألّف من مجلس استشاريّ قوامه ١٢ عضوًا، يرأسه «معلّم البرّ». ولا تُقبل النساء في الجماعة. لكنّ التنقيبات الأثريّة اكتشفت جماجم نسائيّة، ممّا يشير إلى وجود جماعاتٍ أسّينيّة نسائيّة مستقلّة. ومن الأسّينيّين مَن يعيش وحده. فالمؤرّخ فلافيوس

يوسيفس يخبرنا عن متوحّد اسمه بنّوس «يعيش في الصحراء، يرتدي ثوبًا من ليف النخل، ويتغذّى من ثمار البرّيّة». وتبيّن الدراسات الحديثة أنّه عاش في أيّام يسوع نسّاك تركوا جماعاتهم الأسّينيّة وتوحّدوا بالقرب من معابر الأردنّ، ودعوا الناس إلى التوبة. فلم يعد الوضوء محض تطبيق الشريعة الموسويّة، ولا طقسًا خاصًّا بالرهبان الأسّينيّين، بل علامة على السعي إلى تغيير السلوك. ولم تكن المعموديّة تُمنح - على ما يبدو - إلاّ مرّة واحدة في العمر. لا شكّ أنّ يوحنّا المعمدان كان منهم، ولا عجب أن يبدأ يسوع حياته العلنيّة بنيل تلك الرتبة التي عبّر بها عن تغيير طريقة حياته من الخفية إلى العلنيّة.

آمن الأسّينيّون بأنّهم أبناء النور، ورسالتهم محاربة أبناء الظلمة. والنّفس في نظرهم خالدة لأنّها تسبق الجسد. وهي تعود إلى مصدرها بعد الموت. وفي آخر الأزمنة، سيدين الله العالم. أمّا الذبائح الدمويّة فمرفوضة. وكانوا يرسلون تقادم من الطحين للهيكل في الأعياد الكبرى، ولا يختلطون بالناس فيه، بل يعتكفون في المكان المخصّص للناذرين. ومن معتقداتهم أنّ الخطايا تُغفر بالمعموديّة المجّانيّة في الصحراء، لا بالتقادم المكلفة في الهيكل، ممّا أزعج سكّان أورشليم، لأنّ انتشار تعاليم كهذه يهدّد ما للمدينة المقدّسة من مصالح اقتصاديّة. ولم تذكر الأناجيل شيئًا عن الأسّينيّين، ولا أشارت إلى أنّ يوحنّا المعمدان ينتمي إليهم. ومع ذلك، لا يمكننا نفي تأثير أفكارهم في بعض تلاميذ يسوع الذين كانوا يتردّدون إلى يوحنّا المعمدان في الصحراء (يوحنّا ١/ ٣٥-٣٩). ويظهر ذلك التأثير بوضوح من خلال التصوّر الذي كان لديهم عن مسيح الربّ.

صغار القوم وكبارهم

□ الفقراء والأغنياء

انقسم المجتمع الفلسطينيّ في أيّام يسوع إلى طبقتين: الفقراء والأغنياء. أمّا الطبقة المتوسّطة فنادرة، خلافًا لسائر المدن الرومانيّة. تضمّ الطبقة الفقيرة كلًّا من الفلاّحين والحرفيّين وعمّال المياومة. ففي مثل الدرهم المفقود، كنست المرأة البيت كلّه تفتّش عن درهمها. وحين وجدته، فرحت أيّما فرح (لوقا ١٥/٨). والدرهم أجرة عامل في يوم واحد[1].

إلى جانب الفقر المدقع، تمتّع بعض الناس بغنًى فاحش. وينتمي إلى طبقة الأغنياء مُلاّك الأراضي الزراعيّة الذين يديرونها بوساطة الوكلاء، وكبار التجّار، ورؤساء جباة الضرائب، وكبار الكهنة وموظّفو الإدارة الرومانيّة. ويذكر يسوع في أمثاله الغنيّ الجاهل أو لعازر والغنيّ، كما عالج في تعاليمه مسألة الغنى والمال (متّى ٦/١٩-٢٤). ويتكلّم القدّيس يعقوب في رسالته على الذين يلبسون خاتمًا ذهبيًّا (يعقوب ٢/٢). وتشير الأناجيل إلى وجود أغنياء أتقياء أمثال يوسف الرامي، الذي قدّم قبرًا جديدًا ليُدفن فيه جثمان يسوع، ونيقوديمُس الذي اشترى طيوبًا للدفن بنحو مائة درهم.

(١) ورد في ترجمة العهد الجديد اليسوعيّة أنّ الدرهم يساوي دينارًا، وهو أجرة عامل زراعيّ في اليوم (جدول الموازين والمكاييل والنقود).

□ العلاقة بين الطبقتين

كانت العلاقة بين الفقراء والأغنياء سيّئة. ويعبّر عن ذلك قول أحد معلّمي الشريعة: «لقد خلق الله البشريّة من إنسانٍ واحد لكي لا تكون العائلات المنحدرة منه على خلاف. لكنّنا حين نرى المفارقات بين الناس، نتساءل ما الذي كان سيحدث لو خلق الله آدمَين؟». ويقول يشوع بن سيراخ: «كيف يُقرن بين قِدر الخزف والمرجل؟ إنّها إذا صُدِمَت تنكسر. الغنيّ يَظلم ويسخط والفقير يُظلم ويتضرّع» (١٣/ ٢-٣).

إذا درسنا أسباب عدم استقرار البلاد في ذلك الحين، لمسنا مقدار دور العامل الاقتصاديّ. فالثورة على الرومانيّين كانت في الآن نفسه ثورة الفقراء على الأغنياء. إنّه سرّ نجاح تيّاري الفرّيسيّين والغيّورين بين الشعب البسيط. فقد اعتمدا على الشريعة لرفض البؤس القائم والوعد بمستقبلٍ أفضل. واتّهما الأغنياء بالخيانة والكفر: الخيانة لتعاملهم مع الرومانيّين أو قبولهم لهم، والكفر لأنّ غالبيّة الأغنياء عاشت حياة ترفٍ ذات أسلوبٍ وثنيّ. ومع كلّ موجة جفاف أو هجوم للجراد، يكثر عدد الفقراء، وتزداد ثروة الأغنياء، وترتفع صيحات الاستغاثة وتتحوّل إلى صرخات ثورة وعصيان.

تلك هي الحياة الاجتماعيّة في فلسطين أيّام يسوع. عمّال لا يكسبون في اليوم إلاّ درهمًا يكاد يسدّ حاجتهم اليوميّة، وحرفيّون وفلاّحون وعمّالٌ مياومون وعبيد ومعتقون ومتسوّلون وأصحاب أسقام من برصٍ ومعاقين لا معين لهم ولا دواء. وفي وسط أولئك، أغنياء مترفون يبذّرون أموالهم ولا يكترثون لغيرهم، ولا يشعرون بواجبهم تجاه جيرانهم الفقراء. في تلك البيئة الاجتماعيّة، ارتفع صوت نبيّ الجليل معلنًا الخلاص واقتراب ملكوت السماوات.

□ الرقّ في إسرائيل

كانت العبوديّة شائعة بين جميع الشعوب في أيّام يسوع. ففي المدن

اليونانيّة، فاق عدد العبيد في بعض الأحيان عدد السكّان الأحرار، ممّا جعلهم يؤلّفون طبقة اجتماعيّة تهدّد أمن سادتهم. ومع ذلك، حين نقرأ الأناجيل أو كتابات المؤرّخ فلافيوس يوسيفس، نشعر بأنّ عدد العبيد قليل في إسرائيل. وورد في وثيقةٍ رسميّة، يعود تاريخها إلى السنة ٧١م، أنّ إحدى البلدات الفلسطينيّة تحوي ٣٨٥ رجلًا حرًّا ملزمًا بدفع الضرائب، وليس لدى هؤلاء إلاّ ٤٤ عبدًا، أي حوالى تسع السكّان.

يعود سبب قلّة العبيد في فلسطين إلى انخفاض أجر اليد العاملة، ممّا جعل استئجار عمّالٍ أحرار أوفر من شراء العبيد. بالإضافة إلى ذلك، لم يعامل العبرانيّون عبيدهم مثلما فعل الرومانيّون الذين عدّوا العبد «أداة يمكنها التكلّم». فالشريعة توصي بالرفق في معاملة العبيد، لأنّ العبرانيّين كانوا عبيدًا في مصر فحرّرهم الربّ بيدٍ قويّة (تثنية ٦/ ٢١). لذلك، لا يحقّ للسيّد أن يقتل عبده. وإن سبّب له إعاقةً أو شوّهه، عليه أن يُعتقه. ومن حقّ العبد أن يرتاح يوم السبت. ولا يُعاد إلى سيّده إن هرب، ولا يُفرض الختان عليه عنوةً. وإذا أصرّ على عدم حفظ شريعة سيّده سنةً كاملة، يُباع للوثنيّين. أمّا إذا قبِلَها، فيصبح كواحدٍ من أفراد الأسرة. ويحقّ للعبد المختون أن يأكل من التقادم، إن كان سيّده كاهنًا.

وتمنع الشريعة استعباد العبرانيّ إلاّ إذا رضي هو بذلك، أو كان من المذنبين. ومن الذنوب التي تؤدّي إلى الرقّ عدم وفاء الدين (متّى ١٨/ ٢٣-٣٥) أو عجز السارق عن ردّ ما سرقه (خروج ٢٢/ ٣). كان الفقر الشديد يدفع بعض الأشخاص إلى بيع أنفسهم وعائلاتهم في سوق النخاسة. والشريعة تقبل ذلك التصرّف، وتوصي بأن يُعامَل هؤلاء معاملة العامل الحرّ، أي ألاّ تزيد أوقات العمل اليوميّ على عشر ساعات، وألاّ يعملوا في الخدمات العامّة كالخياطة والحلاقة والحمّامات، وأن يستريحوا في الليل. وبعد ستّ سنوات، يُعتقون بحسب شريعة السبوت. لهذا، يقول مثلٌ يهوديّ: «مَن يشتري عبدًا عبرانيًّا، يسلّط على نفسه سيّدًا». كان ثمن العبد العبرانيّ أقلّ بعشرين مرّة من ثمن العبد الوثنيّ،

الذي لا يُضطرّ سيّده إلى إعتاقه إلاّ بعد خمسين سنة، أي في سنة اليوبيل الكبير (أحبار ٢٥/٤٧-٥٥). وإذا حاول أحدهم الاحتيال على الشريعة كأن يبيع عبده العبرانيّ للوثنيّين، تتدخّل الجماعة وتنقذ العبد. أمّا حقوق الإماء فهي أقلّ من حقوق العبيد. لأنّ المرأة تتبع زوجها في الرقّ والإعتاق. وهي متعة لسيّدها. فإذا أنجبت له أولادًا، لا يحقّ له بيعها أو فصلها عن أولادها. ولا وسيلة للتخلّص منها إلاّ في إعتاقها. وبسبب الظروف المخفّفة للرقّ في إسرائيل، لم يهتمّ يسوع كثيرًا بمسألة العبيد، بل ألحّ على عبوديّة الخطيئة، والحقّ الذي يحرّرنا منها. وكان جميع أفراد الكنيسة الأولى سواسية، ليس بينهم عبدٌ ولا حرّ (رومة ١٠/١٢ وغلاطية ٣/٢٨).

□ المتسوّلون

من العلامات التي تميِّز الحياة اليوميّة بفلسطين في أيّام يسوع كثرة المتسوّلين في الشوارع. ويشير العهد الجديد بوضوح إلى انتشارهم في كلّ مكان، ابتداءً من لعازر المصاب بالقروح، الذي لم يحظَ بالفتات الساقط من مائدة الغنيّ (لوقا ١٦/١٩-٣١)، وبرطيماوس الأعمى، الذي يتسوّل عند مدخل أريحا (مرقس ١٠/٤٦-٥٢)، إلى الكسيح منذ مولده، الذي التقاه بطرس ويوحنّا جالسًا عند أحد أبواب الهيكل المدعوّ «الباب الحسن» (أعمال ٣/١-٣). لا شكّ في أنّ بعض الناس احترفوا التسوّل بدافع الكسل أو طمعًا في الكسب المريح. لكنّ منهم مَن اضطُرّ إليه بسبب إعاقةٍ أصابته كالعمى أو الشلل. كان اليهود يحتقرون المتسوّلين ويستاؤون منهم للجاجتهم في طلب الإحسان، ويعدّونهم من كبار الخطأة، والبليّة التي أصيبوا بها دليلًا على خطيئتهم. ولم يختلف موقف الشريعة من المعاقين عن موقف الناس. ففي سفر الأحبار، لا يحقّ للمعاقين من نسل الكهنة أن يقدّموا التقادم: «الأعمى والأعرج والمشوّه وسقيم البنية، والذي به كسر رجل أو كسر يد، والأحدب والضامر والذي في عينيه بياض، والأجرب ومَن به القوباء ومرضوض الخصية، كلّ رجل به عيب

من نسل هارون الكاهن لا يتقدّم ليقرّب الذبائح بالنار إلى الربّ» (أحبار ٢١/١٨-٢١). وحين استولى داوُد على أورشليم، أعلن كراهيّته للعُرج والعميان، لأنّ أعداءه قالوا إنّ هؤلاء يصدّونكَ من شدّة ضعف جيشكَ (٢ صموئيل ٥/٦-٩). ولم يبالِ يسوع بكراهيّة معاصريه لأولئك الفقراء الجياع الذين يتسكّعون في الأزقّة طوال النهار، بل تماهى بهم وأعلن: «كلّما صنعتم (إحسانًا) لواحدٍ من إخوتي هؤلاء الصغار فلي صنعتموه» (متّى ٢٥/ ٤٠). وشدّد في كلامه على أهمّيّة الإحسان، فنقل مفهومه من الفضيلة والاختيار إلى الواجب والفرض.

كان إعطاء الحسنة لفقيرٍ أو إطعامه من الأفعال التقليديّة أيّام يسوع. ففي الأعياد، خصوصًا في أيّام الحجّ، يزداد عدد المتسوّلين في أورشليم. يأتون من جميع المدن والقرى، لأنّهم يعرفون أنّ الذين يزورون المدينة المقدّسة في ذلك الوقت طالبين الغفران تكون أكفّهم واسعة للسائلين وأيديهم طويلة للمعروف. وفي الأيّام العاديّة، يتسكّع المتسوّلون على الطرقات وعند مداخل المدن، آملين أن ينالوا من المارّة، خصوصًا المسافرين، بعض الحسنات لقاء دعائهم لهم بالتوفيق والنجاح والسفر الآمن. وفي المواسم، يجوبون الحقول والكروم مستفيدين من سماح الشريعة لهم بأكل السنابل أو عناقيد العنب أو جمع الفواكه الساقطة من الأشجار، شريطة ألاّ يكون معهم منجلٌ أو سلّة.

☐ الممسوسون

يُعَدّ الممسوسون أشدّ المتشرّدين خطرًا في أيّام يسوع. والممسوس إنسانٌ استولى عليه الشيطان، ولا يشفى إلاّ بوساطة طاردٍ للشياطين. وكان بين معلّمي الشريعة مَن له القدرة على القيام بذلك، فأشار يسوع إليهم حين أجاب الذين اتّهموه بأنّه يطرد الشياطين بقوّة بعل زبول رئيس الشياطين (متّى ١٢/ ٢٧). ويتنقّل طاردو الشياطين من مدينةٍ إلى مدينة ليمارسوا مهنتهم.

هل يمكن الشيطان أن يستولي على إنسانٍ حقًّا؟ يجيب العهد الجديد عن السؤال بـ نعم. فهو يذكر سبعة حوادث شفى فيها يسوع ممسوسين. كما منح تلاميذه سلطان طرد الأرواح النجسة (مرقس ٣/ ١٥). لكنّ ذلك لا ينفي أنّه إلى جانب الممسوسين، كان هناك مرضى نفسيّون وعصبيّون، نسب الشعب سلوكهم الغريب إلى استيلاء الشيطان عليهم. فبسبب جهل الناس للأمراض النفسيّة في ذلك العصر، بدا نسب السلوك الغريب إلى روحٍ شرّير شرحًا وافيًا. ومن شدّة إيمان الناس بوجود الأرواح النجسة، سمح التلمود ببعض التجاوزات أيّام السبت لاتّقاء شرّها، كإشعال المصباح لإخافتها، أو السير مسافة أطول من المسموحة للهروب منها. وعُدّت بعض الخطايا من فعل الشرّير، ولم يُحاسَب مقترفها عليها.

آمن الناس بأنّه لا يمكن أحدًا أن يرى الشيطان. ولكن، إن ذررنا رمادًا على الأرض مساءً، نرى آثاره في الرماد عند الصباح، وهي تشبه آثار قدمي الديك. وتنتشر الشياطين في كلّ مكان، خصوصًا في الأماكن الخربة والمستنقعات والمراحيض. وتهاجم البشر والحيوانات على السواء. وأكثر الناس عرضة لهجماتها هم المعاقون والمخطوبون والغلمان، أي الذين يعملون في الخدمة. والويل للرجل الذي ينام وحيدًا، لأنّه يتعرّض لهجمات إناث الشياطين، ويعلم الله ما سيحدث له حينذاك. وإذا حفظ المرء شريعة الربّ وعمل بها، يرسل الله إليه ملائكةً يحرسونه ويقهرون الشياطين، فيُسقطون منهم ألفًا من جهة وألفًا من جهةٍ أخرى. ولكي يساعد الإنسان ملائكته على الظفر، عليه أن يقوم بعدّة أعمالٍ أهمّها الصلاة. يقول التلمود: «مَن يصلّي قبل النوم، يكون كمَن يمسك بيده سيفًا ذا نصلين تجاه شياطين الظلمة». وعليه أيضًا أن يربط على ذراعه وجبينه قطعتَي خشبٍ أو جلدٍ كُتبت عليهما الوصايا. وأن يضع تميمةً في جعبته، أو يعلّقها على رقبته. وعندما يشعر باقتراب الشيطان منه، يأخذ من تميمته الآية الخامسة من المزمور ٩١ «فلا تخشى الليل وأهواله ولا سهمًا في النهار يطير». وكانت التمائم تحوي أشياء أخرى

كبيضة جرادة أو صدفة مثقوبة أو سنّ ثعلب.

خاف الناس كثيرًا من الشياطين، حتّى إنّهم خالفوا الشريعة في بعض الأحيان، وعلّقوا على رقابهم منحوتات صغيرة للحيوانات على مثال المصريّين والفينيقيّين. ففي حرب المكّابيّين، وجدَت تحت ثياب جثث الجنود اليهود أشياء مكرّسة لأصنام يمنيًا (٢ مكّابيّين ١٢/ ٤٠). وإذا تصفّحنا التلمود، نشعر بأهمّيّة الإيمان بالخرافات. ولا عجب في ذلك عند شعبٍ مشبعٍ بالتديّن ومنغلق على ذاته، يصبّ كلّ اهتمامه في حفظ الشريعة. فعلى سبيل المثال، الأرقام الزوجيّة مشؤومة، سواء لأيّام السفر أو لعدد كؤوس الخمر. وغمس اليد في الصحفة مع آخر يجلب النحس. وركوب حمارٍ أو حصانٍ من دون تعليق ذيل ثعلبٍ أو قماشٍ أحمر بين عيني الدابّة يعرّض راكبها إلى السقوط. وهناك مَن له عينٌ مؤذية تصيب مَن تراه بالشرّ. ويؤكّد أحد معلّمي الشريعة أنّ تسعين بالمائة من الوفيّات سببها العين الشرّيرة. وتعلّم الناس صلوات وممارساتٍ متنوّعة لصدّ مفعول العين الشّريرة وإهلاكها.

□ حثالة القوم

يحتلّ البرص رأس قائمة المنبوذين. فحين تظهر بثرة جلديّة عند إنسان، يأتي الكاهن ويفحصها بحسب ما توصي به الشريعة، ليقرّ هل هناك برص أم لا (أحبار ١٣). فإذا كان هناك برص، يرسله ليعيش في مناطق بعيدة عن السكّان، ولا يسمح له بمخالطة الناس. وعندما يسير في الطريق، عليه أن ينادي: «نجِس، نجِس» (أحبار ١٣/ ٤٥-٤٦) ليبتعد المارّة عنه. وإذا شُفي من مرضه، يذهب إلى الكهنة ويريهم نفسه فيسمحون له بالعودة إلى بيته. لذلك طلب يسوع من البرص الذين شفاهم أن يُروا أنفسهم لكهنة (متّى ٨/ ٤ ولوقا ١٧/ ١٤). وكان الناس يخشون البُرص مثلما يخشون الشياطين.

وتحتلّ الزواني المرتبة الثانية في قائمة المنبوذين. كان يُسمح لهنّ

بالإقامة في المدينة. فمنذ قديم الزمان، مال الشعب اليهوديّ إلى الزنى، وترك إلهه الذي خلّصه من عبوديّة فرعون، وتردّد إلى المعابد الوثنيّة حيث يُمارَس الزنى المقدّس. ولم تُجدِ صرامة الشريعة في تحريم الزنى نفعًا، ولا تمكّنت من ردع الناس عنه. ومَن يقرأ العهد القديم يشعر بمقدار اهتمام النصوص بذلك الأمر خصوصًا في أسفار الحكمة ويشوع بن سيراخ. كما أنّ الأنبياء مثل أشعيا وهوشع وغيرهما وصفوا عدم وفاء شعبهم لإلههم بأنّه زنى. وفي العهد الجديد، نلاحظ أنّ الزنى والزواني واقع من الحياة اليوميّة في فلسطين. وللتثبّت من ذلك، علينا أن نتذكّر لقاء يسوع الزانية في بيت الفرّيسيّ (لوقا ٧/٣٦-٥٠)، أو عفوه عن تلك التي أحضروها أمامه ليحكم عليها (يوحنّا ٨/١-١١)، أو كشفه زنى السامريّة التي تعيش مع رجلٍ ليس زوجها. وفي مثل الابن الضالّ، يبذّر الابن الأصغر ثروة أبيه على الزواني (لوقا ١٥/ ٣٠). وذكر يسوع الزنى والزواني في تعاليمه. فقد كان يكره خطيئة الزنى حتّى إنّه قال: «مَن نظر إلى امرأةٍ بشهوة، زنى بها في قلبه» (متّى ٥/٢٧-٢٨) لكنّه مع ذلك لم ينبذ الزواني، بل غلب على موقفه منهنّ طابع الرحمة، حتّى إنّه أعلن أنّ منهنّ مَن سيسبقن الفرّيسيّين إلى ملكوت السموات. لذلك أصبح التعفّف والامتناع عن الممارسات الجنسيّة الشاذّة من شروط الدخول في الدين المسيحيّ.

فرائض المجتمع

□ خدمة العَلَم

يفرض كلّ مجتمع منظّم على أعضائه ثلاثة أمور هي خدمة العلم ودفع الضرائب والتزام القوانين. كان اليهود معفيّين من خدمة العلم في أيّام يسوع، ربّما لأنّ الرومانيّين يخشون غدرهم، أو لأنّ الشريعة تحرّم حمل السلاح يوم السبت، ممّا قد يسبّب مشاكل للجيش في أثناء الحرب. وسُرّ اليهود بالأمر، لأنّه يعفيهم من المحاربة إلى جانب الوثنيّين. لكنّ غالبيّة الشعب شعرت بالألم والحسرة. فبعد تاريخ عسكريّ مجيد منذ أيّام موسى ويشوع بن نون، وبعد أمجاد داوُد وسليمان والمكّابيّين، وبعد عصر القلاع أيّام هيرودُس الكبير، هُجِرت حصون الإسكندريوم والهيركانيوم ومسّادة وخصوصًا حصن أنطونيا المشرف على الهيكل، وأقام الرومانيّون فيها، ولم يبقَ لليهود إلاّ فصائل صغيرة من المرتزقة، وشرطة الهيكل. أمّا السامريّون، فكانوا ينضمّون إلى الجيش الرومانيّ نكايةً باليهود.

كان جميع الجنود وقوّاد المائة المذكورين في الإنجيل وأعمال الرسل من الوثنيّين. ومع ذلك، لم يكن الشعب أعزلًا. فعند اعتقال يسوع، كان بطرس يحمل سيفًا، استلّه وقطع إذن ملخُس عبد رئيس الكهنة (متّى ٢٦/ ٥١). وامتلك الناس أسلحة للصيد أو الرعي كالأقواس والنبال والمقاليع، التي يمكن استخدامها أيضًا في الحرب، وقد استُخدِمَت فعلًا في الثورات على الرومانيّين. فعدم الخدمة في الجيش لم يمح روح القتال من نفس الشعب، ولا دفن حلم الحرب المقدّسة الذي أحيته حركة

المكّابيّين. وفي وادي البحر الميّت، عُثر على وثائق هامّة كُتِبَت في أيّام يسوع تروي تفاصيل الحرب الأخيرة بين أبناء النور وأبناء الظلمة.

☐ جور الضرائب

تحمّل يهود فلسطين وزر ضريبتين: الضريبة المدنيّة والضريبة الدينيّة. يعود تاريخ الضريبة المدنيّة إلى أيّام سليمان الملك. وكان الشعب دائم التذمّر منها. وبعد العودة من السبي، أصبحت تلك الضريبة جارحة، لأنّها تُدفع للوثنيّين، سواء كانوا فرسًا أو يونانيّين أو رومانيّين. وفقد هيرودُس الكبير كثيرًا من شعبيّته بسبب الضرائب الباهظة التي فرضها لكي يموّل مشاريعه الضخمة. فلجأ عدّة مرّاتٍ إلى الإعفاء الضريبيّ العامّ، ليتفادى ثورات الغضب الشعبيّ. وفي أيّام يسوع، كان الشعب يدفع نوعين من الضرائب المدنيّة: ضرائب مباشرة وأخرى غير مباشرة. أمّا الضرائب المباشرة، فتُدفع على أساس المدخول الإنتاجيّ، وهي تتراوح بين ٢٠ و٢٥ بالمائة، وعلى الأشخاص، كلٌّ بحسب إمكانيّاته المادّيّة. وقد سأل الفرّيسيّون يسوع عن شرعيّة كلتا الضريبتين (متّى ٢٢/١٧). والضرائب غير المباشرة هي بمثابة رسومٍ جمركيّة تُدفع مقابل العبور على الطرق التي يحرسها الجيش الرومانيّ، أو في نقاط الحدود بين الولايات، أو عند مداخل بعض المدن. وكان متّى أحد جباة تلك الضرائب في كفرناحوم حين دعاه يسوع ليتبعه.

يتمّ تحصيل الرسوم الضريبيّة على طريقة المقاولة. يتّفق شخصٌ أو مجموعة أشخاصٍ مع الدولة على دفع مبلغٍ معيّن كلّ سنة، ولمدّة خمس سنوات، مقابل أن تسمح لهم بجبي الضرائب على جميع المحاصيل والمنتوجات في منطقةٍ ما، أو التي تمرّ من طريق معيّن، أو تدخل هذه المدينة أو تلك. وكان هؤلاء يوظّفون مستخدَمين يتربّصون بالمارّة، ويفتّشون القفف والخروج والصناديق، ويجبون الضرائب لمعلّميهم، ويزيدون عليها قسطًا لصالحهم. إنّهم جباة الضرائب المذكورون في

الإنجيل[1]. فعلى سبيل المثال، كان زكّا واحدًا من الذين يتعاملون مع الرومانيّين مباشرة لجبي الضرائب. لذلك سُمّي رئيس جباة الضرائب (لوقا ١٩/ ٢). وكان الشعب يكره جباة الضرائب وينعتهم بأبشع الصفات. فيعدّهم خونة لأنّهم يتعاونون مع المحتلّ، ولصوصًا لأنّهم يجبون أكثر ممّا يحقّ لهم. ومع ذلك، وجد يسوع بينهم قلوبًا مستعدّة لاستقباله وسماع كلامه، فخالطهم ولم يكترث لانتقادات الناس له.

أمّا النوع الثاني من الضرائب، فهو الضريبة الدينيّة، وقد أقرّ الرومانيّون بشرعيّتها، وساهموا في حراسة القوافل التي تحمل ما جناه الجباة إلى أورشليم. وتنقسم تلك الضريبة أيضًا إلى قسمين، يُخصَّص قسمها الأوّل للهيكل من أجل ترميمه وصيانته وإعالة الكهنة الذين يخدمون فيه. ففي الخامس عشر من آذار، أي قبل شهر من عيد الفصح، يهمّ كلّ إسرائيليّ بالغ، أي عمره أكثر من ثلاث عشرة سنة، إلى دفعها سواء كان غنيًّا أو فقيرًا، مقيمًا في فلسطين أو خارجها. كانت الضريبة في أيّام يسوع درهمين (متّى ١٧/ ٢٤). وهو مبلغ زهيد بالمقارنة بالأعشار.

والقسم الثاني من الضريبة هو الأعشار. لمّا كان المُلك لله، وجب على كلّ إنسان أن يدفع عشر ما تنتجه أرضه، عرفان شكر للربّ الذي وهبها له ورعاها برحمته، فأنزل عليها المطر في أوانه، وأنبت الزرع في حينه. كانت الأعشار توزّع على الكهنة والفقراء. لكنّ الكهنة أهملوا شركاءهم واستأثروا بها لأنفسهم. ففي كلّ سنة، يذهب اللاويّون إلى المدن والقرى، ويعشّرون كلّ شيء، المحاصيل والقطعان والبيض وحتّى أبسط النباتات وأرخصها كالكمّون والنعنع (متّى ٢٣/ ٢٣). ولا يمتنعون عن التعشير إلاّ في السنة السبتيّة، أي حين تفرض الشريعة الراحة على العامل والأرض. وكان الشعب يدفع تلك الضريبة راضيًا على الرغم من

(١) في رأينا، تخطئ بعض الترجمات حين تسمّي جباة الضرائب المدنيّة عشّارين، لأنّ الضريبة التي يجبونها هي غير ضريبة العشر الدينيّة، التي يجبيها اللاويّون. لذلك نفضّل تسمية «جباة الضرائب».

جورها. لأنّ الاحتجاج عليها عصيانٌ لأوامر الربّ. ويتمّ جمع الأعشار في احتفالاتٍ شعبيّة، وتُحمَّل المحاصيل على عرباتٍ مزيّنة، فتوضع فيها أكياس القمح والشعير وصناديق البلح أوّلًا، ويُصفّف فوقها الرمّان والعنب والتين... وتنطلق القوافل على أنغام المزامير بحراسة الجيش الرومانيّ إلى أورشليم، فيتسلّمها الكهنة ومعاونوهم.

□ المحاكم والقانون

الأمر الثالث الذي يفرضه المجتمع على الفرد هو احترام القانون. في أيّام يسوع، رضي الرومانيّون بأن يُعمَلَ بشريعة اليهود في الأقاليم الفلسطينيّة التي يسكنونها، وأن يحلّوا مشاكلهم بعيدًا عن السلطة الحكوميّة، وألاّ يتدخّل الحاكم إلاّ عند الضرورة. وكانت التشريعات اليهوديّة تعتمد على ثلاثة مصادر: ما ورد في سفر الخروج من الفصل ٢٠ إلى ٢٣، وسفر تثنية الاشتراع من الفصل ٢١ إلى ٢٦، وما وضِعَ في أثناء السبي. فيصير الإجماليّ ٦١٣ قانونًا يجتهد الكتبة في درسها واستنباط شرائع منها تتلاءم مع الظروف التي يعيشونها.

أدّى ارتباط القانون بالإيمان إلى تأسيس محاكم دينيّة مدنيّة في فلسطين. وقد رأينا أهمّيّة دور السنهدريم في ذلك الأمر، خصوصًا في محاكمتَي يسوع وبولس. كان السنهدريم بمثابة محكمةٍ عليا تعالج القضايا الهامّة. ويجتمع أعضاؤه في صالة الحجارة المنحوتة المبنيّة داخل الهيكل منذ أيّام الإسكندرينيّ (١٠٣-٧٦). يدخل الناس إلى تلك الصالة من رواق الوثنيّين. أمّا القضاة، فيدخلونها من طرف الهيكل. ويجتمع الأعضاء السبعون معًا في القضايا الهامّة، وحضور ٢٣ منهم يكفي ليكون الحكم شرعيًّا. ولا تُعقد المحكمة إن لم يحضر ذلك العدد. فإذا أراد أحد القضاة الانسحاب من الجلسة، عليه أن يحصي أوّلًا زملاءه. فلا يذهب إلاّ إذا ظلّ عدد الباقين بعد خروجه يحافظ على شروط الرقم المفروض. ويتمّ البتّ بالقضايا يومَي الاثنين والخميس خارج أوقات الأعياد الكبرى.

وإذا التأم مجلس السنهدريم ليلًا، لا يجوز له الحكم على أحدٍ بالإعدام.
وفي عهد الحاكم غابينيوس، تأسّست أربع محاكم من ذلك النوع، ضمّت
كلّ واحدةٍ ٢٣ قاضيًا، في أريحا وصفورة الجليل وجدرة وأماثيا.

بالإضافة إلى تلك المحاكم العليا، كانت هناك محاكم محلّيّة في كلّ
منطقة لمعالجة القضايا الثانويّة، ولا تتعدّى صلاحيّاتها الجزائيّة حدود
الحكم بالجلد ٣٩ جلدة (٢ قور ١١/٢٤). تتألّف المحكمة المحلّيّة من
ثلاثة قضاة. ولمّا ندرت الكفاءات في الأرياف، أصبح ممكنًا أن يحكم
شخص واحد في قضيّة، إذا أعلن المتخاصمان رضاهما بحكمه. ويذكر
مقال في السنهدريم صفاتِ القاضي على النحو التالي: «على القاضي أن
يكون حكيمًا وقورًا يتكلّم» اللغات السبعين (أي جميع لغات الشعوب)
«لكي لا يحتاج إلى مترجم، ضليعًا في شؤون السحر ليكشف الألاعيب
الشيطانيّة. عليه أيضًا ألاّ يكون شابًّا ولا شيخًا هرمًا ولا مخصيًّا ولا قاسي
القلب». ويعمل القضاة من دون أجر. وأيّ مالٍ يتقاضونه يلغي الحكم.
ويعاون القاضي في عمله مجموعة من الناس كأمناء السرّ والسجّانين
والجلاّدين ومنفّذي الأحكام والشرطة (متّى ٥/٢٥). ويوكَل إلى أمناء
السرّ مهمّة التحقيق والتقصّي في القضيّة قبل يومٍ من معالجتها، فيتسلّم
واحد مهمّة الدفاع وآخر دور المدّعي العام.

□ المحكمة العليا

يُعدّ السنهدريم المحكمة اليهوديّة العليا في فلسطين. فحين يجتمع،
يجلس الرئيس في الوسط، ويتحلّق حوله أعضاء المجلس السبعون بحسب
أقدميّتهم، بحيث يستطيع أن يؤخذ رأي كلّ منهم بالنظر. ويجلس كاتبان
عند طرفي الدائرة، واحد لتسجيل أصوات المطالبين بالتبرئة والآخر
بالعقوبة. ويجلس بينهما أمين سرّ للمراقبة والإشراف. ويقف الحضور
أمام المجلس، وغالبيّتهم من تلامذة الرابيّين المجتمعين، والخدم
والشرطة والمفتّشون من الخلف. وتُفتتَح الجلسة بتلاوة صلاة «اسمع يا

إسرائيل. . .» ثمّ تبدأ المحكمة.

لا تقبل المحكمة إلاّ شهادة شهود عيان. وتُرفض شهادة مَن سمع ولم يرَ. ففي إنجيل مرقس، لم تُقبل شهادة مَن سمع يسوع يقول: «سأنقض هذا الهيكل الذي صنعته الأيدي. . .» (مرقس ١٤/ ٥٨-٥٩). ولا يُعلَن الحكم إلاّ بعد توافق شهادة شاهدين. ومسؤوليّة الشهادة خطرة. فإذا كانت قضيّة حياة أو موت، يُنذَر الشاهد والمدّعي بهذه العبارة: «لا تنسَ أنّك تحمل دم المتّهَم، ودم جميع ذراريه، حتّى منتهى العالم». وفي حال الحكم بالرجم، يرمي الشاهدان أوّل حجرين على المتّهم. بهذا نفهم معنى حكم يسوع في المرأة الزانية (يوحنّا ٨/ ١-٩). وفي حال شهادة الزور، ينال الشاهد العقاب الذي أراد أن ينزله بالمتّهم، كما حصل مع سوسنة (دانيال ١٣). وينتبه القضاة في أثناء المحكمة إلى نوعيّة الشهود. فيرفضون شهادة النساء والعبيد والأحداث والصمّ والبكم والعميان. لكنّهم لا يرفضون شهادة أقارب المتّهم. ويتمّ استجواب الشاهد بدقّة: في أيّ يوم وأيّ ساعة وأيّ مكان رأيت الجرم الذي تشهد له. وتُلغى الشهادة من أصلها إن تردّد الشاهد أو عدّل أو غيّر شيئًا في شهادته عند إعادة استجوابه. وبعد أن يدلي الشاهد بما عنده، يقسم بالله أو بأورشليم أو بالهيكل أنّ شهادته صحيحة. ويبدو أنّ القسم لم يكن كافيًا لمنع شهادات الزور (متّى ٥/ ٣٣).

بعد سماع الشهود، يدافع المتّهم عن نفسه. ولا يجوز للقاضي أن يضربه أو يأمر بضربه كما حدث ليسوع (يوحنّا ١٨/ ٢٢). ثمّ يتمّ التشاور للإدلاء بالحكم. وهنا، يترتّب على أحد القضاة أن يسرد العناصر التي من صالح المتّهم. ثمّ يتمّ التصويت ابتداءً من أصغر أعضاء المحكمة. فيبرّأ المتّهم ويُطلق سراحه فورًا إن نال أصوات الغالبيّة النسبيّة، أي دون عدّ الممتنعين عن التصويت، ويُدان في خلاف ذلك. ولا يحقّ للقضاة أن يغيّروا رأيهم بعد صدور الحكم إلاّ في صالح المُتّهم. ومن أجل الحكم على أحدٍ بالإعدام، يجب أن يوافق على الحكم عددٌ يفوق نصف عدد

القضاة المجتمعين باثنين. وإذا أجمع الكلّ على الإدانة، تؤجّل الجلسة، لأنّ ذلك يشير إلى انحياز القضاة. وفي جميع الأحوال، يؤجّل تنفيذ حكم الإعدام ٢٤ ساعة إذا ثُبِّتت التهمة. فينصرف القضاة إلى التعبّد والصوم طوال ذلك اليوم. بهذا نلاحظ، وكثيرون من القضاة اليهود أيضًا، أنّ محاكمة يسوع في السنهدريم لم تكن شرعيّة، وتخلّلتها ثغرات قضائيّة كثيرة لم يهمل الإنجيليّون ذكرها. ويذكر فلافيوس يوسيفس قضيّة مشابهة جرت في السنة ٦٧م، أُعدِمَ فيها المدعوّ زكريّا بن باريش داخل الهيكل على الرغم من ظهور براءته.

هل كان يحقّ لليهود الحكم على أحدٍ بالإعدام؟ ذكر التلمود في «باب السنهدريم»: «رُفِعَت عن الأمّة الإسرائيليّة حقوقها في أحكام الموت والحياة قبل أربعين سنة من خراب الهيكل». ففي محاكمة يسوع، قال بيلاطس لليهود: «خذوه أنتم وحاكموه بحسب شريعتكم» (يوحنّا ١٨/ ٣١). ويخبرنا فلافيوس يوسيفس أنّ حنّنيا رئيس الكهنة انتهز فرصة غياب الوالي وأمر برجم القدّيس يعقوب وبعض المسيحيّين الآخرين، فأثار في الشعب موجة احتجاج.

□ أنواع الإعدام

تذكّر «مقالة السنهدريم» أربعة أنواع من الإعدام. الرجم والحرق وقطع الرأس والخنق. في الرجم، يؤخذ المحكوم عليه إلى حفرة بعمق ارتفاع رجلين، ويدفعه أحد المتّهمين ليسقط فيها خلفيًّا عسى عنقه يتحطّم. ثمّ يرميه الشهود بأوّل الحجارة ويصوّبونها نحو القلب. ويحذو الآخرون حذوهم، فيقذفون المتّهم بالحجارة أو يدحرجونها عليه إن كانت ثقيلة إلى أن يموت. وفي الحرق، يوضع المحكوم عليه في حفرةٍ عمقها نصف قامة، مملوءة بِرَوث البهائم ومغطّاة بالكتّان. ويرغمه جلّادان على فتح فمه، ويضعا فيه فتيلًا مشتعلًا، فيلتهب الكتّان ويحرقه. وفي الخنق، توضع حلقة من الحبل حول رقبة المحكوم عليه، وتُدخل فيها خشبتان،

واحدة من كلّ طرف، ويدير جلاّدان الخشبتين باتّجاهين مختلفين، فيخنق الحبل المجرم.

يُدان بالرجم كلٌّ من الكفّار والزناة. أمّا النار فهي من نصيب مَن مارس الجنس مع فتاة وأمّها، أو بنت رئيس الكهنة إن زنت، أو إن بغت واحدة من السبط الكهنوتيّ. ويُحكم بالخنق على الأنبياء الكذبة والأبناء الذين يقتلون آباءهم. وفي حال عدم كفاية الجرم من أجل الإعدام، يُحكم بالجلد. ولمّا كان الجلد يؤدّي إلى الموت أحيانًا، حدّد القانون اليهوديّ عدد الجلدات بأربعين جلدة إلاّ واحدة (٢ قور ١١/ ٢٤). ثلاث عشرة جلدة على الصدر ومثلها على كلّ من المنكبين. ويُصنع السوط من حبالٍ أو سير جلديّ ثلاثيّ أو رباعيّ (يوحنّا ٢/ ١٥). أمّا الرومانيّون، فكان عدد الجلدات عندهم متروكًا لحكم القاضي أو لهوى الجلاّد. ويضيفون إلى المجلدة كريّاتٍ رصاصيّة أو عُظيمات خروف مدبّبة. فإذا ضرب الجلاّد بعنف، استطاع أن يقصم بها ترقوة الصدر أو ملسلة الظهر. وإذا لطف بها، استطاع أن يسلخ جزءًا من لحم المجلود مع كلّ ضربة سوط. وقد تحمّل يسوع ذلك النوع من الجلد في آلامه، وهو مربوط إلى عمودٍ عريض ومنخفض الارتفاع، ينحني عليه المجلود فيتوتّر جلد جسمه، ويخترق السوط لحمه اختراقًا.

ويحدّد التلمود شروط تنفيذ أيّ نوع من الإعدام. يُذهَب بالمحكوم عليه في وضح النهار ليشاهده الجميع. ويتقدّمه منادٍ يعلن للناس جرمَه أو يحمله مدوّنًا على لوحة. ويرافق المذنب اثنان من طلبة اللاهوت يحضّانه على الإقرار بذنبه، وتقدمة موته كفّارة عن آثامه، ليستحقّ دخول السماء. وهذا ما يجعلنا نفهم توبة اللصّ اليمين الذي صُلِبَ مع يسوع. ويحضر الإعدام ممثّل عن السنهدريم للتحقّق من تنفيذه.

وكان من سنن الشرع اليهوديّ أنّ تدخّل فردٍ واحدٍ من الجماعة يمكنه أن يوقف تنفيذ العقوبة حتّى في اللحظة الأخيرة. فالنبيّ دانيال تدخّل في آخر لحظة وأنقذ سوسنة العفيفة (دانيال ١٣/ ٤٥-٥٠). لذا، يقف عند

باب السنهدريم منادٍ يحمل علمًا. ويصيح مردّدًا عبارته باستمرار: «إذا أردتم إثبات براءة فلان، تعالوا». ويتبع موكب المحكوم عليه خيّال يلتفت دومًا إلى مكان الانطلاق، أي باب السنهدريم. فإذا تقدّم إنسان وتكلّم في صالح المتّهم، يلوّح المنادي بالعلم، فيُعاد الرجل إلى مجلس القضاء. لم يذكر الإنجيليّون هذه التفاصيل، ولا ندري هل روعيَت فجَبُنَ الشعب الذي نادى قبل خمسة أيّام: «هوشعنا، مبارك الآتي باسم الرب»، أم لم تُراعَ.

وكانت هناك أنواع إعدام أخرى كقطع الرأس لعبّاد الأصنام أو سكب الرصاص المذوّب في الحلق. ويقول التلمود عنه «إنّه يحفظ الجثّة من العطب».

□ الصلب

كان الصلب حكمًا رومانيًّا[٢]. ولأنّ إعدام يسوع تمّ تنفيذه عن يد الرومانيّين، روعيت فيه أصول الصلب الرومانيّة. كانوا يرسلون قائد مائة وهو منفِّذ الموت فيتقدّم الموكب. ويعاونه جنودٌ عددهم أربعة على الأقلّ. ففي سيرة الآلام، يخبرنا يوحنّا أنّ الجنود جعلوا ثياب يسوع أربع حصص، لكلّ جنديّ حصّة (يوحنّا ١٩/٢٣). ويحمل المحكوم عليه آلة عذابه. ويقول بعض المؤرّخين إنّه لا يحمل إلاّ العارضة الأفقيّة، لأنّ الشاقوليّة تظلّ منتصبة في مكان الإعدام. ويصل وزن العارضة الأفقيّة إلى ٣٠ كغ. ويُساق المحكوم عليه إلى خارج المدينة، فيُعرّى من ثيابه، وتُسمّر يداه إلى القائم الذي حمله، ويُرفع بالحبال حتّى يصل إلى ذروة القائم الشاقوليّ أو إلى تجويفٍ محفور فيه لذلك الغرض، فيُصلب الرجل ووجهه باتّجاه الشعب، أمّا المرأة فبطنها باتّجاه القائم. وتُسمَّر القدمان في القائم الشاقوليّ أو في قطعة خشبيّة مثبّتة فيه. وقد تُضاف خشبة بين الساقين عند المقعد تمنع اليدين من التمزّق بسبب ثِقَل الجسد، وتؤخّر

---

(٢) عن الصلب وأنماطه وأحكامه، راجع كتابنا الصليب والصلب قبل الميلاد وبعده، «موسوعة المعرفة المسيحيّة»، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٥.

ساعة الوفاة. ويشبّه طرطليانُس تلك الخشبة بقرن الكركدن.

يدوم نزاع المصلوب يومين أحيانًا، يعاني في أثنائهما العطش وتشنّج العضلات. ويزداد ضيق التنفّس تدريجيًا حتّى يبلغ حدّ الاختناق. ولمّا كانت الشريعة تحرّم وجود جثّة معلّقة على خشبة في الليل (تثنية ٢١/ ٢٣)، تُكسر ساقا المحكوم عليه عند المغيب، فيعجز عن الوقوف للتنفّس ويموت مخنوقًا.

لا يُحكم بالصلب إلاّ على المجرمين الخطرين أو العبيد العصاة. ويُكتب سبب الحكم على خشبة تسمّر في أعلى القائم الشاقوليّ أو تعلّق على رقبة المجرم. ومن شدّة وحشيّة ذلك النوع من الإعدام، اتُّخِذَت تدابير مسرّعة للموت كأن يُجلد المحكوم عليه قبل صلبه ليُرهَق جسده. لهذا السبب مات يسوع قبل اللذَين صُلِبا معه. وتُخفَّف الآلام أحيانًا بأن يُعطى المصلوب مزيجًا من المرّ والخل، وهو سائل مخدّر (مرقس ١٥/ ٢٣). وكان في أورشليم جماعة من النساء الموسرات يقدّمن ذلك المشروب للمحكوم عليهم. ويلجأ الجنود أحيانًا إلى إشعال نارٍ في تبنٍ وحشيش يرتفع دخانها إلى المصلوب فيعجّل من اختناقه. أمّا ثياب المجرمين فكانت من نصيب الجلاّدين، يأخذونها على سبيل المنحة، وقد أصبحت بموجب قرارٍ من أدريانُس حقًّا من حقوقهم.

الفصل الثامن

التقويم والمقاييس والعملات

□ السنة والشهور

في أيّام يسوع، كان جميع الناس في فلسطين يعرفون كتاب أخنوخ، الذي يعدّه بعض معلّمي الشريعة ملهَمًا من السماء. ورد في الكتاب أنّ ملاك الربّ ظهر لأخنوخ، أحد حفدة آدم، وعلّمه كيف يُحسَب الزمن. ويعتمد الحساب على القمر، لأنّ «القمر أيضًا أمين في تحديد الأزمنة، وهو علامة أبديّة. من القمر إشارة العيد...» (ابن سيراخ ٤٣/٦-٧). ويذكر كتاب آخر، كان واسع الانتشار أيضًا، وهو كتاب اليوبيلات، أنّ الله حدّد أيّام السنة بـ ٣٦٤ يومًا. وسبب شقاء البشريّة هو نسيانها ذلك الأمر.

استعملت حضارات الشعوب القديمة السنة القمريّة باستثناء الفراعنة الذين استعملوا السنة الشمسيّة. وظلّ الأمر على ذلك النحو حتّى السنة ٤٦ ق.م، حين قام يوليوس قيصر بتعديل حساب التقويم، وحمل التعديل اسمه إلى يومنا، وهو ما نسمّيه التقويم اليوليانيّ. فقد لاحظ الإمبراطور أنّ السنة القمريّة تجعل الصيف يبدأ أحيانًا في ذروة الطقس البارد. لذا، قرّر أنّ السنة ٤٥ تتألّف من ٤٤٥ يومًا، والسنة التي تليها ستكون ٣٦٥ يومًا بدل ٣٥٤، وهي أيّام السنة القمريّة. أمّا اليهود، فكانوا ينتظرون أن يبلغ الفارق شهرًا، فيقحمون شهرًا إضافيًّا اسمه فياذار بين شهري آذار ونيسان. فيبلغ عدد أيّام السنة في حينها حوالى ٤٠٠ يومًا. وكانوا يعتمدون في ذلك على الملاحظة. عندما يرون أنّ الشعير ما زال غضًّا،

والحملان ضعيفة والدجاج صغير من أجل احتفالات الفصح، يطلب ثلاثة معلّمين للشريعة تأخير العيد شهرًا. فيناقش الأمرَ مجلسٌ من خمسة معلّمين، ويقرّره مجلسٌ قوامه سبعة منهم.

كانت السنة العبريّة تبدأ مع الخريف. وفي السبي، تبنّى الشعب نظامًا آخر تبدأ السنة فيه عند الربيع. فأصبح للسنة في أيّام يسوع نظامان: السنة المدنيّة وتبدأ في آذار، والسنة الدينيّة وتبدأ في تشرين الأوّل باحتفالٍ دينيٍّ مهيب. إنّه عيد رأس السنة. أمّا عدّ السنوات، فكان في البداية انطلاقًا من الأحداث الهامّة: «قبل الزلزال بسنتين» (عاموس ١/١). ورأى العبرانيّون أنّ الرومانيّين يعدّون سنواتهم انطلاقًا من تأسيس رومة، فجعل المتعصّبون منهم يعدّون ابتداءً من حكم سمعان المكّابيّ، أي ١٤٢ قبل الميلاد. والذين عاملهم بومبيوس معاملة حسنة يعدّون انطلاقًا من فتحه فلسطين، أي ٦٣ ق.م. وفي المهجر، عدّ يهود الشتات سنواتهم وفقًا لبداية العالم، معتمدين بذلك على الأزمنة المذكورة في الكتاب المقدّس.

لم يستعمل اليهود تقويمًا كما في أيّامنا، بل اعتمدوا في تحديد بدايات الأشهر على المراقبة بالعين المجرّدة، مثلما تُحدّد بداية صوم رمضان وعيدي الفطر والأضحى. مَن يرى الهلال في السماء، يدلي بشهادته أمام السنهدريم. فإذا ثُبّتت صحّة الشهادة بعد تحقيق دقيق في مكان الرؤية وحجم الهلال، تُشعل النيران على قمم الهضاب، وينطلق المرسَلون إلى الطرقات ليعلنوا بداية الشهر. وتبنّى العبرانيّون أسماء الأشهر البابليّة منذ أيّام السبي: نيسان وأيّار وشيوان وتمّوز وآب وأيلول وتشرين (أي البداية) ومرشوان وكيسلو وطابث وشباط وآذار.

في أيّام يسوع، لم يكن استعمال ذلك الحساب التقويميّ شائعًا في جميع الأراضي الفلسطينيّة. فالرومانيّون يحسبون كما في رومة، والسامريّون يعلنون الشهر الثالث عشر متى يحلو لهم، والمدن اليونانيّة تستعمل التقويم المقدونيّ، كما أرّخ بعض الحكّام اليهود مثل الأمير

فيلبُّس والملكة برنيقة بحسب التقويم المقدونيّ. واستعمل يهود الشتات تقويم البلد الذي يعيشون فيه. والسنة عند الأسّينيّين تتألّف من ٣٦٤ يومًا موزّعة على أربعة فصول، كلّ واحد فيه ٩١ يومًا، أي ١٣ أسبوعًا. لهذا، يقع عيد الفصح عندهم في يوم محدَّد، وقلّما احتفلوا بالفصح مع اليهود. ويفترض بعض شرّاح الكتاب المقدّس أنّ يسوع أكل الفصح، وهو عشاؤه الأخير مع تلاميذه، وفقًا للتقويم الأسّينيّ، أي يوم الخميس قبل الفصح اليهوديّ بيومين.

أمّا الأسبوع، فيعود الفضل إلى العبرانيّين، على ما يبدو، في تحديده بسبعة أيّام. ويوم السبت أهمّها، حتّى إنّ العدّ يبدأ انطلاقًا منه. فالقدّيس متّى يذكر أنّ النسوة ذهبن إلى القبر في اليوم الأوّل بعد السبت فوجدنه فارغًا (متّى ٢٨/ ١).

□ اليوم وساعاته

يبدأ الليل بالنسبة إلى العبرانيّين حين تميل الشمس إلى المغيب. إنّها الساعة التي يُذبح فيها الحمل الفصحيّ، وتُقدَّم الذبائح الطقسيّة اليوميّة، وتبدأ الصلوات بأيدٍ مرفوعة نحو السماء. وفي أورشليم، يعلن اللاويّون نهاية اليوم حين ينفخون بالأبواق. وفي الأعياد، ينفخون في قرن الكبش، فيصدر عنه صوتٌ كئيب. ويبدأ النهار عند شروق الشمس. وفي أورشليم، حين يظهر نجم الصبح فوق قمم موآب، تُدقّ الصنوج ويُفتَح باب الهيكل المعروف باسم باب نيقانور، ثمّ يُعلن صوتُ البوق بداية الصلاة الأولى. فيتلو الناس في كلّ مكانٍ صلاتهم المقدّسة: «إسمع يا إسرائيل...».

في أيّام يسوع، كان اليهود يقسمون النهار إلى ١٢ ساعة. فحين ضرب يسوع مثل عمّال الساعة الحادية عشرة (متّى ٢٠/ ١-١٦)، كان يقصد الساعةالأخيرة قبل المغيب. ويذكر يوحنّا أنّ يسوع جلس على حافّة البئر وتحدّث مع السامريّة في الساعة السادسة، أي في منتصف النهار (يوحنّا ٤/ ٦). ويخبرنا مرقس أنّ يسوع صُلِبَ في الساعة الثالثة، أي

ثلاث ساعاتٍ بعد شروق الشمس، ومات في التاسعة، أي ثلاث ساعاتٍ بعد منتصف النهار (مرقس ١٥/ ٢٥، ٣٤). ويتمّ حساب الساعات بوساطة الشمس. ففي فصل الشتاء، تبلغ ساعة النهار حوالى ٤٥ دقيقة وفقًا لحساباتنا. وساعة الليل حوالى ٧٥ دقيقة. فحين عاتب يسوع تلاميذه قُبَيلَ اعتقاله لأنّهم لا يستطيعون أن يسهروا معه ساعةً واحدة، لا يمكننا أن نعرف بالضبط المدّة التي كان يقصدها.

كان العبرانيّون يجهلون تقسيم الساعة إلى دقائق وثوانٍ، مثلما فعل الفراعنة والكلدانيّون منذ زمنٍ بعيد. لذا، صعُب على الناس الاتّفاق على موعد محدَّدٍ لإنهاء العمل أو رحيل القوافل والسفن، أو الدعوة إلى العشاء. ففي مثل الوليمة، نلاحظ وجود دعوتين. الأولى تُحدِّد اليوم والفترة: «صنع رجلٌ عشاءً فاخرًا، ودعا إليه كثيرًا من الناس». فترة اللقاء إذًا هي المساء. «ثمّ أرسل خدمه ساعة العشاء يقول للمدعوّين: تعالوا». تلك هي الدعوة الثانية (لوقا ١٤/١٦-١٧). حينئذٍ، يجب على المدعوّين، الذين ينتظرون حضور الخادم مستعدّين، أن يذهبوا مع الرسول إلى بيت صاحب الدعوة.

إذا كان تحديد ساعات النهار ممكنًا بالاعتماد على الشمس، كيف يمكن تحديد ساعات الليل، خصوصًا حين يغيب القمر؟ في أيّام يسوع، اعتمد اليهود على الطريقة الرومانيّة التي تقسم الليل إلى أربع هجعات. ويذكرها مرقس الإنجيليّ بدقّة (مرقس ١٣/ ٣٥). هجعة المساء، وتُشعل فيها المصابيح الزيتيّة على أسطح المنازل. وهجعة منتصف الليل، وهجعة صياح الديك، التي نظر يسوع فيها إلى بطرس وقد أنكر ثلاث مرّاتٍ أنّه يعرفه (لوقا ٢٢/٦١)، وهجعة الصباح، التي جاء يسوع فيها إلى تلاميذه ماشيًا على المياه وهم في وسط البحيرة (متّى ١٤/ ٢٥). في نهاية تلك الهجعة، يتميّز اللون الأبيض عن الأزرق، وتستيقظ المدينة، وتدبّ الحركة فيها.

□ المقاييس والأوزان

استعمل العبرانيّون أعضاء الجسم لقياس الأطوال الصغيرة. فالذراع (٤٥ سم) هو الطول من المرفق إلى رأس الإصبع الوسطى، وقيمته شبران، أي الطول من رأس الإبهام إلى رأس الخنصر والكفّ مفتوحة، أو ستّة أكفّ مغلقة (دون الإبهام). والشبر يساوي ثلاثة أكفّ، والكفّ هو عرض أربعة أصابع مضمومة. وهناك نوعان من الذراع. الذراع الصغيرة والذراع الكبيرة التي يبلغ طولها سبعة أكفّ بدل الستّة، ويستعملها المهندسون المعماريّون في قياساتهم. فحين قال يسوع إنّ الإنسان لا يستطيع إذا اهتمّ أن يزيد على حياته ذراعًا واحدة، لا ندري أيّ الذراعين كان يقصد (متّى ٦/ ٢٧).

وتُقاس الأطوال الكبيرة بوساطة نشاطات الحياة اليوميّة مثل مسيرة يومٍ واحد، ومسيرة سبتٍ (أعمال ١/ ١٢)، أو بالخطوة[1] (متّى ٥/ ٤١)، أو الغلوة (١٨٥ م)، وهو مقياسٌ يونانيّ (لوقا ٢٤/ ١٣). ويقول معلّمو الشريعة إنّ مسيرة السبت تساوي ستّ غلوات، والغلوة ٦٠٠ خطوة، أو ٨٠٠ باع. ويُستخدم الباع خصوصًا في قياس الأعماق (أعمال ٢٧/ ٢٨). وتُقاس المساحات بالقصبة (حزقيال ٤٠/ ٥ وما يليها) والحبل (مزمور ١٦/ ٦).

لم يعرف اليهود مقاييس الأحجام كما في أيّامنا، بل استعملوا المكيال (يوحنّا ٢/ ٦). وفي الأوزان، استعملوا الحقّة، وهي حوالى ٣٢٧,٥ غرامًا (يوحنّا ١٢/ ٣). والوزنة التي يذكرها يسوع في مَثل الوزنات (متّى ٢٥/ ١٤-٣٠) تزن ٣٤ كغ، وقد تصل إلى ٦٠ كغ. ولمّا كان ذلك المقدار ضخمًا ويصعب استعماله، استُعملت كلمة وزنة للتعبير عن المال. فمَن لديه ألف وزنة كان مليونيرًا. واستعمل الناس للوزنة موازين يدويّة، أي زنبيلين معلّقين بحبالٍ متساوية الطول، مربوطة إلى خشبة غليظة.

---

(١) تستعمل الترجمات الحديثة كلمة «ميل» وهو ألف خطوة، أي حوالى ١٥٠٠ متر.

والأوزان مصنوعة من حجارة قاسية كالبازلت، أو معادن البرونز أو الرصاص. وفي الأسواق، كان المراقبون يتجوّلون بين الباعة ويتحقّقون من دقّة الميزان والوزنات.

□ العملات في فلسطين

انتشرت في فلسطين أنواع كثيرة من العملات. منها من المعادن الثمينة كالذهب والفضّة، ومنها من المعادن العاديّة كالبرونز والنحاس. وترتبط قيمة العملة بوزنها. لذلك دأب الصيارفة على وزن القطع النقديّة بدقّة قبل تبديلها. في أيّام يسوع، سُمّيت العملات بأسماء متنوّعة. فهناك الدينار والدرهم والإستار... وكان من عادة كلّ حاكم أن يسكّ عملةً خاصّة به. وتُدفع الضرائب لروما بعملة قيصر التي تحملُ صورته.

التزم حكّام فلسطين، أيهودًا كانوا أم رومانيّين، ما تفرضه الشريعة، وامتنعوا عن نقش صورٍ للأشخاص أو للحيوانات على عملاتهم. فعلى عملة سمعان المكّابيّ (١٥١ ق.م) نجد نقشًا للأرز ولغصن نخيل وعبارة «صهيون المحرَّرة»، أو «كبير الكهنة والجماعة». وعلى عملة هيرودُس الكبير صور فاكهة أو زهور أو خوذة وترس مع عبارة: «هيرودس الملك». ونقش هيرودُس أنتيباس على عملته صورة قصبة، تخليدًا لمدينة طبريّة التي أسّسها. لأنّ المدينة تقع على شاطئ البحيرة، حيث ينمو القصب بكثرة. ولم يشذّ عن تلك القاعدة ويخالف الشريعة إلاّ ثلاثة حكّام. أوّلهم فيلبُّس الذي حكم إقليمًا نائيًا بالقرب من الأقاليم السوريّة. فقد سكّ على عملته صورة الإمبراطور أوغسطس أو طيباريوس أو صورته. ولم يكترث الشعب للأمر بسبب بعد إقليمه عن اليهوديّة، وطبيعة رعيّته الفظّة القليلة التديّن. الحاكم الثاني هو بنطيوس بيلاطس. سكّ عملةً عليها عصا العرافة وإناء شربٍ طقسيّ وثنيّ. فسبّب له ذلك الأمر مشاكل كثيرة. والحاكم الثالث هو هيرودُس أغريبا. فقد احترم الشريعة في عملته باليهوديّة. ونقش عليها صورة شمسيّة. لكنّه خالفها في قيصريّة، الميناء الهامّ على البحر الأبيض

المتوسّط، حيث إقامته الدائمة، وسكّ عملةً تخالف الشريعة. فبدا موته لكثيرٍ من اليهود الأتقياء عقابًا استوجبه.

لم يسمح الرومانيّون لليهود بسكّ عملاتٍ ذات قيمةٍ عالية بعد هيرودُس الكبير. فكانت الورشات اليهوديّة تسكّ عملاتٍ برونزيّة لشراء حاجيّات البيت من السوق. أمّا العملة الفضّيّة، فكانت رومانيّة الصنع، وعليها صورة الإمبراطور. ولم يحتجّ الشعب عليها، لأنّه كان فقيرًا، وقلّما واحدهم يحوز على قطعةٍ منها. ويبدو أنّ رؤساء الكهنة لم يجدوا حرجًا في حيازتها. فقد دفعوا ثلاثين من الفضّة ليهوذا الإسخريوطيّ لقاء خيانته يسوع (متّى ٢٦/١٥). ومع ذلك، أظهروا للناس تمسّكهم بالشريعة، ورفضهم تلك العملات. فجعلوا للهيكل عملة خاصّة، وهي عملة فضّيّة فينيقيّة من صور، نُقِشَت عليها صورة الإله ملكار. إنّه لأمرٌ غريبٌ بالنسبة إلى شعبٍ يكره الوثنيّة أشدّ كره. ولم يستطع يهود فلسطين أو الشتات الذين يحجّون إلى أورشليم أن يدفعوا ضريبة الهيكل أو يشتروا حيوانات الذبائح إلاّ بعملة الهيكل. لذلك انتشرت موائد الصيارفة في باحة الوثنيّين داخل الهيكل، وإلى جانبهم باعة الحيوانات الصالحة للذبائح الطقسيّة، أي الحمام واليمام من السلالة الصافية، والثيران والحملان الحوليّة الخالية من أيّ عيب...

كان الصيارفة والباعة يدفعون مالاً لرئيس الكهنة مقابل السماح لهم بممارسة مهنهم داخل الهيكل. وكانوا يستغلّون المؤمنين أبشع استغلال، خصوصًا وأنّ غالبيّة الناس بسطاء لا يجيدون الحساب. لهذا السبب ثار يسوع عليهم وصنع مجلدًا وطرد جميع الباعة من الهيكل، وقلب موائد الصيارفة (يوحنّا ٢/١٥).

الفصل التاسع

الطعام والشراب والسكن

□ المأكولات

يُعدّ الخبز طعام الشعب الأساسيّ في أيّام يسوع. والتعبير السائد «يكسب خبزه اليوميّ» يعبّر عن أساسيّات ما يحتاج إليه الإنسان من طعامٍ وشرابٍ وملبس. كان الفقراء يأكلون خبز الشعير والأغنياء خبز القمح. وتتمّ صناعة الخبز في البيت، وتقوم بها النساء. فتطحن المرأة الحبوب بحجر الرحى وتصنع العجين وتضيف الخمير إليه، باستثناء خبز الفصح الذي يؤكل فطيرًا دون خمير. وفي اليوم التالي، تخبزه في التنّور داخل الدار أو في تنّور القرية، إن كانت الأسرة فقيرة. كانت النساء يقمن بتلك المهمّة مرّتين في الأسبوع على الأقلّ، ولا يخبزنَ كمّيّاتٍ كبيرة. لأنّ الخبز ييبس في الطقس الحارّ أو يتعفّن. وللرغيف شكل دائريّ، وهو لا يُقصّ بالسكّين، بل يُكسر كسرًا. وكان اليهود يحترمون الخبز ويعدّونه مادّة مقدّسة. فلا يضعون الجرّة أو أيّ غرضٍ عليه، ولا يرمون الفتات إلاّ إذا كان حجمه أصغر من حبّة الزيتون.

لم يُستعمل القمح لصناعة الخبز فقط. ففي الحروب، يأخذ الجنود قمحًا محمّصًا بدل الخبز. ويُستعمل الدقيق في صناعة الحلويات كاللقم. ولمّا كانت صناعة السكّر غير معروفة في ذلك الحين، دأب الفلسطينيّون على استعمال العسل لحلوياتهم. والعسل نوعان: برّيّ وأهليّ. وتشمل فئة العسل الأهليّ ذلك الذي تنتجه المناحل. أمّا الدبس فيُصنَع من العنب أو البلح.

لم يكن الفقراء يأكلون اللحم إلاّ في الأعياد الكبرى أو المناسبات الهامّة. ففيها يذبحون العجل المسمّن. أمّا السمك، فهو من الوجبات الشعبيّة. ففي معجزة تكثير الخبز والسمك، كان هناك صبيّ يتبع يسوع ومعه زوّادته المؤلّفة من الخبز والسمك. ويروي لوقا الإنجيليّ أنّ يسوع أكل سمكًا مشويًّا مع تلاميذه بعد قيامته (لوقا ٢٤/٤٢-٤٣). ويأتي السمك من بحيرة طبريّة وسواحل البحر الأبيض المتوسّط، ويُباع في أورشليم عند باب السمك (نحميا ١٢/٣٩، صفنيا ١/١٠). وبسبب عدم وجود أنظمة التبريد، كان يُجفَّف في أشعّة الشمس ويُملَّح ويُباع داخل فلسطين وخارجها. ومن شدّة استهلاك الناس للسمك، كان يُستورد أيضًا من بلاد الفينيقيّين (نحميا ١٣/١٦). وتحرّم الشريعة تحلية السمك بالماء الساخن يوم السبت.

وكان الناس يشربون حليب الغنم أو الماعز. أمّا حليب البقر فنادر ويتخثّر بسرعة. ومن الحليب يُصنع اللبن واللبنة والجبن والزبدة، تمامًا كما يفعل البدو في أيّامنا. أمّا أغرب الأطباق، فهو الجراد. كان يوحنّا يأكل منه، لكنّه لا ينفرد في ذلك الأمر. فإحدى مقالات التشريع تنصّ على أنّ هناك ٨٠٠ نوع من الجراد صالحة للأكل. ويذكر سفر الأحبار الجراد من بين الحشرات التي يُسمح بأكلها. «الجراد بأصنافه والحرجوان بأصنافه والجندب بأصنافه» (أحبار ١١/٢٢). ويؤكل الجراد مسلوقًا بالماء والملح فيشبه طعمه طعم القريدس (الجمبري). أو يُجفّف في الشمس بعد نزع رأسه وقوائمه، ثمّ يُحفظ بالعسل فيصير نوعًا من أنواع الحلويات، أو يُخلّل بالخل، أو يُطحن ويُمزج بالدقيق وتُصنع منه فطائر شهيّة.

قُلنا في الفصل الأوّل إنّ أشجار الزيتون تحتلّ مكانة الصدارة بين الأشجار المثمرة في فلسطين أيّام يسوع. والزيتون من الأطعمة المفضّلة في تلك الأيّام. ويُستخلص الزيتُ من الزيتون بعصره في البيت أو في العصّارات العامّة. وتتباين نوعيّات الزيت كثيرًا. وأوّل الزيت النازل من

العصّارة أفضلها. لذا، يُخصّص للاستعمالات الدينيّة وصناعة الحلويات الفاخرة. ويُستعمل الزيتُ للاستطباب أيضًا، وهو يرمز إلى الصحّة والقوّة.

وتُقدّم في الولائم الفاكهة كالبطّيخ والتين والعنب والرمّان. والناس يحبّون أكل الجوز واللوز والفستق الحلبيّ والبلح والمشمش الذي يُصنع منه قمر الدين. وكانت غالبيّة تلك الفواكه تُصدَّر مجفّفة إلى رومة.

لم تتدخّل التشريعات، التي عالجت أدقّ تفاصيل الحياة، في طرق تحضير الأكل، بل اكتفت بتحديد الطعام الطاهر والنجس. فالخنزير والأرنب من الحيوانات النجسة، والحيوانات المائيّة عديمة الحراشف أو الزعانف كالسرطان والمحار والأخطبوط والضفادع نجسة أيضًا. ولا يؤكل حيوانٌ إلاّ بعد تصفية دمه. فالدم في نظر الشريعة روح. ولا يليق أن تمتزج روح الإنسان، التي هي من الله، بروح أدنى منها شأنًا، أي روح الحيوان. ولعلّ يسوع اعتمد على ذلك الإيمان في العشاء السرّيّ، فناول تلاميذه كأس الخمر وقال لهم: «خذوا فاشربوا هذا هو دمي»، أي فلتمتزج روحكم بروحي. ولم يحرّم التلمود، على ما يبدو، أيّ نوع من النباتات إلاّ الخرنوب. فقد جاء فيه: «إذا ألجئ إسرائيليّ يومًا إلى التقوّت بالخرنوب فما عليه إلاّ التوبة». لأنّ الخرنوب طعام الخنازير، وهي حيوانات نجسة في نظر الشريعة. ولعلّ يسوع استند إلى ذلك التعليم ليبيّن في مَثل الابن الضالّ مقدار بؤس الابن الأصغر وشقائه (لوقا ١٥/١٦).

□ الشراب

بالإضافة إلى الماء، كان الناس يشربون عصير الفاكهة والشيشار، وهو نوعٌ من البيرة الخفيفة. ولا تحرّم الشريعة شرب الخمر، لأنّ الله كشف صناعتها لنوح (تكوين ٩/ ٢٠-٢١). واشتهرت فلسطين بصناعة الخمر، وكان يُصدّر منها إلى رومة. ودرجة كحوليّة الخمر الفلسطينيّة عالية ولا تُشرب إلاّ ممزوجةً بالماء. وقد استمرّت عادة مزج الخمر بالماء

في كثيرٍ من ليترجيّات الكنيسة[1]، وأخذت مع مرور الزمن معانيَ رمزيّة أخرى. وتوضع الخمر في زقٍّ جلديٍّ مدبوغٍ وتُغلق فوهته بقطعةٍ خشبيّة. وتُصفّى قبل شربها. ويمزج الأغنياء معها بعض المعطّرات كالقرفة والزعتر وماء الزهر. وتُكرع الخمر في كؤوسٍ نحاسيّة أو من السيراميك كبيرة الحجم ولها ذراع. وعلى الرغم من عدم تحريم الخمر، تنبّه نصوصٌ كثيرةٌ إلى مساوئ الإفراط في الشرب. فإذا كان قليلٌ من الخمر يُفرّحُ قلب الإنسان، فكثيرٌ منها يضيّع العقل، كما يقول يشوع بن سيراخ الحكيم (٣١/ ٢٥-٣١). لذلك، مُنِعَ القضاة عن شرب الخمر قبل الذهاب إلى المحكمة، والكهنة قبل تقديم الذبائح.

□ تناول الوجبات

تؤكل الوجبات جلوسًا على الأرض. ويتناول الأغنياء ومتوسّطو الحال وجباتهم على طاولاتٍ منخفضة. لذلك ذكر يسوع في أمثاله الفتات الساقط من موائد الأغنياء (متّى ١٥/ ٢٧). ويتمّ تناول الطعام في باحة الدار إذا كان القطس ملائمًا، أو داخل الغرفة. ويأكل الناس وجبتين يوميًّا. الأولى قبل الذهاب إلى العمل، والثانية بعد العودة منه. وعند الظهيرة، يتناولون طعامًا خفيفًا يسدّ رمقهم. أمّا في السبت، فتكون وجبة الظهر دسمة لكنّها باردة.

كان الناس يدعون بعضهم بعضًا إلى تناول الطعام بروح ضيافةٍ كريمة. ومَن يقرأ الإنجيل، يُفاجأ بعدد المرّات التي دُعي فيها يسوع إلى الطعام عند هذا أو ذاك. وحين يأتي الضيف، يصبّ الخدم، أو صاحب الدعوة، الماء على قدميه إشارةً إلى أنّ الضيف أتى من بعيدٍ إكرامًا لمضيفه. ثمّ يغسل الضيف يديه (لوقا ١١/ ٣٨)، أو اليد اليمنى بالتحديد، لأنّ الشريعة توصي أن يستعملها الناس للأكل. وفي المناسبات الهامّة، يعطّر المضيف ضيوفه.

(١) الطقس الأرمنيّ من الليترجيّات القليلة التي لا تمزج الخمر بالماء.

يبدأ الطعام بتلاوة صلاة البركة. فمعلّمو الشريعة يقولون إنّ تناول الطعام دون صلاة البركة تدنيس لأمرٍ مقدّس. ويتربّع الناس أو يستلقوا على جنبهم الأيسر، متّكئين على وسادة وأرجلهم مطويّة إلى الوراء، مثلما يفعل اليونانيّون. ربّما كانت تلك هي الوضعيّة التي اتّخذها يسوع عند الفرّيسيّ حين أتت المرأة الخاطئة من خلفه وبلّلت رجليه بدموعها (لوقا ٣٨/٧)، أو حين أسند يوحنّا رأسه إلى صدر يسوع في العشاء الأخير. فالناس يقولون عن المتكئ أمام غيره إنّه متّكئ في حضنه.

كان الآكلون يتوزّعون على ثلاثة متّكآت محيطة بالمائدة من جوانبها الثلاثة. وتُترك الجهة الرابعة فارغة ليتمكّن خدّام المائدة، العبيد أو النساء، من إحضار الطعام إليها. ويحرص صاحب الدعوة على إجلاس ضيوفه بحسب مقام كلّ واحدٍ منهم. فيجلس هو في الوسط - محلّ الشرف - أي مقابل الطرف الفارغ الذي يُقدَّم الطعام منه، ويُجلِس على يمينه أرفع المدعوّين شأنًا، ويُدعى ذلك المحلّ «حضن ربّ البيت». كان يوحنّا بن زبدى متّكأً هناك في العشاء الأخير مع يسوع. ويجلس على يسار صاحب الدعوة مَن يلي الأوّل في الأهمّيّة. فمَن لا يجلس في مكانه، يطلب منه المضيف أن يغيّر مجلسه (لوقا ١٤/٧-١٠). وتُستعمل للطعام قصعاتٌ نحاسيّة مطليّة بالقصدير، لأنّ قصعات الفخّار نجسة بحسب تعاليم معلّمي الشريعة. ويأكل الناس تغميسًا باليد، سواء من صحفتهم أو من الطبق الكبير. أمّا تناول الطعام، فيتمّ وفق أصولٍ يرويها لنا يشوع بن سيراخ الحكيم: «إذا جلستَ إلى مائدةٍ حافلة فلا تفتح لها حنجرتكَ، ولا تقل: «ما أكثر ما عليها...». حيثما نظر ضيفك فلا تمدّد يدك ولا تزاحمه على الصحفة... كُل ممّا وضِعَ أمامك كما يأكل الإنسان المتأدّب. ولا تُعمِل الفكّين (أي لا تُصدِر أصواتًا من فمكَ) لئلاّ تُكرَه. كُن أوّل مَن يتوقّف مراعاةً للأدب. ولا تكن نهِمًا... وإذا جلستَ إلى مائدةٍ بين كثيرين فلا تمدّد يدكَ قبلهم... وإذا أكرِهتَ على الإكثار من الكل فقُم وتقيّأ فتستريح» (ابن سيراخ ٣١/١٢-٢١). وبعد الطعام، يتابع المتّكئون

أحاديثهم، لا رغبة في الشرب، بل استمتاعًا بالكلام. ويذكر القدّيس يوحنّا، في فصولٍ طويلة، حديث يسوع إلى تلاميذه بعد تناول عشاء الفصح (يوحنّا ١٣/ ٣١-١٧/ ٢٦).

□ البيوت الشعبيّة

لا شكّ في أنّ فلسطين عرفت القصور وبيوت الأغنياء الكبيرة في أيّام يسوع. لكنّها كانت قليلة العدد، لأنّ غالبيّة الشعب من الطبقة الفقيرة. كانت بيوت الناس البسطاء تُبنى باللبن الطينيّ الممزوج بالقشّ والمحروق قليلًا في الفرن. لذلك يسهل على اللصوص أن ينقبوا الجدار ويسرقوا الدار (متّى ٦/ ١٩). أمّا بيوت ميسوريّ الحال، فتُبنى بالحجارة. وقبل مباشرة عمليّة البناء، يصلّي الكهنة على حجرٍ من حجارة الزوايا. فيحمل اسم حجر الزاوية. وآمن الناس بأنّ قيام البيت يعتمد على ذلك الحجر، إن أزيل، سقط البناء. لذا، يختاره البنّاؤون صلبًا ومصقولًا. وقد شبّه يسوع نفسه به (متّى ٢١/ ٤٢).

يعير المعماريّون الأساسات اهتمامًا شديدًا. فالمنطقة تجتاحها السيول كما قلنا، وتجرف معها الكثير من الرمل، ممّا يسبّب انهيار المنازل المرتكزة عليه (متّى ٧/ ٢٤). وبعد بناء البيت، يُطلى بالكلس من الداخل والخارج. ويُصنع السقف من قوائم خشبيّة تمتدّ على طول الغرفة، أو من سعف النخل الجافّة بعد تعريتها من الأوراق وتشبيك بعضها ببعضها الآخر. وتوضَع فوق الخشب طبقة ثخينة من التراب. وفي كلّ سنة، يُدحل السطح بحجرٍ أسطوانيّ بازلتيّ أو غرانيتيّ لرصّ التراب قُبيل فصل الأمطار. لذا، يمكن نقب السقف أيضًا للسرقة أو لإنزال مُقعدٍ أمام المسيح (لوقا ٥/ ١٩)، أو لإخراج ما لا يمكن إخراجه من الباب. فالأبواب ضيّقة في غالب الأحيان، ومنخفضة الارتفاع، للمحافظة على البرودة صيفًا والحرارة شتاءً. ولا يضع الفقير قفلًا لباب داره، بل يغلقها بالمزلاج، ويفتحها من الخارج بسيخٍ عاديّ. أمّا الغنيّ فيستعمل القفل

الرومانيّ الكبير الحجم، فيُضطرّ إلى تعليق مفتاحه الضخم على عنقه. ولم يكن ذلك المشهد مضحكًا، بل مفخرةً عظيمة، لأنّه علامة على أنّ حامله صاحب شأن. وحين سلّم يسوع بطرسَ مفاتيح السماء (متّى ١٦/١٩)، فهم الحضور أنّه ائتمنه على أملاكه وسلّمه سلطته. لأنّه لا يحمل مفاتيح الملكيّة الكبيرة إلاّ صاحبها أو الوكيل الأمين عليها، أي رجل الثقة.

كانت الغُرف تحتاج إلى إضاءة مستمرّة بسبب الأبواب المنخفضة والنوافذ الصغيرة. فالمرأة، التي أضاعت درهمها في مثال يسوع، أشعلت المصباح لتكنس الأرض وتبحث عنه (لوقا ١٥/٨). ولا يُشعل الفقراء إلاّ مصباحًا واحدًا. ففي تشابيه يسوع لا يُذكر إلاّ مصباحٌ: «لا يوقد سراجٌ ويوضع تحت المكيال، بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت» (متّى ٥/ ١٥). كانت المصابيح فخّاريّة، شكلها بيضويّ ولها ثقبان، واحد لفتيل الكتّان وآخر لملء الزيت، ومزوّدة بحلقة أو خطّاف ليستطيع المرء حملها. وغالبًا ما تُنقَش عليها أشكال تزيينيّة. والمصابيح الجميلة تحوي ثقوبًا على سطحها. وكان الأغنياء يقتنون شمعداناتٍ نحاسيّة، لها في بعض الأحيان شكل حيواناتٍ مفترسة أو غزلان.

تشبه هندسة الدور في غالبيّتها هندسة البيوت القديمة في بلاد الشام، التي لا زالت قائمة إلى الآن: باحة داخليّة فيها شجرة أو شجيرات، وغرفٌ تحيط بها من جهاتها الأربع. وفي كلّ غرفةٍ تقيم أسرة بكاملها. فإذا كان صاحب الدار غنيًّا، شغل وحده جميع الغرف، أو خصّص غرفة لكلٍّ من أبنائه المتزوّجين. ولم تكن الأبنية ذات الطبقات شائعة في الأوساط الفقيرة، خصوصًا وأنّ غالبيّة السقوف مبنيّة على سعف النخل، أي على دعائم ضعيفة التحمّل. ومع ذلك، كانت النساء يصعدن إلى السطح، بوساطة سلّم خشبيّ، لتجفيف الخضار في أشعّة الشمس من أجل حفظها مؤونةً للشتاء. وفي الصيف، يمضي الناس أمسياتهم على السطح ليتمتّعوا ببرودة الليل (متّى ٢٤/١٧). لذلك، كان بعضهم ينصب خيمةً على سطح داره صيفًا لينام فيها. وكان الأغنياء يبنون حجرةً بسيطة بدل

الخيمة يسمّونها «العلّيّة»، وهي بمثابة طبقة ثانية، يُصعَد إليها بوساطة درج خارجيّ. فمَن أراد بلوغها لا يُضطرّ إلى دخول الدار. في حجرةٍ كهذه احتفل يسوع بالفصح مع تلاميذه قُبَيل آلامه (لوقا ٢٢/ ١٢). وفيها أقام التلاميذ بعد الصعود (أعمال ١/ ١٣).

كان الناس يشترون الماء أو يحضرونه من النبع. ولم تكن بيوت الفقراء مجهّزة بأجران ماءٍ كبيرة، ممّا يجبر النساء على الذهاب عدّة مرّاتٍ إلى النبع أو البئر، لأنّ جلب الماء من عمل المرأة. ورؤية رجلٍ يحمل جرّة ماءٍ نادرة جدًّا. لذا، اكتفى يسوع بإعطاء تلك العلامة لتلميذيه، كي يجدا مَن سيريهما المكان الذي سيحتفلون فيه بالفصح (لوقا ٢٢/ ١٠). لم يكن عمل جلب المياه مشقّةً للنساء. فالنبع أو البئر مكانٌ تلتقي فيه كلّ واحدةٍ صديقاتها، فيثرثرن ويتبادلن الأخبار. فمصادر المياه إذًا أماكن مخصّصة للنساء، ومن العيب أن يجلس فيها رجل. لذا، يقول يوحنّا الإنجيليّ إنّ يسوع جلس على حافّة بئر يعقوب في السامرة من دون تكلّف (يوحنّا ٤/ ٦). وقد فعل ذلك لأنّ الوقت كان ظهرًا، ولا تأتي النساء في تلك الساعة ليستقين، اللهمّ إلاّ إذا رغبت إحداهنّ في عدم لقاء الأخريات، مثل السامريّة التي يبدو أنّ ألسنة بنات جنسها تتناولها لسوء سيرتها.

الفصل العاشر

الصناعات والحرف

□ الراعي

كان الرعي والزراعة والصيد من المهن الشائعة في أيّام يسوع، خصوصًا بين أبناء الطبقات الفقيرة. ويحتلّ الرعي المرتبة الأولى بينها. فالعبرانيّون يتذكّرون كيف كان آباؤهم إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى رعاة غنم. ومع ذلك، اختلفت الآراء في مهنة الرعي. فمنهم مَن عدّها مهنة الكسالى، ومنهم مَن أشاد بوقار الراعي وهو في البراري وحده يتأمّل كلام الأنبياء مثل عاموس أو ينشد المزامير لله مثل داود. لم تكن مهنة الرعي سهلة، خصوصًا حين يتجاوز عدد الخراف الألف أو العشرة آلاف. كان الرعاة يقودون قطعانهم إلى البراري قبل أسبوع من عيد الفصح، ولا يعودون بها إلاّ في منتصف تشرين الثاني. فإذا قارنّا هذه المعلومة بسهر الرعاة يوم الميلاد (لوقا ٢/٨)، تبيّن بوضوحٍ أنّ الحدث لم يتمّ في ٢٥ كانون الأوّل[١].

(١) كانت الكنيسة في بداية عهدها تعيّد الظهور الإلهيّ، أي الأوقات التي ظهرت فيها شخصيّة يسوع الإلهيّة، وهي زيارة المجوس والمعموديّة وعرس قانا الجليل. ثمّ ظهرت هرطقة شكّكت في تجسّد الكلمة، فاختير يوم ٢٥ كانون الأوّل للاحتفال بميلاد يسوع. ففي هذا التاريخ، كان العالم الوثنيّ يحتفل بعيد ميلاد الشمس. وتمّ ذلك الاختيار في الكنيسة الغربيّة في السنة ٣٥٣، باعتبار أنّ المسيح هو شمس العالم ونوره. وتبنّت الكنائس الشرقيّة ذلك التاريخ في وقتٍ لاحق، في حين ظلّ بعضها، كالكنيسة الأرمنيّة، يعيّد الظهور الإلهيّ دامجًا ميلاد يسوع ومعموديّته في عيدٍ واحد، يوم ٦ كانون الثاني.

يجزّ الرعاة صوف أغنامهم مرّتين في السنة. في الربيع وفي نهاية الصيف. وصوف نهاية الصيف أفضل، لأنّ صوف الربيع خشن وأشعث بسبب الإقامة الطويلة داخل الإسطبل. بالإضافة إلى ذلك، يقوم الرعاة بحراسة القطعان ليل نهار، وهي عمليّة شاقّة وتتطلّب جهودًا كبيرة. فبالإضافة إلى خطر ضلال الخراف، كانت وحوش البرّيّة تهدّد أمن القطيع واللصوص تتربّص به. لذا، كان الرعاة يحملون السلاح على الدوام: الخنجر والعصا ذات الرأس المصفّح، لردّ العدوان أيًّا كان، ويتناوبون السهر في الليل على قطعانهم، سواء كان الطقس باردًا أو حارًّا. وفي بعض الأحيان، يسهّلون على أنفسهم الحراسة فيبنون بحجر مرصوف بلا ملاط سورًا طويلًا منخفضًا له باب. وفي الصباح، يأتي كلّ راعٍ ويطلق صوته، فتسمع الخراف الصوت الذي ألفته وتخرج إلى المرعى (يوحنّا ١٠/١-٤).

إنّ حياة الراعي ليست سهلة كما تخيّلها بعضهم وحكم عليها. فالراعي يحرس القطيع، ويسعف الخراف المصابة، ويبحث في البراري عن الضالّة، ويحافظ على السمان، ويتنبه إلى الصغار والضعاف، ويخصي الذكور الذين لن يُخصّصوا للتكاثر، ويجزّ الصوف مرّتين في السنة، ويفرز الأعشار للهيكل... والعشرة الطويلة بين الراعي وخرافه تخلق ألفة ومودّة، لذلك نراه يعرفها أفضل ممّا تعرف نفسها.

□ الزراعة

لم يتغيّر أسلوب الزراعة في أيّام المسيح عن الأساليب البدائيّة التي لا زالت مستعملة في أيّامنا. كانت الزراعة في فلسطين بعليّة، وكان الفلاّحون يقيمون أسوارًا من الحجارة لتحديد أراضيهم ومنع التربة من الانزلاق، خصوصًا في المنحدرات. ويجمعون روث الحيوانات ويضعونه سمادًا في التراب أو على جذور الأشجار (لوقا ١٣/٨).

أمّا حراثة الأرض، فتتمّ بالمحراث التقليديّ. وكان الفلاّح يفضّل

امتلاك زوج ثيران لذلك الأمر، فالحراثة بهما أفضل من الحراثة باستخدام الحمير. لهذا السبب، رأى أحد المدعوّين إلى العشاء، في مثل الوليمة الذي ضربه يسوع، أنّ تجريب الثيران التي اقتناها حديثًا أهمّ من تلبية الدعوة (لوقا ١٤/ ١٩). ولا تُحرَث الأرض إلاّ بعد أوّل هطول للمطر بسبب قساوة التربة. وقبل إطلاق المحراث، يصلّي الفلاّح ويقول: «يا ربّ، عملي هو الأحمر وعملك الأخضر. أنا أحرث وأنتَ تنمّي الزرع».
وفي رشّ البذار، يحني الفلاّح الفقير ظهره ليدسّ الحبوب في التربة بيده، خشية أن يضيع شيءٌ منها، خصوصًا حين يزرع قمحًا. أمّا الغنيّ وفير الثروة، فيرشّ البذار رشًّا. إنّه الزارع في مَثَل يسوع، الذي يملك فيضًا ولا يبخل به على أحد، حتّى وإن كان رجاء جني الفائدة منه ضئيلًا أو معدومًا (متّى ١٣/ ٣-٨).

□ الصيد

كان لمهنة الصيد أهمّيّة بالغة في أيّام يسوع، لأنّها تؤمّن الغذاء الأساسيّ للناس، ألا وهو السمك. فحين كان يسوع يعظ الناس ومالت الشمس إلى المغيب، بحث التلاميذ عن طعام، فوجدوا طفلًا يحتفظ بزوّادته، وهي خمسة أرغفة من شعير وسمكتان (يوحنّا ٦/ ٩). وفي مرّةٍ أخرى، كانت زوّادة التلاميذ سبعة أرغفة وبعض سمكاتٍ صغار (متّى ١٥/ ٣٤). وعُرِفَ الصيّادون بقواهم الشديدة. فأوائل تلاميذ المسيح منهم (متى ٤/ ١٨-٢٠)، وبعضهم كان قبل ذلك تلميذًا ليوحنّا المعمدان (يوحنّا ١/ ٣٥-٤١). وتنحصر أماكن الصيد في منطقتين: سواحل البحر الأبيض المتوسّط، وبحيرة طبريّة التي تسمّى أيضًا بحر الجليل. ومن شدّة انتشار تلك الحرفة، سُمّيت إحدى المدن باسمها، وهي «بيت صيدا»، أي بيت الصيد. ومجدلة، التي منها مريم المجدليّة، تعني برج السمك، أو السمك المجفّف، لأنّها كانت مركزًا لتجفيف السمك وتمليحه. فبسبب غياب أنظمة التبريد التي نعرفها اليوم، كان السمك يُحفظ ويُصدَّر إلى

المناطق البعيدة مجفّفًا ومملّحًا. وكان الصيّادون يميّزون بين أنواع الملح. فلملح الأرض (الملح الصخريّ) قدرة أكبر على حفظ السمك من الفساد. وإذا لحقت بالملح أضرار خفّفت قوّة ملوحته دُعي ملحًا فاسدًا. وقد استند يسوع إلى معرفة أهل الجليل بالملح، وشبّه مستمعيه به (متّى ٥/١٣).

استعمل الصيّادون نوعين من الشباك: واحدٌ مستدير يرميه الصيّاد ثمّ يسحبه بحبلٍ فيجرّ معه كلّ ما يصادفه من سمك، وهو الذي كان يستعمله سمعان وأندراوس حين دعاهما يسوع (متّى ٤/١٨-٢١)، وآخر عرضه ثلاثة أمتار وطويلٌ جدًّا، له عوّامات فلّينيّة في الأعلى، وكُتل رصاصيّة في الأسفل، وحبال مربوطةٌ إلى طرفيه. يبتعد المركب عن الشاطئ بمقدار طول الحبال، ويُرسِل الشبك في المياه، في حين يسير المركب في نصف دائرة. ويشدّ الصيّادون على الشاطئ الحبال بانسجام بعضهم مع بعضهم الآخر حتّى تصل الشباك إلى الشاطئ. وبعد اصطياد السمك، تبدأ عمليّة الفرز. فالشريعة تحرِّم أكل الأحياء المائيّة عديمة الحراشف والزعانف كالسرطان والكركند والمحار والحنكليس والسلّور. فيعيد الصيّادون تلك الأحياء إلى الماء أو يبيعونها خفيةً للوثنيّين الذين يحبّون أكلها. كانت أدوات الصيد باهظة الثمن وتحتاج إلى عناية وإصلاحٍ دائمين. لذا، كان الصيّادون يعملون شركاء (لوقا ٥/١-١١).

إنّ حرفة الصيد تمنح الإنسان طباعًا قاسية وبأسًا شديدًا. لذا، سمّى يسوع يعقوبَ ويوحنّا ابنَي الرعد (مرقس ٣/١٧). ومكسب تلك الحرفة متقلّب. فتارةً يصيب الصيّادون صيدًا وفيرًا، وتارة أخرى يعودون بالخيبة. وعلى الرغم من أخطار المهنة والإخفاقات الكثيرة، لا يعرف الصيّاد اليأس، بل يغامر ثانيةً وثالثة، ويأمل دومًا اصطياد السمك الكبير والكثير. تلك كانت طباع غالبيّة تلاميذ يسوع، خصوصًا بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنّا، الذين تركوا شباكهم وتبعوا المسيح ليصيروا صيّادي بشر.

□ الحِرَف اليدويّة

بالإضافة إلى الرعي والزراعة والصيد، انتشرت في فلسطين حرف أخرى، ولكنّها قليلة. فصناعة الخبز والحياكة مخصّصة للنساء. كلّ امرأةٍ تطحن وتعجن وتخبز وتحيك وتخيّط لأفراد أسرتها. كان أصحاب الحرف يمشون في الطريق وعلامات حرفهم عليهم. فيضع النجّار البُراية وراء أذنه، والدبّاغ قطعة قماشٍ ملوّنة على كتفه، ويغرز الخيّاط إبرةً عظميّةً كبيرة في ثوبه، ويحمل الكاتب ريشة الكتابة. وتمنع الشريعة أن يضع أصحاب الحِرَف تلك العلامات يوم السبت.

كان الأولاد يرثون مهنة آبائهم. يقول التلمود: «مَن لم يلقّن ابنه حرفة جعله لصًّا». فهناك عائلات صانعي الخيام، مثل بولس الرسول، والإسكافيّين والخزّافين والصاغة والعطّارين والقصّارين والبنّائين والحجّارين والحدّادين والنجّارين، مثل يوسف ويسوع. وكان بعض الحرفيّين يعملون في مكان ثابت في القرية أو المدينة، وبعضهم الآخر جوّالًا، يحمل أدواته على حماره، ويتنقّل من مكانٍ إلى مكان.

ورد في الكتاب المقدّس أنّ يوسف خطيب مريم كان نجّارًا. ويخبرنا التقليد الكنسيّ أنّ يسوع تعلّم منه تلك الحرفة (مرقس ٦/٣). فما الذي كان يصنعه؟ قبل ألفي سنة، كانت حرفة النجارة من المهن الضروريّة للحياة اليوميّة. كتب يشوع بن سيراخ: «هيكل الخشب الموصول في بناءٍ لا يتفكّك بالزلزلة» (٢٢/١٦). وبالإضافة إلى صناعة هياكل البيوت وعوارض السقوف والأبواب والنوافذ وإصلاحها، كان النجّار يصنع المحاريث للزراعة والنير للثيران والمراكب للصيّادين والخزائن وصناديق الثياب والمكاييل... لقد سمحت حرفة النجارة ليسوع بأن يعرف أجواء سائر الحرف معرفة صادقة، وأن يلتقي زبائنه ويتكلّم معهم ويشعر بمعاناتهم، فجاءت أمثاله من صميم حياتهم.

□ التجارة

كتب المؤرّخ اليهوديّ فلافيوس يوسيفس في ردّه على أبيون: «نحن لا نستمتع بحرفة التجارة. إنّنا نسكن أرضًا خصبة، ونفضّل العمل في الزراعة». لا شكّ في أنّ ذلك التصريح مدهش، خصوصًا بعد أن ذكرنا كيف سيطرت جماعات الشتات على التجارة. في الواقع، كان العبرانيّون رعاة. ولم يحترفوا الزراعة إلاّ حين استقرّوا في فلسطين بعد خروجهم من مصر. وكانت التجارة حرفة الكنعانيّين. ففي سفر تثنية الاشتراع، لا نجد أيّ تشريعٍ للتجارة، في حين تعالج القوانين مسائل الرعي والزراعة. وفي أثناء الجلاء إلى بابل، وجد المسبيّون أنفسهم دون أرض، فلم يكن لديهم خيار آخر غير ممارسة حرفة البيع والشراء. فاحترفوها وبرعوا فيها، وبالغوا في ابتكار أساليب كسبٍ تخطّت حدود الأخلاق، ممّا دفع الأنبياء مثل عاموس وهوشع إلى تأنيب التاجر الغشّاش الذي يصغّر القفّة ويكبّر المثقال ويستعين بموازين غش (عاموس ٨/ ٥ وهوشع ١٢/ ٨). وحين عاد الشعب من الجلاء، أقام بعضهم في المدن، واستمرّت فئةٌ منهم في ممارسة تلك الحرفة حتّى أيّام يسوع (يعقوب ٤/ ١٣).

في أيّام يسوع، كما في كثير من مدننا الشرقيّة إلى الآن، كان البيع والشراء يتمّان في السوق المحلّيّة، وهي أرض خلاء، يأتي إليها الفلاّحون في يومٍ معيّنٍ بالأسبوع، أو في عدّة أيّام، فيبيعون الحبوب والتين والخمر والخراف.. . ويشترون من الحرفيّين أو التجّار المنتوجات المصنّعة كأدوات العمل والأحذية والمجوهرات والعطور.. . ويثني التلمود على المنتوجات الصوفيّة لنساء اليهوديّة، والثياب الكتّانيّة لنساء الجليل. وكان السنهدريم المحلّيّ يعيّن مراقبين لهم سلطة مطلقة في مراقبة الموازين والمكاييل وتحديد الأسعار.

بالإضافة إلى الأسواق المحلّيّة، عرفت فلسطين الباعة الجوّالين الذين يتنقّلون من قريةٍ إلى قرية، يضعون بضائعهم على الحمير ويعرضونها

للسكّان. معاطف خمريّة اللون من صيدا وقماشٌ ناعم وخواتم وأساور ذهبيّة وسجّاد... ويحرص الباعة الجوّالون على أن يكونوا في أسواق المدن الكبرى أيّام الاحتفالات والأعياد للبيع والشراء. ويمكن المارّ أن يلاحظ ازدياد عددهم في أورشليم أيّام الفصح، وانتشارهم حول أسوار الهيكل وفي أزقّة المدينة.

وعرفت المدن الكبرى نوعًا آخر من التجارة تتمّ في المحلاّت أو البازارات، خصوصًا في الأسواق الدائمة. إنّها دكاكين صغيرة متراصّة، يقف أصحابها أمامها ويروّجوا بضائعهم ويدعوا المارّة إلى معاينتها أملًا في تعجّبهم فيشتروها. كان التجّار اليهود يتذمّرون من منافسة أمثالهم الوثنيّين. فالبضائع الفينيقيّة أرخص من اليهوديّة، لأنّ صنّاعها لا يُلزَمون بشريعة السبت، ويعملون طوال الأسبوع، فيكون إنتاجهم أوفر. كما أنّ نفقات معيشتهم أقلّ، لأنّهم لا يدفعون ضريبة الهيكل. وبالتالي، يمكنهم أن يبيعوا منتوجاتهم بأسعارٍ رخيصة. لهذا السبب، حاول كثير من معلّمي الشريعة إضفاء صفة النجاسة على المنتوجات الوثنيّة لترويج البضاعة اليهوديّة. فعلى سبيل المثال، كان يهود الشتات لا يشترون إلاّ زيت الزيتون الذي أنتجته أيدٍ يهوديّة، مؤمنين بأنّه زيتٌ طاهر، في حين زيت الوثنيّين نجس. في تلك الأجواء، يمكننا أن نشعر بمقدار استياء الفرّيسيّين، وغالبيّتهم من التجّار والصنّاع، حين تكلّم يسوع على الطاهر والنجس، وحصر مفهوم النجاسة في الأفكار الشرّيرة والسلوك السيّئ (متّى ١٥/ ١٠-٢٠).

لم تكن التجارة مزدهرة بفلسطين في أيّام يسوع كما كانت في الأقاليم الأخرى، بسبب الوضع الاقتصاديّ الصعب وانتشار الفقر. لذا، لم تُستعمل النقود الفضّيّة بكثرة، وشاع التعامل بالعملات البرونزيّة المسكوكة في اليهوديّة. وفي كثيرٍ من الأحيان، تتمّ الصفقات بأسلوب المقايضة. وقد أشار يسوع إلى ذلك حين قال: «كيلاً حسنًا مركومًا مهزهزًا طافحًا، لأنّه يُكال لكم بما تكيلون» (لوقا ٦/ ٣٨).

□ الرأسماليّون

لم تكن كلمة رأسماليّ معروفة في أيّام يسوع. ومع ذلك، كان هناك مَن يتعاملون بالمبالغ الكبيرة، وغالبيّتهم من التجّار والصيارفة. ففي كثيرٍ من الأحيان، يصعب على الفلاّحين، وخصوصًا أصحاب الأراضي، نقل محاصيلهم إلى المدن. فكان تجّار الجملة يشترونها منهم ويبيعونها لصغار التجّار. وغالبًا ما كانوا يستغلّون فقر الفلاّح وعوزه، ويشترون محصوله قبل نضوجه وبسعرٍ زهيد.

لم تنحصر تجارة الجملة في السوق الداخليّة، بل تعدّتها إلى الاستيراد والتصدير. كان تجّار فلسطين يستوردون الخشب والحديد والحرير والتوابل... بالإضافة إلى البخور المُستعمل في الهيكل، وكان يُجلب من حضرموت في اليمن. ويصدّرون القمح والزيت واللحوم والسمك المملّح والفواكه المجفّفة كالتين وقمر الدين والبلح إلى المدن اليونانيّة الساحليّة. ويضيفون إلى تلك القائمة موادّ ثمينة كطيب أريحا والعطور، إذا كان التصدير إلى رومة أو مصر. ويُعدّ الناردين من أثمن العطور، ويؤخذ من عشبة صغيرة شائعة، تُسحَق مقادير وافرة من جذورها لاستخلاص بعض القطرات اليسيرة. ففي إنجيلَي مرقس (١٤/ ٣) ويوحنّا (١٢/ ٣) إشارة إلى «الناردين الخالص الغالي الثمن». وهذا يعني أنّه وجِدَت منه أصناف بخسة. وكتب المؤرّخ اليونانيّ بلينُس أنّ التجّار اليهود حرصوا على تحديد إنتاج العطور للمحافظة على ارتفاع أثمانها. وفي حرب اليهود، سعى اليهود إلى قطع شجيرات العطر كي لا تسقط في يد العدوّ. وذات مرّة، شبّت معركة دامية للاستيلاء على شجيرة منها.

تطلّبت تلك التجارة الضخمة رؤوس أموالٍ كبيرة، ورجالًا يجيدون التعامل بها ويحسنون توظيفها. لذا، ظهرت أهمّيّة الصيارفة. كانت مهمّتهم الأولى تبديل العملات. ففي فلسطين، تتقاطع الطرق التجاريّة، ويختلط الدرهم اليونانيّ بالشيكل اليهوديّ والزوزيم الصوريّ والدينار

الرومانيّ. وعلى الصرّاف أن يكون يقظًا نبيهًا. لذلك يقول القدّيس إكليمنضُس الإسكندريّ: «كونوا كالصيارفة حاذقين، تعرفون اختبار المال فتفضّلون الجيّد منه على الرديء». لأنّ الصرّاف يفحص النقود ويزنها ليتثبّت من صحّتها وخلوّها من التهشيم. ولم ينحصر عمل الصيارفة في تبديل العملات، بل تعدّاه إلى العمل المصرفيّ، أي القروض والفوائد والودائع... ففي مثل الوزنات الذي ضربه يسوع، يؤنّب السيّد عبده الكسلان، الذي دفن وزنته في الأرض وردّها بعد حينٍ كما هي، ويقول له: «كان عليك أن تضع مالي عند أصحاب المصارف، وكنتُ في عودتي أستردّ مالي مع الفائدة» (متّى ٢٥/٢٧).

كان القرض بالفائدة يُعطى محلّيًّا لفلّاحٍ في ضيق أو حرفيّ أو تاجر. وكان يُعطى أيضًا، على المستوى العالميّ، للقوافل التجاريّة البرّيّة أو البحريّة. لذلك نشأت جمعيّات رأسماليّة تموّل التجارة الكبيرة. وكان الصيارفة يتعاملون مع أمثالهم في البلدان الأخرى، فلا يحتاج التاجر أو المسافر إلى حمل المال معه، بل يودعه عند صرّاف مدينة رحيله، ويأخذ منه صكّ أمانة، يسلّمه لصرّاف مدينة وصوله فيتسلّم منه ما أودعه من مال، أو جزءًا منه، وفقًا لرغبته.

□ أخلاقيّات المال والتجارة

قلنا إنّ سفر تثنية الاشتراع لم يذكر شيئًا عن التجارة. لكنّ الأسفار التي دوّنت بعد السبي اهتمّت بأخلاقيّات البيع والشراء ونظّمتها. ورد في سفر يشوع بن سيراخ: «قلّما يتجنّب التاجر الخطأ، والبائع لا يُبرَّر من الخطيئة. كثيرون خطئوا حبًّا للمال، والذي يطلب الغنى يصرف نظَرَه. بين الحجارة المتراصّة يُغرز الوتد وبين البيع والشراء تنسلّ الخطيئة» (٢٦/٢٩-٢٧/١-٢). وتعتمد جميع تشريعات معلّمي الشريعة على وصيّة: «لا تسرق». وتنظّم طريقة كتابة صكوك الأمانة. على الصكّ أن يخلو من التصحيحات أو الكلمات المشطوبة، وأن يُكتَبَ بحبرٍ وعلى ورقٍ معيّنين،

وأن توضع عليه إشارة × لإلغائه. وتعهّد السنهدريم بتحديد أسعار الصرافة في الهيكل والفائدة في بعض الأحيان. وهنا، لا بدّ لنا من طرح السؤال: هل الفائدة مشروعة في الديانة اليهوديّة؟

يقول سفر الخروج: «إذا أقرضتَ فضّةً لأحدٍ من شعبي، لفقير عندك، فلا تكن له كالمرابي، ولا تفرضوا عليه رِبًا» (خروج ٢٢/ ٢٤). ويوضح سفر تثنية الاشتراع تلك الوصيّة ويقول: «لا تقرض أخاك بفائدةٍ من فضّة أو طعام أو أيّ شيء آخر ممّا يُقرَض بالفائدة، بل تقرض القريب بالفائدة. وأمّا أخوك فلا تقرضه بالفائدة...» (تثنية ٢٣/ ٢٠-٢١). إذًا، تحرّم الشريعة الربا. ولكن، كيف تستطيع التجارة أو الصرافة العمل من دون فائدة؟ خصوصًا حين يكون التعامل على المستوى العالميّ؟ في أيّام يسوع، وبمعونة الفرّيسيّين، تمكّن الناس من الاحتيال على تلك الوصيّة. فأمثال يسوع تبيّن أنّ من حقّ الدائن بيع مدينه وكامل أسرته في سوق النخاسة إذا عجز عن سداد الدَّين، ممّا يحقّق للدائن أرباحًا كبيرة، هي بمثابة فوائد مرتفعة لأمواله. وفي أحوال أخرى، كان الدائن يطلب هديّةً من مَدينه قبل تسليمه النقود. والهديّة بمثابة فائدة على المال المقروض. بالإضافة إلى ذلك، وضع المشرّعون أنظمةً تسمح بالفائدة وتمنع الربا. لأنّه، بحسب التلمود، يشبه القتل.

حين نقرأ أمثال يسوع بانتباه، نلاحظ أنّ الديون والفوائد كانت رائجة. فجميع الأمثال لا تذكر كم اقترض المَدين، وإنّما كم عليه أن يدفع (متّى ١٨/ ٢٣-٣٤). ومَثَل العبد الخائن يعرض لنا حالة خاصّة في ذلك الشأن. إنّها حالة الاحتيال على الشريعة وتطبيقها بحسب مزاج كلّ واحد. فكيف يتمّ ذلك؟

حاول المشرّعون أن يظلّوا أوفياء لما ورد في سفرَي الخروج والتثنية، وأن ينظّموا في الآن نفسه مسألة القروض وفوائدها. فأصبحت الفائدة تجوز على مَن يقترض ليوسّع تجارته أو زراعته أو صناعته، ولا تجوز على المَدين المعوز، أي الذي يعاني فاقة. وكان الزيت والقمح من

الموادّ التي تُقرض دومًا مع الفائدة. لأنّ مَن يقترضها يملك دون شكّ حفنةً من الدقيق على الأقلّ لصناعة الخبز أو قليلًا من الزيت لإشعال المصباح أو الأكل. إذًا، هو لا يقترض الزيت أو القمح لأنّه في عوز، بل ليزيد ما عنده. وكانت فوائد القمح تصل إلى ٢٥٪ لأنّه يمكن أن يكون القمح المردود من نوعيّة أدنى من المقترَض. أمّا فوائد الزيت فتصل إلى ١٠٠٪ للسبب السابق نفسه، بالإضافة إلى إمكانيّة غشّ الزيت بموادّ أخرى. فالوكيل الخائن في الإنجيل (لوقا ١٦/ ١-٨) كان يقرض الناس بتلك الطريقة، لأنّ الوكيل يتمتّع بالحرّيّة الكاملة في التصرّف بأموال سيّده. لكنّه، حين شعر بالخطر، أزال الفائدة عن المَدينين وغيّر صكوك الدَين، وجعلها تتوافق مع الشريعة.

لم تُطبّق تحريمات الفوائد على غير اليهود، لأنّ سفر التثنية يسمح بفرض الربا عليهم. إنّه علامة بركة الله لشعبه: «فإذا باركك الربّ إلهك كما قال لك، تقرض أممًا كثيرة وأنت لا تقترض، وتتسلّط على أممٍ كثيرة وهي لا تتسلّط عليك» (تثنية ١٥/ ٦). وسمح معلّمو الشريعة بفرضِ الربا حتّى على الذين يتّقون الله، أي يعيشون بحسب شريعة اليهود ويؤمنون بالإله الواحد، لكنّهم أصحاب قُلَف، أي غير مختونين. فإن قَبِلَ واحدهم الختان، يقول له دائنه: «لن يكون للمال الذي اقترضتَه منّي فائدة».

هل طبّق الأغنياء شرائع الربا في أيّام يسوع؟ لا ندري! كلّ ما نعرفه هو أنّ الشريعة كانت متساهلة، أو شبه صامتة، حين يتعلّق الأمر بالتعامل مع الأجانب، حتّى إنّها سمحت لليهود بتجارة الخنازير، أي «أن يشتري (اليهوديّ) الخنازير من مربٍّ نجس، ويبيعها لوثنيٍّ نجس» كما يقول التلمود. وقبلت الشريعة بأن ينمّي اليهوديّ ثروته في النخاسة، وأن يشارك أهل صيدا في تجارة العبيد. ولاحظ يسوع انحلال الأخلاق في التجارة وتراخي معلّمي الشريعة، فنادى بإعفاء الديون والسعي إلى جمع الكنوز في السماء وعدم عبادة المال (متّى ٦/ ١٩-٢١).



القراءة والكتابة

□ لغة يسوع

لم يتكلّم يسوع العبريّة مثل اليهود في أيّامنا، لأنّ تلك اللغة مستحدَثة، وضع أسسها بن يهوذا، أحد قادة الصهاينة في عصرنا، وفرضها على الجماعات الصهيونيّة في سبيل خلق رباط وحدةٍ بينهم. أمّا في قديم الزمان، حين وصل إبراهيم إلى فلسطين، فكان يتكلّم وأهل بيته لغةً تشبه البابليّة. وبعد الخروج من مصر، تكلّم العبرانيّون لغة الكنعانيّين سكّان فلسطين، لأنّها أدقّ وأكثر تطوّرًا. وهي ما نسمّيه اللغة العبريّة. إنّها لغة غالبيّة أسفار العهد القديم. وفي الجلاء إلى بابل، وجد المسبيّون أنّ سكّان ما بين النهرين يتكلّمون لغةً قريبة من لغتهم وهي الآراميّة. فتكلّموها في حياتهم اليوميّة، ولم تعد العبريّة مستعملة إلاّ في النصوص المقدّسة، وأصبحت «لغةً مقدّسة» أو «لغة العلماء».

كانت الآراميّة لغة البدو الرحّل الذين يتنقّلون في الهلال الخصيب، والذين أسّسوا ممالك لم تدم طويلًا. ولأسبابٍ نجهلها، لم تنقرض لغتهم مع زوال مملكاتهم، بل انتشرت حتّى أصبحت لغة غالبيّة سكّان أراضي الشرق الأوسط، أي من البحر الأبيض المتوسّط إلى إيران، ومن منابع الفرات إلى الخليج العربيّ. وجعلها ملوك الفرس لغة البلاط. العجيب في الأمر هو أنّ الآراميّة كانت لغة الطبقة الأرستقراطيّة في القرن الرابع قبل الميلاد. أمّا الشعب فيتكلّم العبريّة (٢ ملوك ١٨/٢٦). وفي أيّام يسوع، نجد أنّ الآراميّة أصبحت لغة العامّة، في حين كانت العبريّة لغة الخاصّة.

ما هو سبب ذلك التغيير؟ ربّما لأنّ اللغة الآراميّة تفوق العبريّة تطوّرًا ومرونةً وقدرةً على التعبير.

كان يهود فلسطين يتكلّمون الآراميّة، ويقرأون الكتب المقدّسة بالعبريّة. وفي مدارس التعليم الدينيّ، يتعلّم الأطفال قراءة اللغة المقدّسة، ويحفظون الصلوات باللغتين العبريّة والآراميّة. لهذا السبب، نجد كلماتٍ آراميّة في أماكن كثيرة من العهد الجديد، بعضها ترجمة حرفيّة لآياتٍ من العهد القديم مثل: «إيلوي إيلوي لمّا شبقتاني» (مرقس ١٥/ ٣٤). إنّها الترجمة الآراميّة للآية الثانية من المزمور ٢٢ «إلهي إلهي لماذا تركتَني». وبعضها الآخر يشير إلى أنّ يسوع تكلّم الآراميّة: «طليثا قوم»، أي يا صبيّة قومي (مرقس ٥/ ٤١). «إفّاتا»، أي انفتح (مرقس ٧/ ٣٤). «حقل دمخ»، أي حقل الدم (أعمال ١/ ١٩). «الجلجثة»، أي موضع الجمجمة (متّى ٣٣/٢٧). وقد حافظ الإنجيليّون على تلك الكلمات في نصوصهم اليونانيّة لقوّة تعبيرها.

بالإضافة إلى الآراميّة والعبريّة، انتشرت في فلسطين اللغة اليونانيّة. إنّها لغة التجارة والدبلوماسيّة والفكر. وكان موظّفو الإدارة الرومانيّة في المنطقة يتكلّمونها. ويبدو أنّ يسوع تكلّمها أيضًا، فهي اللغة السائدة في الجليل حيث شبّ وترعرع، بسبب كثرة الأجانب فيه. ألم يُطلق عليه اسم «جليل الأمم»؟ ولم تذكر الأناجيل وجود ترجمانٍ حين مَثُلَ أمام بيلاطُس، ولا نظنّ أنّ حاكم اليهوديّة أجهد نفسه ليتعلّم العبريّة أو الآراميّة. وعلى الصليب، أمر بيلاطُس بكتابة عبارة: «يسوع الناصريّ ملك اليهود» بجميع اللغات المستعملة في البلد، أي العبريّة والآراميّة واليونانيّة، وبلغة الإدارة الرومانيّة، أي اللاتينيّة (يوحنّا ١٩/ ٢٠). كانت اليونانيّة لغة التجارة والطبقات الأرستقراطيّة. وحاول معلّمو الشريعة منع انتشارها، لكي لا تتسرّب العادات اليونانيّة الوثنيّة إلى الشعب اليهوديّ، فقالوا: «مَن علّم أبناءه اليونانيّة فهو شرّ ممّن يطعمهم لحم الخنزير».

□ الكتابة

لم يعتد الناس نشر التعاليم الدينيّة كتابةً في أيّام يسوع، بل كانوا ينقلون الأخبار والأفكار شفويًّا. ولم يأخذ العهد القديم قالبه الذي نعرفه اليوم إلاّ في القرن الرابع قبل الميلاد، حين قام الكاهن عزرا بجمع المخطوطات المبعثرة وتدوين النصوص الشفويّة. كما لم يسعَ يسوع في حياته إلى تدوين وصاياه وتعاليمه. وكان التلاميذ يفضّلون التعليم الشفويّ على الكتابة. فالقدّيس يوحنّا الإنجيليّ يقول في إحدى رسائله: «عندي أشياء كثيرة أكتب بها إليكم، فما أردتُ أن أجعلها ورقًا وحبرًا، لكنّي أرجو أن آتيكم فأشافهكم ليكون فرحنا تامًّا» (٣ يوحنّا ١/١٣). لذا، لم تُكتب تعاليم المسيح والرسل إلاّ عندما انتشرت المسيحيّة في العالم اليونانيّ الرومانيّ، الذي لم يعتد التقليد الشفويّ. ومع ذلك، يقول القدّيس إيريناوس، أسقف مدينة ليون الفرنسيّة، في أواسط القرن الثاني، إنّه يتذكّر أيّام كان يسمع القدّيس بوليقربس، أسقف إزمير، وهو يروي ما سمعه من يوحنّا الإنجيليّ.

وعلى الرغم من أهمّيّة التعليم الشفويّ في أيّام يسوع، اهتمّ اليهود كثيرًا بالكتاب والكتابة، حتّى إنّ الشعوب الأخرى أطلقت عليهم لقب «أهل الكتاب». فالنصوص المكتوبة تنظّم حياتهم وتملي عليهم سلوكهم. وتكوّنت بين الشعب طبقةٌ اسمها الكتَبَة، مهمّتها نسخ النصوص المقدّسة وتعلّم ما هو مدوَّنٌ فيها. بالإضافة إلى ذلك، يشعر مَن يتصفّح الأناجيل بأنّ غالبيّة الناس كانت تجيد القراءة وتحسن الكتابة. ففي مَثَل الوكيل الخائن، يسأل ذلك الرجل الفطِن مديني سيّده أن يجلسوا ويكتبوا صكوك ديونٍ أخرى بكمّيّاتٍ أقلّ من الكمّيّات السابقة (لوقا ١٦/٦-٧). وكتب زكريّا على لوحٍ أنّه يريد تسمية ابنه يوحنّا، لأنّه أصيب بالبكم (لوقا ١/ ٦٣). وتكلّم يسوع على الحرف أو النقطة التي لن تزول من الشريعة حتّى يتمّ كلّ شيء (متّى ٥/١٧-١٨). وفي كثيرٍ من المرّات، كان يُدفع إليه الكتاب في المجمع، فيقرأ فيه النبوءات ويشرحها (لوقا ٤/١٦-١٧). فإذا

أخذنا في عين الاعتبار تعجّب أهل بلدته الناصرة من تعاليمه وقولهم: «من أين له هذا؟... أليس هذا النجّار ابن مريم؟» (مرقس ٦/ ٢-٣)، يمكننا الاستنتاج أنّ عامّة الشعب كانت تقرأ وتكتب. أمّا شرح الأسفار المقدّسة فهو من اختصاص المعلّمين فقط. ولعلّ سبب عدم أمّيّة الشعب هو أنّ اللغتين الآراميّة والعبريّة تكتبان بالحروف نفسها، أي مثل ما نعرفه عن السريانيّة والكرشونيّة. فالكرشونيّة هي اللغة العربيّة مكتوبة بحروفٍ سريانيّة.

لم يستعمل سكّان فلسطين ألواح الفخّار للكتابة مثل أهل ما بين النهرين والحثّيين، بل استخدموا ألواح الخشب المطليّة بالشمع على غرار جميع سكّان حوض البحر الأبيض المتوسّط. كانوا يكتبون عليها بأداة كتابة Stylus من العظم أو البرونز أو الفضّة، أحد رأسيها مدبّب والآخر مسطّح لمحو الكتابة وذلك بتسوية الشمع به. ولعلّ سفر الرؤيا يشير إلى ذلك الاستعمال حين يقول صاحب أرواح الله السبعة والكواكب السبعة: «ولن أمحو اسمه من سفر الحياة» (رؤيا ٣/ ٥). واستُعملت جلود الحيوانات لكتابة النصوص الطويلة. فكلمة «سفر» في اللغة العبريّة، التي تعني «كتاب»، مشتقّة من كلمة رقّ. لأنّ الكتاب يُدوّن على «رِقٍّ مكشوط». كان الناس يكتبون على جلود الغنم والماعز أو الغزلان. واشتهرت آسية الصغرى بصناعتها. فالقدّيس بولس الرسول يوصي تلميذه طيموتاوس بأن يُحضِرَ له «الكتب وخصوصًا صحف الرقّ» (٢ طيموتاوس ٤/ ١٣). ولمّا كان الرِقّ غالي الثمن، دأب الناس على فصل وجهه الداخليّ عن الخارجيّ. والوجه الخارجيّ أرخص من الداخليّ لأنّه أخشن وأسمك. ويوصي معلّمو الشريعة بأن تُكتب النصوص المقدّسة على جلودٍ غير مكشوطة، أي لها وجهها الداخليّ والخارجيّ.

بالإضافة إلى الرقّ، شاع استعمال ورق البردي المصنوع في مصر. ولمّا كان غالي الثمن، كان الناس يغسلونه أو يكشطونه، ليزيلوا الحبر عنه ويستعملوه مرّةً أخرى. ويبدو أنّ أوراق البردي القديمة المهترئة استُعمِلَت

في تغليف الأشياء. فشريعة السبت تحرّم نقل أوراق بردي قديمة كمّيّتها أكثر ممّا يكفي للفّ قارورة زيت. وتشير التنقيبات الأثريّة إلى أنّ أوراق البردي استُعملت أيضًا لكتابة النصوص المقدّسة. واستعمل الناس القصبة («القلم») للكتابة على أوراق البردي أو جلود الحيوانات. كانوا يبترون القصبة من أحد طرفيها بشكلٍ مائل ويشقّونها طوليًّا إلى قسمين. أمّا الحبر، فهو خليطٌ من سواد الدخان والصمغ. ويُحفَظ جافًّا، ويميّع بالماء عند استعماله.

حين يُكتَب نصٌّ طويل، تُخاط أطراف الرقّ مع رقٍّ آخر، فيتكوّن شريط طويل يُلفّ على عصا أسطوانيّة أو عَصَوَين. لهذا سُمّيَت لُفافة. وفي بعض الأحيان، يصل طول بعض اللفافات إلى ٤٠ مترًا. وفي أثناء القراءة، يُلَفّ بعصا اليمين ما قُرِئ ويُفرَد بعصا الشمال ما لم يُقرأ. ذلك هو التشبيه الذي يستعمله سفر الرؤيا حين يقول: «والسماء قد طويَت طيّ السِفر» (٦/ ١٤). ويُغلَّف المخطوط بقماشٍ لحمايته. فإن كان يحوي نصًّا مقدّسًا، يُغلَّف بقطعة كتّانٍ مطرّزة بالأزرق الفاتح، ويوضع في جِرار خاصّة. فتشبه المكتبة غرفة المؤونة.

كان الكتَبة ينسخون النصوص المقدّسة تمامًا كما هي. فإن لاحظوا وجود خطأ في النسخة الأصليّة، حافظوا عليه وأخبروا الكهنة ليبتّوا في أمره. وكانوا يتركون مكان اسم الله المقدّس فارغًا، فيأتي كاتبٌ آخر قام بكامل طقوس الطهارة والوضوء، ويكتب الاسم بحبرٍ من لونٍ آخر. بفضل تلك الطريقة، ينتبه القارئ إلى الاسم المقدّس في أثناء القراءة، فيمتنع عن لفظه ويقول: «الربّ» (أدوناي) بدل «الله» (يهوه). فالشريعة تحرّم لفظ الاسم المقدّس. وحين يسبّح المؤمن ربّه، لا يقول: «هلّلوا ليهوه»، بل يبتر الاسم المقدّس ويقول: «هلّلوا ليه». وهي عبارة مُستعملة بوفرة في كثيرٍ من الليترجيّات المسيحيّة إلى يومنا هذا. ولم يكن باستطاعة أيّ إنسانٍ أن يحصل على نسخة من الكتاب المقدّس بكامله. أمّا سفر إستير، فنجده في كلّ بيت، لأنّه يجب على الأسرة أن تقرأه في عيد «فوريم».

الآداب والعلوم والفنون

□ الأدب المقدّس

يقول المؤرّخ اليهوديّ فلافيوس يوسيفس: «ليس لدينا، نحن اليهود، عدد كبير من الكتب المتناقضة مثل اليونانيّين، بل اثنان وعشرون كتابًا فقط، تحوي كلّ شيء، ويثق بها الجميع ثقةً كاملة». تلك هي مزية أهل الكتاب الذين لا يؤلّفون الكتب. إنّهم شعبٌ تشرح كتبُه علّة وجوده وتنظّم حياته. لكنّه يحتقر مختلف أنواع الأدب. فإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت غالبيّة الناس تجيد القراءة، فما الذي كانوا يقرأونه؟ الجواب عن هذا السؤال سهلٌ جدًّا: كانوا يقرأون الكتاب المقدّس، أي ما نسمّيه العهد القديم، تمامًا مثل المسيحيّين الأوّلين الذين لم يملّوا من سماع قصّة الإله المتجسّد وقراءتها وشرح معانيها ومغزى تعاليم يسوع.

رفض اليهود الأتقياء آداب الشعوب الأخرى بسبب صبغتها الوثنيّة وخلوّها من الأخلاق. ففي ذلك العصر، كان الدين والأدب متّحدين اتّحادًا وثيقًا، بالإضافة إلى أنّ كتاب العهد القديم يحوي أنماطًا أدبيّة متنوّعة. ففيه الأدب القصصيّ والشعر والحِكَم والتاريخ والأخلاق والتصوّف والملاحم والأساطير والأناشيد الروحيّة والعاطفيّة. إنّه موسوعة ضخمة من التراث الأدبيّ، يمكنها أن تروي ظمأ مَن يميل إلى الآداب وفنون الكتابة والشعر. لقد تعمّق اليهود في معرفة ما يحويه كتابهم المقدّس. وأصبحت أسماءٌ مثل نحوم وحبقوق وصفنيا وميخا، التي لا معنى لها بالنسبة إلى غالبيّة مسيحيّي اليوم، ذائعة الصيت في أيّام يسوع.

كان الشعب يعرف أنبياءه حقّ المعرفة، لأنّه قرأ حياتهم وتعاليمهم مرارًا وتكرارًا. ومع ذلك، لا يمكننا أن نقول إنّ اليهود امتنعوا عن الكتابة، أو أنّ مطالعاتهم لم تتعدَّ مجموعة كتب العهد القديم، بل إنّ غالبيّة إنتاجهم الأدبيّ كان مُستوحى من النصوص المقدّسة ومسخّر لخدمتها.

من أهمّ الكتب الأدبيّة التي ليست من كتب العهد القديم، يمكننا ذكر التلمود، وهو مجموعة تعاليم معلّمي الشريعة. وكذلك الترجوم «الترجمة»، وهو ترجمة آراميّة للنصوص المقدّسة العبريّة مع شيءٍ من التصرّف. فعبارة: «إلوي إلوي لمّا شبقتاني» التي قالها يسوع على الصليب هي ترجمة ترجوم الآية الثانية من المزمور ٢٢ (مرقس ١٥/ ٣٤). وهناك أيضًا المدراش (أي الدراسة) الذي يشرح جميع الأمور المخفيّة أو الغامضة في التوراة، ويستنبط منها التعاليم الروحيّة والأخلاقيّة. ومن أساليب المدراش واحدٌ يسعى إلى البحث في الكتب المقدّسة لتبيان النبوءات التي يُظهر الحاضر أنّها تتمّ. ويُدعى هذا الأسلوب: «البِشر». وقد اعتمد معلّمو الشريعة والكتبة عليه للإجابة عن سؤال هيرودُس الكبير «أين يولد المسيح» (متّى ٢/ ٤). وهو أيضًا أسلوب غالبيّة الإنجيليّين الذين أظهروا أنّ حياة المسيح تتمّم الكتب. فيوحنّا يعلّل عدم كسر ساقَي يسوع المصلوب ويقول: «فقد كان هذا ليتمّ الكتاب» (يوحنّا ١٩/ ٣٦). بالإضافة إلى تلك الكتب، يمكننا ذكر جميع النصوص غير القانونيّة التي لم تظهر في قائمة الكتب المُلهمَة مثل المزامير التي عُثِرَ عليها في البحر الأحمر وسرّ أخنوخ وصعود أشعيا إلى السماء، وصعود موسى، وحياة آدم وحوّاء. . . أمّا الأسفار القانونيّة الثانية[1]، أو الأسفار التي ظهرت في نُسخ العهد القديم اليونانيّة، المعروفة باسم الترجمة السبعينيّة، فكانت من أسفار الكتاب المقدّس في أيّام يسوع، يقرأها الناس كما يقرأون الأسفار

---

(١) الأسفار القانونيّة الثانية بحسب الترجمة العربيّة المشتركة هي: طوبيّا، يهوديت، الحكمة، يشوع بن سيراخ، باروك، رسالة إرميا، المكّابيّون الأوّل والثاني، وأجزاء من سفرَي إستير ودانيال.

القانونيّة الأولى. لأنّ اليهود لم يثبّتوا لائحة الأسفار المقدّسة التسعة والثلاثين إلاّ في العام ٩٠م.

وأضاف كثيرون فصولًا إلى أسفار عزرا وباروك والمكّابيّين، أو نسبوا إلى سليمان مزامير معادية للرومانيّين. وفي الإسكندريّة، أضاف اليهود إلى كتبهم نبوءات وثنيّة حوّروها وجعلوها تعبّر عمّا يريدون قوله للوثنيّين. إذًا، كان لليهود إنتاج أدبيّ وفير، لكنّه لم يخرج عن النطاق الدينيّ. ولعلّ أكثر الأساليب الأدبيّة انتشارًا في أيّام يسوع هو الأسلوب الجلّيانيّ[٢]، وهو أسلوبٌ غريبٌ جدًّا، تنال فيه شخصيّة كتابيّة شهيرة رؤًى تعرف منها ما سيجري في المستقبل. كان معاصرو يسوع يُقبلون بنهم على قراءة كتب ذلك الأسلوب، وينتظرون الدمار والخراب وانقلاب الأوضاع بفارغ الصبر. وقد طرق يسوع موضوع آخر الأزمنة، لكنّه حذّر تلاميذه من المضلّين الذين يدّعون معرفة موعد نهاية العالم (متّى ٢٤/٢٩-٤٤).

□ الخطابة

ذكرنا في الفصل السابق دور التقليد الشفويّ في نقل المعلومات والأفكار. لذا، كان لا بدّ للأدب أن يرتبط بالخطابة. فالكتبة ومعلّمو الشريعة خطباء أيضًا، يتكلّمون أمام الجموع في الساحات والأزقّة ورواق الهيكل في أورشليم. فإذا افتقر المعلّم إلى إحدى أسس الخطابة، كوضوح التعبير أو قوّة الصوت، وقف بجانبه مردّدٌ ينقل إلى الناس ما يودّ معلّمه أن يقوله. ربّما هذا ما عناه يسوع حين قال: «الذي تسمعونه يُهمَس في آذانكم، نادوا به على السطوح» (متّى ١٠/٢٧). ولا شكّ في أنّ يسوع كان من خيرة الخطباء، يتمتّع بكلّ إمكانيّات الخطيب المفوّه، ويتكلّم في جميع المستويات، ويعرف كيف يغيّر نبرة صوته، ويؤقلم تعابيره ليتنقّل في

---

(٢) يُدعى هذا الأسلوب في اليونانيّة «أبوكاليبتين»، أي حسر الستار لإظهار ما هو خفيّ. والجلّيانيّ كلمة مشتقّة من جلى ينجلي، ويمكنها أن تكون ترجمة مناسبة لاسم ذلك الأسلوب. وسفر الرؤيا هو خير مثال على الأدب الجلّيانيّ.

تعليمه من العنف إلى الإقناع ومن الصرامة إلى العطف ومن الحزن إلى الفرح. وكان يوحنّا المعمدان خطيبًا أيضًا. فالعبارات القليلة التي وصلتنا منه تؤثّر فينا أيّما تأثير. ولولا براعة القدّيس بولس في الخطابة لما بلغ ما أصابه من نجاح في عمله الرسوليّ.

كانت طريقة العبرانيّين في الخطابة تختلف عن طريقة اليونانيّين أصحاب الفكر الفلسفيّ، أي ترتيب الأفكار وذكر البراهين المنطقيّة وكلّ ما كتبه شيشرون في أساسيّات فنّ الخطابة. فاليونانيّون يسعون في كلامهم إلى الإقناع العقليّ المنطقيّ، في حين يسعى العبرانيّون إلى إثارة مشاعر المستمعين وأحاسيسهم. ويستعمل الخطيب العبرانيّ المفوّه أساليب المقارنة والتشبيه والجناس والمجاز والصور البيانيّة، ويكرّر الكلمات الهامّة بين الجملة والجملة، ولا يتردّد عن إدخال بعض القوافي بإيقاع يشبه الشعر. وتظهر جميع تلك الأمور في تعاليم يسوع. فقد تكلّم على الملكوت بالتشبيه: «مَثَلُ ملكوت الله كمَثَل...». وقارن بين الإنسان وزهور الحقل وطيور السماء ليوضح رعاية الله للبشر. وكرّر بعض العبارات في مثل الزارع وعمّال الساعة الأخيرة والوزنات والوليمة والدينونة الأخيرة. واستعمل إيقاع القوافي في تأنيب الكتبة والفرّيسيّين (متّى ٢٣/١٣-٢٢) والتطويبات. أمّا موعظته على الجبل (متّى ٥،٦) فهي تعجّ بأساليب المجاز والصور البيانيّة والجناس.

يتّصف الخطيب العبرانيّ القدير أيضًا بقدرته على الإكثار من سرد آيات الكتاب المقدّس أو التلميح إليها. فيدرك سامعوه مباشرةً ما يعنيه في قوله. فحين سُئل يوحنّا المعمدان عن هويّته صاح: «أنا صوت منادٍ في البرّيّة، أعدّوا طريق الربّ واجعلوا سبله قويمة» (متّى ٣/٣)، مكرّرًا ما قاله أشعيا النبيّ (أشعيا ٤٠/٣). ويلجأ الخطباء أيضًا إلى الأمثال ليسهّلوا فهم مسألةٍ معقّدة. فقبل مائة سنة من المسيح، اشتهر رابي بير بأمثاله التي وصل عددها إلى ٣٠٠٠ مثل، وكان للثعلب فيها دور البطولة. ويحوي التلمود مئات الأمثال، منها ما هو عجيبٌ غريب. فلكي يشرح التلمود

سبب وجود الأبرار والأشرار في العالم، شبّه أحد شرّاح قصّة الخلق الله برجلٍ يمزج الماء المغليّ بالماء المتجمّد، ويضعهما في حوضٍ قبل أن يملأ جرّته مخافة أن ينكسر فخّارها.

تحجّرت الأمثال في أيّام يسوع بعض الشيء، وأصبح معلّمو الشريعة يكرّرونها على الدوام. ولا شكّ أنّ يسوع عرف بعضًا منها وردّدها مُدخلًا عليها تعديلاتٍ طفيفة أو جذريّة. ففي التلمود نجد أمثالًا تشبه أمثال المتخلّفين عن الوليمة (متّى ٢٢/١-١٤) والعذارى العشر (متّى ٢٥/١-١٣). كما أنّ يسوع ذكر أمثالًا شعبيّة مثل «يا طبيب اشفِ نفسك» (لوقا ٤/٢٣) أو «ليس ما يدخل الفم ينجّس الإنسان» (متّى ١٥/١١). نلاحظ هنا أنّ لكلمة مَثَل نمطَين أدبيَّين: الأوّل قصّة حكميّة، والثاني عبارة حكميّة. والنمط الأوّل أساس للنمط الثاني. فحين يقول العربيّ في إنسانٍ «على نفسها جنَت براقش»، يفهم سامعه أنّ ذلك الإنسان تهوّر في تصرّفه، فجلب الأذيّة إلى نفسه. لكنّ العبارة هي خلاصة قصّة حكميّة تروي حكاية شاةٍ آذت نفسها بفضولها. وكذلك الأمر حين نقول: «عاد بخفّي حنين».

تختلف أمثال يسوع عن أمثال التلمود في جديد معانيها. فلمثل عمّال الساعة الأخيرة شبيه في التلمود. لكنّه يردّ على احتجاجات عمّال الساعة الأولى بقوله: «إنّ العامل الأخير أنجز في ساعتين أكثر منكم سحابة النهار»، أي إنّه يتمسّك بقوانين المجتمع بدل أن يهتمّ بالإنسان وحاجاته. وكانت أمثال يسوع بسيطة ودقيقة ولا تعيد إخبار ما هو معروف أو مسلّم به. ولا مثيل لها في أعمال الرسل أو الأناجيل المنحولة. وهي تروي أبسط أمور الحياة اليوميّة، لتظهر من خلالها أرفع المفاهيم السماويّة. إنّها لا تروي حكاياتٍ على لسان الحيوانات، بل تسرد وقائع يمكن لأيّ فردٍ أن يقوم بها. فيفهمها الجاهل مباشرةً، ويشعر العالِم بعمق معانيها وضرورة تأمّلها لسبر غورها. وعلى الرغم من بساطة أسلوب روايتها، تفوق في قدرتها على تحريك المشاعر أكثر النصوص الأدبيّة جمالًا. إنّها تدهش ولا تُقنع إلاّ مَن يصغي إليها بصفاء نيّة واستقبالٍ خالٍ من الأحكام

المسبقة ورغبةٍ في التعلّم منها والاقتداء بها. ألا يتضايق الإنسان العاديّ من عبارة «مَن لطمَكَ على خدّك الأيمن فاعرض له الآخر» (متّى ٥/ ٣٩)؟ أو يتعجّب من جفاء العذارى الحكيمات تجاه رفيقاتهنّ (متّى ٢٥/ ١-١٣)؟ أو يدهش حين يعلم أنّ الراعي ترك الـ ٩٩ خروفًا وذهب يبحث عن الخروف الضالّ، ولا يعود حتّى يجده (متّى ١٨/ ١٢-١٤)؟

لقد أدرك يسوع اختلاف أمثاله عمّا تعوّد الشعب سماعه، فشرحها أحيانًا، وأنهاها في أحيانٍ أخرى بعبارة «مَن له أذنان للسماع فليسمع». وبعد القيامة، أدرك التلاميذ اختلاف أمثال معلّمهم عمّا هو معروفٌ أو متعارف عليه. ففهموا أنّ يسوع ليس معلّمًا في إسرائيل مثل مئات المعلّمين الذين تغصّ أورشليم بهم، بل أعظم من ذلك. إنّه مسيح الربّ.

□ الموسيقى

للموسيقى أهمّيّة كبيرة في حياة الفلسطينيّين أيّام يسوع. فسفر يشوع ابن سيراخ يوصي الشيخ ألاّ يمنع الطرب (٣٢/ ٣). والملائكة رنّمت تجسّد كلمة الله حين ظهرت للرعاة الساهرين ليلة الميلاد. ويعتقد العبرانيّون، مثل سائر الشعوب القديمة، أنّ للموسيقى والرقص أصلًا إلهيًّا. فمنذ بداية البشريّة، ظهر يوبَل أبو كلّ عازفٍ بالكنّارة والمزمار (تكوين ٤/ ٢١). ويشير الكتاب المقدّس في أكثر من مكانٍ إلى العلاقة بين الموسيقى والصلاة، خصوصًا صلاة التسبيح. والمزامير تشير إلى تلك الصلة (مزمور ١٤٧/ ١ و١٥٠/ ٣-٥). وروح الربّ حلّ على أليشاع حين عزف العوّاد (٢ ملوك ٣/ ١٥). وكان داوُد الشابّ يعزف بالكنّارة لتهدأ نفس الملك (١ صموئيل ١٦/ ١٦).

لم تكن الموسيقى مقتصرة على الأفراح والمناسبات السعيدة فقط، بل درجت أيضًا عادة استدعاء الزمّارين والنادبات في المآتم. فحين ذهب يسوع إلى بيت يائير ليشفي ابنته، يخبرنا الإنجيليّ أنّه وجد هناك الزمّارين (متّى ٩/ ٢٣). ففي ذلك الوقت، لم تكن جنازةٌ لتخلو من الموسيقيّين.

وأفقرها تدعو نادبة وزمّارَين على الأقلّ.

في فلسطين، كان يُعلَن بدء السبت وأيّام الأعياد الكبرى وساعات الصلاة بصوت البوق. وعددٌ من مقاطع الكتاب المقدّس لا تُتلى إلاّ ترنيمًا، مثل نشيد الأناشيد في الأعراس، ومزامير الصعود إلى أورشليم في الحجّ. وفي الكتاب المقدّس، يُشار في بداية كثيرٍ من المزامير إلى اللحن الذي تُرنَّم به: «على لحن السوسن (مزمور ٤٥)... على لحن العذارى (مزمور ٤٦)...» أو الآلات الواجب استعمالها وطبقة الصوت: «على ذوات الأوتار (مزمور ٥٤)، بصوتٍ خافت (مزمور ٥٧)، نشيد (مزمور ٦٨)». وفي الهيكل لاويّون متخصّصون بالعزف. ويخبرنا فلافيوس يوسيفس أنّهم طالبوا بحقّ ارتداء الأفود مثل الكهنة، ووافق هيرودُس أغريبا الثاني على طلبهم. وكان المسيحيّون الأوائل يعيرون الغناء والترنيم أهمّيّة كبيرة في صلواتهم. لذلك كتب القدّيس بولس إلى مسيحيّي قولُسّي وأوصاهم قال: «رتّلوا من صميم قلوبكم شاكرين بمزامير وتسابيح وأناشيد روحيّة» (قولُسّي ٣/١٦).

□ العلوم المقدّسة

اتّخذ العبرانيّون من الكتاب المقدّس قاعدةً أساسيّة لجميع العلوم. وبرز الحكماء في المعارف الدينيّة. فالحكمة، كما يقول كتاب الأمثال، «الربّ خلقني أولى طرقه» (أمثال ٨/٢٢). لذا، لم تعتمد الأبحاث العلميّة على العقل، بل على الاستنباط من النصوص المقدّسة لمعرفة أصل العالم وبنيته. وأصبح كلّ سعيٍ إلى المعرفة من دون الكتاب المقدّس خطيئة، تشبه سعي آدم وحوّاء إلى معرفة من الخير والشر. والكتاب المقدّس في نظر اليهود كتاب علميّ وروحيّ في آنٍ واحد. ويقول معلّمو الشريعة إنّ المرء يحتاج إلى ٥٠٠ سنة ليقطع المسافة بين الأرض والسماء التي نراها. ويحتاج إلى المدّة نفسها ليصل إلى السماء الثانية، وهكذا حتّى السماء السابعة. فالله خلق سبع سموات. كيف نعرف ذلك؟ لأنّ

الكتاب المقدّس يستعمل سبعة أسماء لتسمية السماء. ويشير القدّيس بولس في رسائله إلى ذلك الأمر حين يستعمل كلمة السموات بالجمع، أو يتكلّم على السماء الثالثة (٢ قورنتس ١٢/ ٢)، أو على المكان الذي فوق السموات (أفسس ٤/ ١٠). وتتألّف الأرض من سبع طبقات. يقول تقليدٌ يهوديّ قديم إنّ الهيكل في أورشليم يحوي الحجر الذي ألقاه الربّ من السماء في المياه الأولى لتتكوّن الأرض. وهناك خطٌّ خفيّ يحيط بالكون ويفصل النور عن الظلمة. إنّه حبل الخواء ومقياس تسوية الخلاء الذي يذكره أشعيا (٣٤/ ١١). وشكل الأرض كالقرص، تحيط بها المياه من كلّ جانب، ويجلس الله على قبّتها (أشعيا ٤٠/ ٢٢).

وفي الجغرافيا، يرى أهل فلسطين أنّ بلدهم مركز العالم. وأرضهم محاطة بخمسة بحار. البحر الكبير، أي الأبيض المتوسّط، وبحر جِنّاسَرِت، أي بحيرة طبريّة، وبحر الحولة، والبحر المالح، أي البحر الميّت، وخليج العقبة. ويمرّ فيها نهرا الأردنّ واليرموك.

في الرياضيّات، كانت العلوم بدائيّة. واستُعمل النظام العشريّ في الحساب. وعلى أساسه تمّ تحديد ضرائب الأعشار. وفي أمثال يسوع، نجد تلك الأرقام عندما يتعلّق الأمر بالبيع والشراء أو الديون. ففي مثل الزارع، تعطي الحبّة مائة أو ستّين أو ثلاثين. وفي مثل الخادم عديم الشفقة، كانت الديون عشرة آلاف وزنة ومائة دينار. وكان للحروف رموز رقميّة. والكتبة يعدّون حروف كلّ سفر. ويبدو أنّ الكلمة الموجودة في وسط العهد القديم هي «ابحث». ويشير سفر الرؤيا إلى العلاقة بين الحروف والأعداد. «فمَن كان ذكيًّا فليحسب اسم الوحش. إنّه عدد اسم إنسان وعدده ٦٦٦» (رؤيا ١٣/ ١٨). وذلك يعني أنّ الاسم هو «نيرون القيصر»، مضطهد المسيحيّين حين كتب القدّيس يوحنّا ذلك الكتاب.

الأيام الحالكة

□ حياة الإنسان ألم وموت

منذ قديم الزمان، ارتبطت فكرة الموت عند العبرانيّين بخطيئة الإنسان. ففي سفر التكوين، دامت حياة الأجداد قرونًا كثيرة. عاش آدم تسع مئة وثلاثين سنة. وعاش ابنه شيت تسع مئة واثنتي عشرة سنة. أمّا أنوش، حفيد آدم، فعاش تسع مئة وخمس سنين (تكوين ٥/ ٥-١١). وظلّت تلك الأرقام تتناقص من جيلٍ إلى جيل حتّى كثُرَ شرّ البشر. فجاء الطوفان وأفنى جميع الناس ما عدا نوح وأهل بيته، لأنّ نوح كان بارًّا (تكوين ٦/ ٥-١٢). ويذكر الكتاب المقدّس أيضًا أنّ أخنوخ، وهو من حفدة آدم، «سار مع الله، ولم يكن بعد ذلك، لأنّ الله أخذه» (تكوين ٥/ ٢٤)، أي أنّه لم يعرف الموت بسبب تقواه. وهكذا، كان يُتلى على مسامع الناس في كلّ مناسبة ما قاله الربّ لآدم: «إنّك تراب وإلى التراب تعود» (تكوين ١/ ١٩). ولاحظ الناس أنّ الموت نصيب الصدّيق أيضًا. وسفر أيّوب خير دليل على ذلك. لذا، آمن معاصرو يسوع بأنّ حياة الإنسان ألمٌ وموت. ورأى معلّمو الشريعة أنّ من واجب الإنسان أن يخفّف الألم ويقضي على المرض ويؤخّر أجل الموت. فأكثروا من التوصيات في شأن الوقاية والعلاج، وكتبوا مقالات تشبه كتب الطبّ والصيدلة. لأنّ الجسد المريض في نظرهم لا يصلح لعمل الروح الطاهرة. وعندما بدأ يسوع حياته التبشيريّة، عدّه كثيرون طبيبًا يشفي من الأمراض، فيعيد البصر إلى العميان والنطق إلى البكم والسمع إلى الصمّ

ورجاء الانتصار على الموت إلى الإنسان.

☐ الوقاية الصحّيّة

على الرغم من كره طاقيطس للشعب اليهوديّ، فإنّه يقرّ أنّهم «يستفيدون من مناخ صحّيّ وغذاءٍ متّزن وحياةٍ بسيطة». ففي طقسٍ حارّ وجوٍّ ترابيّ، لم يكن غسل اليدين والاستحمام ضروريّين فحسب، بل واجبًا دينيًّا تفرضه الشريعة. ولا شكّ في أنّ هدف كثير من فرائض الطهارة التي وردت في سفر الأحبار هو حماية الناس من الأمراض، كمنع أكل لحم الحيوانات الميتة من المرض لا من الذبح، والتي لم يُرَق دمها، لأنّ الدم يسرّع فساد اللحم. ومنع أكل الحيوانات التي تتغذّى من الجيف كالنسور والعقبان والغربان... ومن الحكمة أيضًا أن يُفرض على مَن يمسّ اللحوم الفاسدة أن يغسل يديه، وأن يُعدّ نجسًا مَن مسّ جثّة أو دمًا (أحبار ١١ و١٢). ففي مثل السامريّ الرحيم، نرى الكاهن واللاوي يمتنعان عن مساعدة الرجل الذي سقط ضحيّة اللصوص، لأنّه كان مجروحًا، يسيل دمه، وهو بين حيّ وميّت. وكانا هما طاهرَين بعد أن أدّيا خدمتهما في الهيكل (لوقا ١٠/ ٣١-٣٥).

اهتمّت الشريعة أيضًا بالقواعد الصحّيّة الجماعيّة. فالفصل ٢٣ من سفر التثنية يفرض دفن النفايات بعيدًا عن المناطق السكنيّة. ويحدّد معلّمو الشريعة بُعد مكان رمي الأوساخ. عليه أن يبلغ مقدار خمسين عقدة من سور المدينة. هناك تُرمى القمامة ويُدفن الأموات وتُقام ورشات الدباغة. ويتمّ اختيار الموضع بعد درس اتّجاه الرياح العامّ، كي لا تنتقل الروائح إلى المدينة. وفي أحكام البَرَص، لا يشمل الأمر البشر فقط، بل الثياب والبيوت أيضًا. فالقماش الموبوء يُحرق، والجدران الموبوءة تُهدم.

☐ الأمراض

لم تمنع كثرة القواعد الصحّيّة من انتشار الأمراض والأوبئة. فتباين درجات الحرارة بين الليل والنهار، وهبوب الرياح الحارّة المحمّلة

بالتراب كرياح الخماسين، وانتشار المستنقعات وكثرة الذباب، تؤدّي إلى الإصابة بالإسهال والأمراض الصدريّة والدفتيريا والكوليرا والحمّى التيفيّة والرمد... ففي العهد القديم ذكر خمسين مرضًا. ويذكر العهد الجديد المقعدين والمصابين بالاستسقاء والنزف والصمم والعمى والبرص. فحماة بطرس كانت مصابة بحمّى شديدة (لوقا ٤/٣٨). وابن قائد المئة أصيب بحمّى قاتلة (يوحنّا ٤/٤٧). وأشدّ الأمراض هولًا هو البرص. ويبدو أنّ القدماء شملوا بتلك التسمية أمراضًا كثيرة، منها ما يمكن معالجته ومنها ما لا يمكن الشفاء منه. كان على الأبرص أن يرتدي ثيابًا خاصّة وألاّ يضع شيئًا على رأسه، وأن يعيش بعيدًا عن الناس. وكان أفراد الشعب يعدّون البرص دليلًا على الخطيئة العظيمة. ولا شكّ أنّ موقف يسوع الرحيم من البُرص ودنوّه منهم وشفاءه إيّاهم عظّم شأنه في عيون مرافقيه، لأنّ الله وحده يشفي من ذلك المرض. فالشعب يذكر قصّة نعمان السوريّ في العهد القديم، وهو قائد جيوش ملك دمشق، الذي أتى إلى السامرة وطلب من ملكها أن يشفيه من البرَص، فشقّ الملك ثيابه وقال: «ألعلّي أنا الله الذي يميت ويحيي... حتّى أشفي رجلًا من برصه؟» (٢ ملوك ٥/٧).

□ الطبّ والعلاج

على الرغم من إيمان بعضهم بأنّ المرض من الله والشفاء منه أيضًا، لم تخلُ مدينة من الأطبّاء. وتأتي الأناجيل على ذكرهم عدّة مرّات. فالقدّيس مرقس الإنجيليّ يقول إنّ المرأة المنزوفة «عانت كثيرًا من أطبّاء كثيرين، وأنفقت كلّ ما عندها ولم تستفد شيئًا» (لوقا ٥/٢٦). كان الأطبّاء يأخذون أجرهم سلفًا، ومحدوديّة قدراتهم أو معلوماتهم الطبيّة تؤدّي أحيانًا إلى زيادة ألم العليل. أمّا التلمود، فيذكر وصفات طبيّة كثيرة، يبدو بعضها مبنيًّا على أساس خبرة جادّة.

في مضمار الأدوية، يحتلّ الزيت مكانة الصدارة، خصوصًا زيت

الزيتون. إنّه مليّنٌ للعضلات ومهدّئ، ويُسمح استعماله يوم السبت. ويمزج بالخمر إذا استُخدِمَ لتضميد الجروح، لأنّ كحول الخمر يوقف النزف ويطهّر الجرح، والزيت يسرّع التئامه. بتلك الطريقة عالج السامريّ جريح طريق أريحا (لوقا ١٠/ ٣٤). واستُعمِلَ العسل أيضًا لعلاج الجروح، كما وصِفَ تناوله لمقاومة الذبحة الصدريّة والتهاب اللوزات. وضماد التين ممتاز لعلاج القروح، فبه شفى أشعيا النبيّ حزقيّا الملك (٢ ملوك ٢٠/ ٧). أمّا الاضطرابات المعويّة فلها أعشاب كثيرة. ولتنظيم ضربات القلب يُستعمل شراب مسحوق الشعير المغطّس باللبن. وللتخلّص من دود البطن يُنصح بكزبرة البيرة أو زيت الخروع. ويُستعمل ضماد السمك المملّح للشفاء من مرض النقرس، واللفّاح لأجل العواقر (تكوين ٣٠/ ١٤).

واعتقد القدامى، ومنهم سويتونيوس وبلينُس، أنّ للّعاب، ولا سيّما لعاب الصباح، خواصّ علاجيّة موصوفة في أحوال الرمد. ويصف سيرِنُس سيمونيكُس العلاج بالطين. ففي حادثة شفاء الأعمى منذ مولده، استعمل يسوع اللعاب والطين. وأمر الأعمى بأن يغتسل في بركة سلوام، أي المُرسِل. كان اليهود يعلمون أنّ مياه تلك البركة تأتي من النفق الذي حُفِرَ في الصخر في عهد الملك حزقيّا. وكانوا يعتقدون، على ما يبدو، أنّ لمياه تلك البركة قدرة معجزيّة. فقد ورد في نصّ إسلاميّ، يعود تاريخه إلى العصور الوسطى، أنّ مَن يقصد أورشليم حاجًّا، عليه أن يستحمّ في بركة سلوام، «لأنّ ماءها يأتي من الفردوس». وربّما كان هذا هو سبب عدم إيمان الفرّيسيّين بالمعجزة التي اجترحها يسوع، وجعلوا يتّهمونه بعدم احترام السبت، لأنّ الشريعة تحرّم على الأطبّاء أو المعالجين العمل يوم السبت، كما تحرّم الاغتسال في ذلك اليوم المقدّس، أي أنّ الأعمى أيضًا خالف شريعة موسى.

استعمل الأطبّاء في أيّام يسوع المحجم لسحب الدم، وصنعوا المراهم للوقاية من ضربة الشمس، وعرفوا فوائد الينابيع الحارّة والمياه

الكبريتيّة وحسنات النوم. فمن أقوالهم المأثورة: «مَن نام فقد تعافى». فحين قال يسوع لتلاميذه عن لعازر الذي مات: «إنّ صديقنا لعازر راقد، ولكنّي ذاهب لأوقظه»، أجابه تلاميذه الذين كانوا يعلمون أنّ لعازر مريض: «يا ربّ، إذا كان راقدًا فسينجو» (يوحنّا ١١/١١-١٢). كانت الجراحة بدائيّة وتقتصر على إغلاق الجروح العميقة أو معالجة الكسور والبتر والقيصريّة وخلع الأسنان، إن لم يهدّئ الملح أو الثوم آلامها. ولجأ بعض علماء الشريعة إلى قراءة مقاطع من الكتاب المقدّس على المريض أو كتابة بعض آياته ووضعها مكان الألم لنيل الشفاء.

عرف معاصرو يسوع أيضًا ممارسات طبّيّة قريبة من السحر. فلعلاج بعض أنواع الحمّى، تُجمع سبع أشواك من أوراق سبع أشجار نخيل وسبع قطع من سبعة قوائم أبواب وسبعة مسامير من سبعة جسور، ورمادٌ من سبعة أفران وسبع أوبار من سبعة كلابٍ هرمة. تُجمع كلّها وتُربط إلى السرّة بحبلٍ أبيض. ولعلاج المرأة المنزوفة، كالتي تقول الأناجيل إنّها تعذّبت من الأطبّاء، يأخذونها إلى منعطف طريق وتمسك بقطعةٍ زجاجيّة، ثمّ يخيفونها كأن يصرخوا خلفها فجأةً. أو أن تبتلع حبّة شعير وجِدَت في روث بغلةٍ بيضاء أو حمل رماد بيضة نعام في جرابٍ صغير فوق الصدر...

حين ينال مريضٌ الشفاء، عليه أن يُري نفسه للكهنة، فيتلون عليه صلاة الشكر، ثمّ يقدّم الذبائح. فإذا كان مصابًا بالبرص مثلًا، يحمل الكاهن بيده من دم الذبيحة ويذهب إلى حجرة البرص، وهي في باحة النساء عند سور الهيكل الغربيّ، ويكون المريض المعافى بانتظاره. فيمدّ رأسه إلى خارج الغرفة من الباب، فيمسح الكاهن بدم الذبيحة أذنيه وإبهاميه ورجليه. عندئذٍ يُسمح للمتعافى بأن يعود إلى بيته.

□ الموت والقبر

يعير العبرانيّون الموت احترامًا خاصًّا. لأنّ جسم الإنسان من صنع

الله. ويشدّد الكتاب المقدّس على ضرورة دفن الجثث حتّى وإن كانت للأعداء (حزقيال ٣٩/ ١٢)، أو للمحكوم عليهم بالإعدام (تثنية ٢١/ ٢٣). فحين يصف المزمور ٧٩ سوء حال العبرانيّين، يقول: «أسلمت جثث عبيدكَ طعامًا لطيور السماء ولحوم أصفيائك لوحوش الأرض» (مزمور ٧٩/ ٢). وأقسى لعنة قالها أشعيا لملك بابل هي: «أمّا أنت فطُرِحتَ عن قبرك كفرعٍ قبيح، ومن حولك قتلى مطعونون بالرماح هابطون إلى حجارة الجبّ كالجُثّة المدوسة، لا تجتمع وإيّاهم في المدفن» (أشعيا ١٤/ ١٩-٢٠). من الطبيعيّ إذًا أن يكون للدفن طقوس.

حين يموت إنسان، تُغلق عيناه مباشرةً (تكوين ٤٦/ ٤) ويُقبَّل قبلة عطفٍ وحنان (تكوين ٥٠/ ١) ويُغسّل (أعمال ٩/ ٣٧) ويُدهن جسده بالطيب. وتسمح الشريعة بأن يُقام ذلك الطقس حتّى في يوم السبت. ولا يُطيّب الجسد لتحنيطه كما هي العادة عند المصريّين، بل لإكرامه، أي مثل تطييب رأس الضيف المدعوّ إلى الطعام. والناردين هو أكثر الطيوب استعمالًا. فحين دهنت المرأة به رأس يسوع وهو على العشاء عند سمعان الأبرص، شرح للآخرين معنى عملها وقال: «وإذا كانت قد أفاضت هذا الطيب على جسدي فلأجل دفني صنعت ذلك» (متّى ٢٦/ ١٢).

كان الميت يُلفّ بالكفن (متّى ٢٧/ ٥٩)، ويُغطّى رأسه بمنديل (يوحنّا ٢٠/ ٧)، وتُثبّت يداه ورجلاه بلفائف (يوحنّا ١١/ ٤٤)، ثمّ يوضع في العلّيّة ويجتمع حوله الأهل والأقارب والأصحاب. ويتمّ الدفن بعد ثماني ساعاتٍ تقريبًا. توضع الجثّة على محمل، وتُعلّق على النعش علامة تشير إلى خصوصيّات المُتوفّى. فللشابّ العازب تُعلّق ريشة أو مفتاح. وتسير النساء في مقدّمة الجنازة، لأنّ المرأة، أي حوّاء، سبّبت الموت للجنس البشريّ. وعليها أن تقود ضحاياها إلى القبر. ولا يليق أن تسير الجنازة بصمتٍ، أيًّا كان عمر المتوفّى. لهذا يؤتى بالزمّارين، وتسير النادبات وهنّ يشدن بخصال الميت حتّى وإن كان مجرمًا شرّيرًا، ويذررنَ التراب على رؤوسهنّ ويمزّقن ثيابهنّ. ويحدّد التلمود طول الشقّ الواجب

إحدائه في الثوب لكي لا تُخالَف قواعد الحشمة.

لم يعرف معاصرو يسوع ما نسمّيه المقابر، بل كان كلّ واحدٍ يتّخذ لأسرته قبرًا في أرضٍ يشتريها، شريطة أن تبعد خمسين غلوة عن المدينة. لهذا السبب، تبعت النسوة اللواتي رافقن يسوع في حياته يوسف الرامي لينظرن أين يُدفن (مرقس ١٥/٤٧). وكان الفقراء والغرباء يُدفنون في أماكن جماعيّة تشبه المقابر في أيّامنا (متّى ٢٧/٧). والقبر ليس حفرة في الأرض، بل مغارة محفورة في الصخر، يُدحرج على فتحتها حجر. وفي إنجيل يوحنّا وصفٌ دقيق للقبر حين يتكلّم على إقامة لعازر (يوحنّا ١١/ ٣٨). واكتشفت التنقيبات الأثريّة في وادي قمران حوالى ألف قبر من ذلك النوع. يكون باب القبر منخفضًا، ويؤدّي إلى حجرةٍ صغيرة هي نوع من المدخل أو البهو تقود إلى عدّة حجراتٍ قد يصل عددها إلى ثمانية. تحوي كلّ واحدةٍ مصطبة حجريّة يوضع جثمان الميت عليها ويُحاط بأنواع الطيب. فالميت يُدفن بالكفن ومن دون تابوت. ويغلق الفقراء قبورهم بالحجارة والطين. أمّا الأغنياء، فيدحرجون حجرًا دائريًّا كحجر الرحى ليسدّ فوهة المدفن. وتُحفر له سكّة في الأرض أمام الباب لإحكام إغلاق الفوهة لكي لا تدخل الضباع وتفترس الجثث. ولمّا كان يوسف الرامي من وجهاء اليهود، دفن يسوعَ في قبرٍ فاخرٍ كان قد أعدّه لنفسه. لذلك تساءلت النسوة حاملات الطيب صباح الأحد وهنّ ذاهبات إلى القبر: «مَن يدحرج لنا الحجر عن باب القبر» (مرقس ١٦/ ٣).

بعد الدفن، تذهب الأسرة إلى البيت وتأكل مع مَن كانوا في الجنازة لقمة الرحمة (هوشع ٩/ ٤). وتُشرب الخمر بطريقةٍ طقسيّة. ويأتي المعزّون الذين لم يحضروا الجنازة ويقدّمون تعازيهم. يقول التلمود إنّ من واجب المعزّين أن ينهضوا سبع مرّاتٍ ليحيّوا أسرة المتوفّى. ويدوم الحزن ثلاثين يومًا. في الأيّام الثلاثة الأولى، لا يقوم أهل الميت بأيّ عمل، ولا يحيّون الناس في الشارع، ولا يحلق التقيّ منهم شعره ولا يغتسل، ويلبس أهل المتوفّى رثّ الثياب أو المسوح. وترتدي الأرامل الوفيّات لأزواجهنّ

المسوح طول أيّام حياتهنّ.

في شهر آذار من كلّ سنة، يذهب الناس إلى المدافن، ويطلون القبور بالكلس لكي يراها الناس ويتجنّبوها. لأنّ مسّ القبر نجاسة مثل لمس الأبرص. إنطلاقًا من ذلك، يمكننا أن نفهم شدّة تعبير يسوع حين شبّه الكتبة والفرّيسيّين بالقبور المكلّسة (متّى ٢٣/ ٢٧). وعندما قال للّذي أراد أن يتبعه بعد أن يدفن أباه: «دع الموتى يدفنون موتاهم» (متّى ٨/ ٢٢). لقد فهم القدّيس بولس معنى تلك العبارة، فحثّ المسيحيّين على أن يلتفتوا إلى الحياة ويهتمّوا بها بدل الاهتمام بالموت (١ تسالونيقي (٤/ ١٣). فالمسيحيّ يؤمن بأنّ المسيح وطئ الموت بالموت ووهب الحياة للّذين في القبور.

☐ أين شوكتك أيّها الموت؟

هل آمن اليهود في أيّام يسوع بقيامة الأموات؟ لا يمكننا الجزم في الإجابة عن ذلك السؤال. فأقوال معلّمي الشريعة، على الرغم من تدخّلها في أدقّ تفاصيل الحياة اليوميّة، تترك للناس حرّيّة الإيمان بكلّ ما يتعلّق بشؤون ما بعد الموت. ففي نصوص العهد القديم الأولى، يبدو الموت نهاية وجود الإنسان. فيه تفارق الروح، التي وضعها الله، الجسدَ الذي أحيته. إلى أين تذهب تلك الروح؟ أتفنى مثل أرواح البهائم (الجامعة ٣/ ١٩) أم تصعد إلى العلاء، في حين تهبط أرواح البهائم إلى أسافل الأرض (الجامعة ٣/ ٢١)؟ لا أحد يعرف. كلّ ما يعرفه الناس هو أنّ الجسد يعود إلى التراب الذي أُخِذَ منه، ولا يبقى من ابن الإنسان إلاّ شبحٌ، كشبح صموئيل الذي استحضرته الساحرة للملك شاول (١ صموئيل ٢٨). فالأشباح تسكن مكانًا سرّيًا يذكره الكتاب المقدّس مرّاتٍ كثيرة وهو مثوى الأموات، «الشيول»، مكان الظلمة وظلال الموت، مكان الصمت، مكان تتحوّل فيه الأشباح إلى عدم. لا تفعل شيئًا ولا تعرف شيئًا ولا تستطيع شيئًا.

لم تكن فكرة ما بعد الموت هذه سائدة في أيّام يسوع. فقبل بضعة قرون من عصره، انتشر إيمانٌ آخر يمكننا أن نجده في كتب المكّابيّين ودانيال والحكمة والآداب التلموديّة. فالربّ إله عادل. ومن مبادئ العدل أن يُعاقَب الشرّير ويُكافأ البارّ. فإن لم يتمّ ذلك الأمر في الحياة الدنيويّة، فلا بدّ له أن يتمّ في الحياة الأخرى. لذا، آمن كثيرون من معاصري يسوع بأنّ الوجود لا ينتهي مع الموت، وأنّ ملاك الموت (مزمور ٤١) يقود النفس إلى الدينونة. إن كانت حياة المتوفّى صالحة وبحسب الشريعة يُنادى: «حضّروا مكانًا لهذا الصدّيق. وإلاّ، تقوم الملائكة ميخائيل وجبرائيل وروفائيل وفنوئيل بإلقاء الشرّير في العذابات الأبديّة». وتبيّن الأناجيل في أكثر من فصل أنّ يسوع دعّم نظريّة العقاب والثواب بعد الموت وثبّت صوابها، سواء في مثل الغنيّ ولعازر أو في وعده للصّ اليمين المصلوب معه: «ستكون اليوم معي في الفردوس» (لوقا ٢٣/ ٤٣). وحين جادله الصدّوقيّون في هذه المسألة، أجابهم صراحةً أنّ إله إبراهيم وإسحق ويعقوب إله أحياء لا إله أموات (متّى ٢٢/ ٣٢)، وأنّ الناس في القيامة لا يُزوَّجون ولا يتزوّجون، بل يكونون كالملائكة في السماء (متّى ٢٢/ ٣٠). وعندما التقى مرتا أخت لعازر قال لها: «سيقوم أخوكِ». فأجابته: «أعلم أنّه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير». فقال لها: «أنا القيامة والحياة، مَن آمن بي وإن مات فسيحيا» (يوحنّا ١١/ ٢٣-٢٥). كانت مريم يائسة لأنّه مضى على وفاة أخيها أكثر من ثلاثة أيّام. وتقول بعض التعاليم أنّ الروح تحوم متوجّعةً في جوار الجسد الذي فارقته. فلا تغادره نهائيًا إلاّ في اليوم الثالث. وربّما قصد يسوع أن يشير إلى أمرٍ هامّ حين أخبر تلاميذه أنّه سيقوم في اليوم الثالث (متّى ١٦/ ٢١).

الفصل الرابع عشر

أوقاتٌ مكرّسة

□ تكريس اليوم بالصلاة

من عادة اليهود الأتقياء أن يصلّوا عدّة مرّاتٍ في اليوم. قال أحد معلّمي الشريعة الذين عاصروا يسوع: «حين تريد أن تصلّي، فاذهب إلى المجمع في مدينتك. إن تعثّر عليك الصلاة في المجمع، صلِّ في حقلك. وإن لم تستطع الصلاة في حقلك، صلِّ في بيتك. وإن لم تستطع الصلاة في بيتك، صلِّ في سريرك. فهناك يمكنك أن تتكلّم مع الله بقلبك وأن تخلد إلى السكينة». الصلاة اليوميّة إذًا واجبٌ مفروضٌ على كلّ مَن تجاوز الثالثة عشرة من عمره. ولا يُستثنى من هذا الواجب إلاّ النساء والعبيد.

كان الناس يصلّون في أيّام يسوع في الصباح والمساء وفي منتصف النهار، أي الساعة السادسة. ويخبرنا سفر أعمال الرسل أنّ بطرس صعد إلى السطح في تلك الساعة ليصلّي، فنال رؤية من السماء (أعمال ١٠/ ٩). يغطّي اليهوديّ رأسه في أثناء صلاته بوشاحٍ مخصّصٍ لهذا الغرض. وهو مصنوعٌ من الحرير، لونه أبيض وعليه تطريزٌ أزرق فاتح بشكل عنقود عنب أو حبوب رمّان، وينتهي بأهداب. ويربط على كفّه وعلى جبينه «الطفيليم»، وهو علبتان صغيرتان مستطيلتان سوداوان مصنوعتان من جلود الحيوانات الطاهرة، وتحويان مقاطع من سفر الخروج أو تثنية الاشتراع.

يوجّه المصلّي جسمه في صلاته إلى أورشليم كما فعل النبيّ دانيال (دانيال ٦/ ١١). فإن كان في المدينة المقدّسة، يتوجّه إلى الهيكل. وإن كان في الهيكل، يتوجّه إلى قدس الأقداس. ولا يتلو الصلاة جاثيًا إلاّ في

الظروف الصعبة حين يتوسّل إلى الله. أمّا السجود، فهو من الحركات التي يمكن القيام بها مرّاتٍ كثيرة في أثناء الصلاة. يثني المصلّي ركبتيه ويضع يديه على فخذيه أو يرفعهما نحو السماء أو يحني ظهره حتّى يلامس جبينه الأرض. وقد حافظ المسيحيّون على تلك الحركات في الصلاة ردحًا من الزمن، ولا يزال بعضهم يستعملها، خصوصًا في عددٍ من الأديار الرهبانيّة. ولم يألف العبرانيّون الصلاة بضمّ الكفّين كالجرمانيّين والمسيحيّين اللاتين بعدهم. وفي أثناء الصلاة، ينظر المؤمن إلى الأرض، ويصلّي بصوتٍ عالٍ، ويقرع في بعض الأحيان صدره كما فعل جابي الضرائب في أحد أمثال يسوع (لوقا ١٨/١٣).

يتلو المصلّي نصّين، أوّلهما قصير وهو: «إسمع يا إسرائيل...» (تثنية ٦/٤-٧)، والثاني أطول، ويُتلى ثلاث مرّاتٍ يوميًا في القلب إن تعسّرت تلاوته بصوتٍ عالٍ. ويبدو أنّ الرسولين بطرس ويوحنّا كانا ذاهبَين إلى الهيكل لتلاوة تلك الصلاة حين التقيا الرجل الكسيح (رسل ٣/١). تمجّد تلك الصلاة الإله الأزليّ، إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، سيّد الكلّ ومعطي الخيرات والمدافع عن أتقيائه. ويسأل المؤمن الله فيها غفران الخطايا ووحدة الشعب وحضور ملكوت الربّ. وقد استبدل يسوع تلك الصلاة بصلاة الأبانا بعد أن جرّدها من كلّ طابعٍ وطنيّ، وجعلها تشمل الإنسانيّة بكاملها.

□ تكريس الأسبوع بالسبت

يُعدّ قانون السبت أوّل عُطلة أسبوعيّة في التاريخ. كانت الشعوب القديمة تنقسم إلى فئتين. فئة السادة وهي لا تعمل، وفئة العبيد التي تعمل طوال الوقت. أمّا الطبقات المتوسّطة، فكانت تعمل طول أيّام السنة باستثناء أوقات الأعياد حين تقدّم الذبائح لآلهتها في احتفالاتٍ بهيجة. أمّا العبرانيّون، فكانوا يعطّلون يومًا في الأسبوع وهو يوم السبت. ومن شدّة أهمّيّة ذلك اليوم، ذكرته الأناجيل حوالى سبعين مرّة. فما هو السبت؟

ورد في الكتاب المقدّس أنّ السبت علامة عهدٍ بين الله وشعبه. إنّه يومٌ مكرّسٌ للربّ، وعلى العبرانيّين أن يحفظوه من جيلٍ إلى جيل، بأن يمتنعوا عن العمل فيه ويرتاحوا ليجدّدوا قواهم (خروج ٣١/١٣-١٧). فحين خلق الله العالم ارتاح يوم السبت (تكوين ٢/٣). وأعلن موسى أنّ مَن لا يحترم السبت يستوجب الموت (عدد ١٥/٣٢-٣٦). ويذكر التلمود قصصًا ملحميّة عن السبت فيقول إنّ أوّل نشيدٍ في الإنسانيّة أنشده آدم يوم السبت حين عرف أنّ الله سامحه. ويؤكّد بعض معلّمي الشريعة أنّ النشيد هو المزمور ٤٢. ويقول آخرون إنّ البحر الأحمر انشقّ ليفرّ العبرانيّون من المصريّين يوم السبت. ولم تظهر أهمّيّة السبت إلاّ في أيّام الجلاء إلى بابل. ففي ذلك الوقت، حلّت المجامع محلّ الهيكل، وأصبح السبت شبيهًا بقدس الأقداس. وبعد العودة من الجلاء، لم يكفّ معلّمو الشريعة عن زيادة أهمّيّة ذلك اليوم، وتعقيد شريعة ما يجوز عمله فيه وما لا يجوز.

يبدأ السبت عند غروب الشمس يوم الجمعة. حين تظهر نجوم السماء الثلاثة الأوَل، يصعد لاويّ إلى أعلى سطحٍ في المنطقة ومعه بوقٌ يُحفظ عادةً في المجمع. فينفخ فيه ثلاث مرّاتٍ، وفي كلّ مرّة لحنًا: المرّة الأولى لتنبيه عمّال الحقول كي يتركوا عملهم. والثانية كي يغلق التجّار محلاّتهم، والثالثة كي يعلم الجميع أنّ ساعة إشعال المصابيح قد حانت. حينئذٍ تتوهّج لسينات اللهب من جميع النوافذ. وتقوم النساء يوم الجمعة بتنظيف البيت وتحضير الطعام الذي سيؤكل باردًا يوم السبت. فالشريعة تمنع إشعال النار، لأنّه عمل يخلق اللهب، والله استراح من الخلق يوم السبت. في يوم الجمعة، تملأ النساء أيضًا مصابيح الزيت ويغتسل جميع أفراد العائلة. وعندما تُشعل أنوار السبت، يجلس الجميع للطعام. فيتلون البركات الثلاث ويأكلون، ولا يتناولون بعد العشاء أيّ شيءٍ حتّى نهاية الصلاة في المجمع في اليوم التالي. لهذا السبب جاع تلاميذ يسوع يوم السبت، فقلعوا السنابل وأكلوها، وعاب الفرّيسيّون عليهم ذلك العمل (متّى ١٢/١-٨).

يذهب الناس إلى المجمع صباح السبت فيُتلى عليهم مقطع من الكتاب المقدّس ويُشرح، وتُتلى بعض الصلوات، ثمّ يعود الجميع إلى بيوتهم لتناول طعام الغداء. وبعد الظهر، يجتمع معلّمو الشريعة وكتبة المنطقة في بيت تعليم الشريعة، ويتجادلون في المسائل اللاهوتيّة. وفي الساعة الحادية عشرة (أي الخامسة بعد الظهر) يؤكل العشاء، ويُنفَخ في البوق لإعلان نهاية السبت. حين يسمع الناس صوت البوق ينهضون من الطعام ويغسلون أيديهم ويصلّون صلاة شكر على كأسٍ من الخمر، ويكرعون منها. حينئذٍ تنتهي فرائض السبت.

□ فرائض السبت

السبت، في جوهره، يوم فرح. فيه يرتاح العامل والفلاّح ويشربان الخمر ويتناولان الوجبات اللذيذة. وينصح معلّمو الشريعة بارتداء الثياب الجديدة فيه والإكثار من ساعات النوم. ولكي لا يسقط الإنسان في تجربة العمل بحجّة القيام بأمورٍ ضروريّة لا تتحمّل التأجيل، وضِعَت تشريعاتٌ دقيقة لما لا يجوز عمله يوم السبت كإشعال النار أو السير مسافة تتجاوز ستّ غلوات. وتحدّد مقالات التلمود ٣٩ عملًا ممنوعًا في ذلك اليوم، من زرع الأرض وحمل الأشياء إلى ربط عقدة حبلٍ أو فكّها أو اصطياد طريدة أو حتّى كتابة حرفٍ من الحروف الأبجديّة. فأثارت تلك الممنوعات جدلًا بين معلّمي الشريعة. فعلى سبيل المثال، أُبيد جيش يهوديّ في أيّام المكّابيّين لأنّه رفض حمل السلاح لصدّ هجوم الأعداء يوم السبت، وانسحب المدافعون عن أورشليم أمام زحف جيش بومبيوس حين رأوا نجم السبت في السماء. لذلك تساهل عدد من معلّمي الشريعة في السماح بالقيام ببعض الأعمال الممنوعة لتفادي الكوارث، كحمل السلاح أو إنقاذ إنسانٍ أو بهيمة (لوقا ١٤/١٥). ورأينا أيضًا كيف تسمح الشرائع بالقيام بأعمال دينيّة كالختان أو الاحتفال بالأعياد إن صادف موعدها يوم السبت. وذكّر يسوع الناس بجوهر السبت في قوله: «إنّ السبت جُعِلَ للإنسان لا الإنسان للسبت» (مرقس ٢/٢٧).

كان ليسوع جدالاتٌ كثيرة مع الفرّيسيّين في شأن السبت، خصوصًا في مسألة ما يجوز القيام به وما لا يجوز. فالكتاب المقدّس يقول: «أذكر يوم السبت لتقدّسه. في ستّة أيّامٍ تعمل وتصنع أعمالك كلّها، واليوم السابع سبت للربّ إلهك. فلا تصنعْ فيه عملًا أنت وابنك وابنتك وخادمك وخادمتك وبهيمتك ونزيلك الذي في داخل أبوابك» (خروج ٢٠/٨-١٠). لكنّ الحياة اليوميّة فرضت على المشرّعين أن يحدّدوا ما يجوز عمله يوم السبت وما لا يجوز.

وظهرت تشريعات في ذلك الشأن، منها المتشدِّد ومنها المتساهل. فمَن يقرأ تعاليم التلمود يكاد لا يصدّق أنّ الناس عملوا يومًا ببعض تلك التشريعات. وقد أتينا على ذكر عددٍ منها في بحر فصول هذا الكتاب. ومن التشريعات المدهشة في غرابتها، جدال الفرّيسيّين هل يجوز أكل بيضةٍ باضتها الدجاجة يوم السبت أم لا. ألم تخرق الدجاجة حرمة السبت حين قامت بذلك العمل؟ أو جدالاتهم في تحريم قتل حيوانٍ يوم السبت. فإذا وجد أحدهم قملةً في رأسه، أيجوز له قتلها أم لا؟ يقول المتشدّدون: «لا». أمّا المتساهلون، فيحلّلون بتر قوائمها. وهل يحقّ قطف ثمرة لأكلها إذا كان الإنسان بعيدًا عن بيته مسافةً تزيد عن مسيرة سبت؟ وهل يُسمح بعلاج مريضٍ أو جريحٍ إذا كان انتظار اليوم التالي يزيد حالته سوءًا؟

وأثيرت جدالاتٌ أيضًا في شأن التقادم والوضوء. فإذا وضع فلاّح قمحًا للتقدمة في مخزنه، هل يحقّ له أن يضع معه قمحًا للاستهلاك؟ كم كنسةٍ يحقّ للإنسان أن يقوم بها لتنظيف الأرض؟ وإذا حمل إنسان حبوبًا لضريبة الأعشار، فسقط بعضها على الأرض ونما، هل يحقّ له أكل ثمره؟ وإذا عزم ناذرٌ على ألاّ يأكل طعامًا مسلوقًا، هل يحقّ له أكل بصلةٍ دهسها سهوًا؟ وهل يمكن استعمال أسنانٍ مستعارة؟ أو حمل أكثر من ثلاث تعاويذ، أي ناب ثعلب وبيضة جراد ومسمار رجلٍ مصلوب؟

لقد فقد السبت معناه في أيّام يسوع، وتحوّل إلى محض حفاظٍ على شرائع مادّيّة، فقتل الحرفُ الروحَ (٢ قورنتس ٣/١٦). وجمل الناس

يحتالون على الشرع. فعلى سبيل المثال، بما أنّه لا يحقّ للمرء أن يمشي أكثر من مسيرة سبت، كان الناس يبنون على طرقات تنقّلاتهم الاعتياديّة بيوتًا من أغصان الأشجار، يقيمون فيها برهةً ثمّ ينطلقون ثانيةً قاطعين مسافة سبتٍ أخرى.

شغلت مسألة السبت المفكّرين الرومانيّين أيضًا. فقد عزا طاقيطس تلك العادة إلى عبادة كوكب زُحَل، واتّهم اليهود بالكسل لأنّهم يمضون يومًا في الأسبوع لا يفعلون فيه شيئًا، ويأكلون طعامًا باردًا ليتذكّروا برودة ذلك الكوكب. ويقول فلافيوس يوسيفس المؤرّخ اليهوديّ: إنّ الرومانيّين لم يضمّوا اليهود إلى جيوشهم خشية أن يرمي أولئك سيوفهم ودروعهم حين يسمعون صوت بوق السبت».

□ تكريس السنة بالأعياد

كانت أعياد اليهود كثيرة جدًّا، ويدوم بعضها ثلاثة أسابيع. ففي بداية شهر أيلول، تتوالى أعياد رأس السنة والتكفير والخيام. ولم يضع المشرّعون قواعد سلوكيّة لحفظ الأعياد كما فعلوا لحفظ السبت. فالعيد فترة احتفال وعطلة، فيه يمجّد الشعب الله ويشكره ويتضرّع إليه. وتتميّز الأعياد اليهوديّة بطابعها الجماعيّ. ويُحتفَل ببعضها في البيت مع الأسرة أو لفيفٍ من الأصدقاء، كما فعل يسوع حين تناول عشاء الفصح مع تلاميذه. وتتمّ الاحتفالات وفق تسلسلٍ طقسيٍّ دقيق ومنظّم، وتُقام في بعضها طقوسٌ عامّة يحضرها مَن يشاء من الشعب، وتكون فرصة للحجّ إلى أورشليم. يمكننا إذًا تخيّل المدينة المقدّسة وأزقّتها في أيّام العيد: مئات ألوفٍ من الناس يتوجّهون نحو الأسوار، قادمين من كلّ حدب وصوب، من داخل فلسطين وخارجها، يسيرون جماعات أو في قوافل وكأنّهم حبّات سبحة تمتدّ إلى الأفق البعيد، يرتّلون دون انقطاع أناشيد الصعود إلى أورشليم أو مزامير الحج. «فرحتُ حين قيل لي: لنذهب إلى بيت الربّ...» (مزمور ١٢٢). وعندما يصل الحجّاج إلى وادي أفراتة،

يرنّمون المزمور ١٣٢ ويسبّحون الله ويشيدون بجمال «المدينة المتناسقة». وعند عبور الأبواب، يسجد كثيرون ويقبّلون الأرض المقدّسة.

كتب فلافيوس يوسيفس أنّ الملك هيرودُس أغريبا أمر في أحد أعياد العيد أن تُحفَظ له خصية من كلّ حملٍ يُقدَّم ذبيحةً. فجمع ٦٠٠٠٠٠ خصية. فإذا حسبنا وسطيًّا لكلّ عشرة أشخاص خروفًا، يصل عدد الحجّاج إلى ستّة ملايين. ويزيد مقال في التلمود ذلك العدد ويقول إنّه يصل إلى ١٢ مليون حاجّ. ولمّا كانت باحات الهيكل لا تتّسع لأكثر من ١٦٠٠٠٠ شخص، يقول مقال الفصح في التلمود إنّ الكهنة كانوا يكرّرون الاحتفالات الطقسيّة العامّة ثلاث مرّاتٍ يوميًّا.

لا شكّ في أنّ تلك الأعداد مبالغ فيها. فبحث في المدينة وإمكانيّاتها، والفكرة المكوّنة عن أعداد يهود الشتات بحسب الإحصاءات الرومانيّة، يجعلانا نشكّك في صحّة تلك الأرقام. على كلّ حال، لم يقلّ عدد الحجّاج عن نصف مليون حاجّ، يقفون متراصّين في باحات الهيكل ويصلّون وهم يلبسون ثيابهم التقليديّة التي تشير إلى جنسيّاتهم. وبعد الصلاة، ينتشرون في أزقّة المدينة يتفرّجون عليها بإعجابٍ وفخر، ويحدّقون بأدقّ تفاصيلها، ليصفوها لأنسبائهم وصفًا دقيقًا عند عودتهم. أمام تلك الجموع المحتشدة، صُلِب يسوع عاريًا مع لصّين قرب الأسوار. لا شكّ في أنّه شعر بعارٍ شديد أمام مئات الألوف من العيون التي كانت تنظر إليه.

يمكننا تصنيف أعياد اليهود إلى نوعين. الأعياد الصغيرة والأعياد الكبيرة. وهي تتوزّع على مدار السنة بحيث لا ينقضي شهر من دون عيد أو احتفال. ومن الأعياد الصغيرة، يمكننا ذكر عيد جزّ الغنم (تكوين ٣١/ ١٩ و٣٨/ ١٢)، وذكرى خلاص الشعب بفضل إستير، وموعده يوم ١٤ آذار، وعيد التكريس إحياءً لذكرى تطهير يهوذا المكّابيّ الهيكل بعد أن دنّسه أنطيوخُس الرابع أبيفانُس. ويُحتفَل به في ٢٤ كانون الأوّل.

□ الأعياد الكبرى

يحتفل اليهود في أيّام يسوع بثلاثة أعيادٍ كبرى وهي: الفصح والخمسين والتكفير. في الزمن القديم، كان اسم عيد الخمسين عيد البواكير، ويقع بعد سبعة أسابيع من بدء الحصاد (عدد ٢٨/٢٦)، أي بعد خمسين يومًا تقريبًا. ويقول التقليد اليهوديّ إنّ الله أنزل شريعته على موسى بعد خمسين يومًا من عبور البحر الأحمر. لهذا، حمل العيد اسمًا يونانيًّا وهو الباتنكوت، أي الخمسين. أمّا اليهود فيسمّونه عيد الحشر، أي التجمّع. لأنّ التجمّعات بأورشليم تبلغ فيه ذروتها. ويقدّم الناس الخبز إلى الهيكل في أثناء ذلك العيد. فهو يرمز إلى ثمر الأرض وعمل يد الإنسان. كما تتأمّل النفوس التقيّة فيه وحي الله إلى موسى. في ذلك العيد، نزل الروح القدس على التلاميذ وانطلقت الكنيسة.

في فصل الخريف، تتتابع ثلاثة أعياد من دون انقطاع، وتدوم من أوّل شهر أيلول حتّى ٢١ منه. تبدأ تلك الثلاثيّة بعيد رأس السنة. وفي العاشر منه عيد التكفير وفي الخامس عشر عيد الخيام أو المظالّ. يُقام في العيد الأوّل تطوافٌ إحياءً لذكرى مسيرة الشعب وراء تابوت العهد في البرّيّة. وتُقدّم الذبائح وهي ثور وكبشٌ وسبعة حملانٍ حوليّة بلا عيب. وفي العاشر من الشهر، يصوم الشعب ويكثرون الوضوء والصلاة، ويعتكف رئيس الكهنة في حجرةٍ خاصّة داخل الهيكل ليتقدّس بالصلاة. في ذلك العيد، يعي اليهوديّ بؤسه وفداحة خطيئته. وتتمّ الطقوس كما وردت في الفصل السادس عشر من سفر الأحبار. يدخل رئيس الكهنة قدس الأقداس ليطهّره، فيرشّه بدماء تيس وثور، ثمّ يؤتى بتيسٍ وقعت عليه القرعة، فيضع رئيس الكهنة يديه على رأس التيس ويعترف بخطايا بني إسرائيل ودنسهم وعصيانهم أوامر الربّ، بينما يصلّي الشعب: «إلهي، لقد أثِم شعبك أمام عينيك وارتكب المعاصي. فامنحه غفرانك كما هو مكتوبٌ في شريعة عبدك موسى وارحمه في يوم الغفران هذا». ثمّ يأتي رجلٌ تمّ اختياره من قبل، ويطرد التيس بالسوط إلى الصحراء خارج

المدينة، أي على بعد بضعة كيلومترات من أورشليم، حتّى يصل إلى الجرف ويسقط منه. ويتوضّأ كبير الكهنة علنًا بعد ذلك دلالةً على أنّ الشعب تطهّر.

كان الصوم القانونيّ الوحيد يُفرَض في ذلك اليوم. وكانت تُضاف إليه أحيانًا أصوام يأمر بها المحفل أو المجمع في بعض المناسبات تفاديًا لنكبةٍ أو احتفالًا بذكرى. لكنّ الفرّيسيّين وعلماء الناموس التزموا أحيانًا مبالغاتٍ في الصوم، فكانوا يصومون كلّ اثنين وخميس، فيلبسون ثيابًا كالحة ليلفتوا بها أنظار الناس إلى تقواهم. وقد انتقد يسوع بشدّة تلك الطريقة في الصيام سواء بتعاليمه (متّى ٦/١٦-١٨) أو في أمثاله (لوقا ١٨/٩-١٣).

□ عيد المظالّ

يُعَدّ عيد المظالّ من أبهى الأعياد المذكورة في التقويم اليهوديّ. فإذا قيل «العيد»، فُهِمَ أنّه عيد المظالّ. ففي الخامس عشر من تشرين الأوّل، تؤمّ أورشليم جموعٌ غفيرة تكاد تضاهي في عددها حشود الفصح. فالسنة الزراعيّة انتهت، والغلال خُزِّنَت وقطاف العنب أنجز والشعب أنهى قبل خمسة أيّام جوّ الحزن والصوم الذي فرضه على نفسه في عيد التكفير. فتُنصب الخيام في كلّ مكان، ويقيم الناس فيها مدّة ثمانية أيّام تذكارًا لآبائهم الذين عاشوا تحت الخيام بالصحراء إلى أن استقرّوا في فلسطين (أحبار ٢٣). في كلّ يوم، تُقدَّم الذبائح في الهيكل ويدور الناس حول أسواره وينشدون المزمور ١١٨ «الحجر الذي رفضه البنّاؤون صار رأسًا للزاوية». ويتقدّم رئيس الكهنة الحشدَ ويغرف بمغرفة ذهبيّة ماءً من نبع سلوان، ويسكبه في جرّةٍ فضّيّة، ثمّ يعود ويرشّ الماء غربَ الهيكل، على مذبح المحرقات. ربّما أعلن يسوع أمام ذلك المشهد: «إن عطش أحدٌ فليقبل إليّ، ومَن آمن بي فليشرب... ستجري من جوفه أنهار ماء حيّ» (يوحنّا ٧/٣٧-٣٨). ويُقام في المساء احتفال راقص في رواق النساء،

يعزف فيه اللاويّون ويرقص الناس حاملين المشاعل وينشدون: «عبد آباؤنا الشمس هنا، أمّا نحن فنلتفت إلى الإله الواحد». في ذلك العيد، وربّما أمام منظر المشاعل، أعلن يسوع أنّه نور العالم (يوحنّا ٨/ ١٢).

يصادف المرء في عيد المظالّ حجّاجًا يحملون بيمناهم أغصان اللبخ الخضراء وباليسرى ثمرة من ثمار الأترنج. وكان يُعتقد أنّ مقدار الإيمان يُقاس بضخامة الأغصان أو ثقل الأترنجة، حتّى إنّ بعض الفرّيسيّين كانوا يسندون الأغصان إلى مناكبهم لضخامتها. وفي أثناء الاحتفال، يلوّح الناس بها في الاتّجاهات الأربعة وينشدون: «هلّيل هلّيل هلّيلويا، المجد لله...».

كانت نشوة الاحتفال والرقص والغناء والسهر والنوم في الخلاء فرصة لقضاء بعض المآرب المشبوهة. وكان الشعور الشعبيّ، مثلما هو في أيّامنا[1]، ميّالًا إلى التسامح في مخالفة قواعد الشريعة الأخلاقيّة. ولم يكن الناس يحسبون لناموس الأخلاق كبير حساب في العيد. ويخبرنا يوحنّا الإنجيليّ أنّ اليهود في عيد المظالّ، أي في جوّ التسيّب الأخلاقيّ، قادوا امرأةً أُخِذَت في زنى إلى يسوع وهو في الهيكل ليحكم عليها. ولا شكّ أنّ الحادثة جرت عند باب نيقانور، أجمل أبواب الهيكل. فقد كان اليهود، على ما جاء في التلمود، يقتادون إليه العواهر من رقابهنّ لمحاكمتهنّ. لكنّ يسوع أبى أن يترك المتّهمين في عماهم، وقال لهم: «مَن كان منكم بلا خطيئة، فليكن أوّل مَن يرميها بحجر... فلمّا سمعوا هذا الكلام، انصرفوا واحدًا بعد واحد يتقدّمهم كبارهم سنًّا» (يوحنّا ٨/ ٣-٩). فإذا تذكّرنا أنّ المتّهمين احتفلوا قبل بضعة أيّام بعيد التكفير

(١) يُلاحظ في الشرق، حتّى اليوم، أنّ الأسر المحافظة تغضّ الطرف لمخالفة المبادئ الأخلاقيّة التي تلتزمها وذلك في فترات الأعياد والاحتفالات، كالسماح للصغار بالتدخين وللفتيات بالتجوّل وحدهنّ أو ارتداء ملابس لافتة للنظر أو المبالغة في التبرّج أو لعب الميسر في رأس السنة... ويُقال إنّ بعض الفئات الدينيّة تحلّل في عددٍ من أعيادها أشدّ الأمور تحريمًا في المجتمع.

وتطهّروا من خطاياهم، يمكننا التكهّن بما فعلوه في غضون تلك الأيّام القليلة، ابتداءً من كبارهم سنًّا، حتّى إنّهم انصرفوا وعدلوا عن تطبيق شرع الله في مَن اتّهموها بأنّها خالفته شرّ مخالفة.

□ عيد الفصح

أمّا أهمّ أعياد اليهود فهو الفصح. وكلمة فصح، «فشخ»، تعني العبور. إنّه ذكرى عبور العبرانيّين البحر الأحمر وخلاصهم من عبوديّة فرعون. ويُحتفَل به في ١٤ نيسان (عدد ١٦/٢٨)، أي يصادف موعده تمام القمر الربيعيّ. كان تاريخ الفصح ثابتًا بعكس تأريخ المسيحيّين فصحهم. ولا ننسَ أنّ التقويم اليهوديّ قمريّ. لذا، يمكن أن يقع الفصح في أيّ يوم من أيّام الأسبوع. فحين صُلِب يسوع، كان الفصح يوم السبت (يوحنّا ١٩/٣١).

تدوم احتفالات الفصح أسبوعًا كاملًا. لكنّ أهمّها يُقام في اليوم الأوّل والأخير. وتُقام الطقوس كما وردت في الفصل الثاني عشر من سفر الخروج. يُذبح الحمل الفصحيّ ويُرشّ دمُه على قوائم أبواب البيوت وسواكفها بغصن زوفى. ويؤكل لحمه مع خبزٍ فطير، أي من دون خمير، وأعشابٍ مرّة. ويجب ألاّ يُكسر عظم الحمل الفصحيّ وألاّ يُطبخ لحمه، بل يؤكل مشويًّا. وتُكرع الخمر معه. وحُدِّدَ عدد الكؤوس التي يجب شربها أثناء تلك المأدبة المقدّسة، وقُرِّرَ أن تحوي الكأس ثلثها خمرًا وثلثاها ماءً. أمّا عادة تناول الفصح وقوفًا فقد أسقطها اليهود، على ما يبدو، وأصبحوا يأكلونه متكئين رمزًا إلى الحرّيّة التي نالوها بعد خروجهم من مصر.

في بداية الطعام، تُغمس لُقمة من خبز الفطير في مرقٍ أحمر وتؤكل، ثمّ يشرب المجتمعون الكأس الأولى ويتلون صلاة البركة والمزمور ١١٤ الذي يروي خروج الشعب من مصر. ثمّ يشربون جرعة من الماء المالح لتذكّر الدموع التي ذرفها أجدادهم، ثمّ يؤكل الحمل الفصحيّ مع

الأعشاب المرّة من سعتر وغارٍ وحبق... تذكارًا لمرارة العيش في العبوديّة. وعند مرور الكأس الثالثة، وهي كأس البركة، يرتّل المجتمعون أناشيد التهليل من المزمور ١١٥ إلى ١١٨ «لا لنا يا ربّ لا لنا، بل لاسمك أعطِ المجد من أجل رحمتك وأمانتك». وعندما يصلون إلى «مباركٌ الآتي باسم الربّ» تُمرَّر الكأس الرابعة وهي الأخيرة.

ورد في التلمود أنّ عيد الفصح طيّب كالزيتون، وينبغي أن يتداعى السقف عند نشيد «هلّل». وكانت طقوسه مفروضة على كلّ يهوديّ. فمَن ليس بوسعه شراء الحمل والخمر والأعشاب المرّة، تُقدّم له مجّانًا. فالفصح عيد الفرح، فرح التحرّر من العبوديّة، وعلامة الفرح المأدبة وما فيها من لحمٍ وخمر. لذلك اختاره يسوع ليعبّر فيه عن رسالته المحرّرة، والفرح الذي يسعى إلى نشره في العالم. وتبنّت الكنيسة ذلك الاختيار، وسمّت يوم قيامة المسيح فصحًا، لأنّ البشريّة «تعبر» بقوّة تلك القيامة من موت الخطيئة إلى حياة النعمة.

الفصل الخامس عشر

بيت الله

□ الهيكل كما عرفه يسوع

يختلف الهيكل الذي صلّى فيه يسوع عن الذي بناه الملك سليمان، والذي ورد وصفه بدقّة في سفر الملوك الثاني. لأنّ البابليّين خربوا هيكل أورشليم في العام ٥٨٦ ق.م. ولم يتركوا فيه حجرًا على حجر. وعندما عاد المسبيّون من الجلاء، بنوا هيكلًا آخر على أنقاض الأوّل، وكان البناء بسيطًا متواضعًا. وقام هيرودُس الكبير بإصلاح ذلك البناء وتوسيع رقعته، ودامت أعمال الترميم فيه حتّى العام ٦٤م. وبعد بضعة أعوام، شبّت حرب اليهود فخُرِّبَ الهيكل ثانيةً وللأبد.

شغّل هيرودُس الكبير أكثر من عشرة آلاف عامل لإعادة بناء الهيكل. وجلب له أطنان الموادّ الأوّليّة آملًا أن يحقّق نبوءة النبيّ حجّاي: «وسيكون مجد هذا البيت الأخير أعظم من الأوّل» (حجّاي ٢/ ٩). كان منظر أسواره من الخارج يشبه المعابد البابليّة. أمّا الداخل، فبُني على الطراز الرومانيّ. فبدا أعظم من هيكلَي بعلبكّ وتدمر. يعلو جدرانه رخام منقوش مذهّب، تبرز من أعلاها سنان رماحٍ لمّاعة كي لا تحطّ الطيور عليها.

يتألّف الهيكل من باحة كبيرة اسمها باحة الوثنيّين. يمكن سكّان أورشليم أن يدخلوها من أربعة أبوابٍ في السور الغربيّ أو من بابين في السور الجنوبيّ. أمّا القادمون من قيصريّة، كيهود الشتات الذين يأتون إلى فلسطين عن طريق البحر، فيدخلون من باب الغنم الذي في السور الشماليّ

دون أن يُضطَرّوا إلى دخول المدينة أوّلًا. وسور الهيكل الشرقيّ جزءٌ من سور المدينة وفيه بابان يُدعى أحدهما الباب المذهّب. من هذين البابين دخل يسوع الهيكل حين كان يأتيه قادمًا من أريحا أو بيت عنيا، أو خرج قاصدًا جبل الزيتون. يبلغ طول باحة الوثنيّين حوالى ٢٢٥ مترًا. وترتفع بالقرب من أسوارها في الداخل صفوف أعمدة ذات تيجان مزخرفة على الطريقة الكورنثيّة. يبلغ طول كلّ عمود حوالى أحد عشر مترًا، ويعلوها سقف خشبيّ من الأرز يتّصل بالسور مكوّنًا أروقة. ويُطلَق على الرواق الجنوبيّ اسم «الرواق الملكيّ»، وفيه صفّا أعمدة. أمّا الرواق الشرقيّ ففيه صفّ أعمدة واحد، ويُدعى «رواق سليمان».

يجتمع في تلك الأروقة معلّمو الشريعة، وترتفع أصواتهم في المجالات اللاهوتيّة، ولا تطغى عليها إلاّ صيحات باعة الحيوانات الصالحة للذبائح من خرافٍ وعجول وتيوس وثيران وحمام ويمام، ونداءات الصيارفة، كلّ يروّج بضاعته ليجذب الزبائن إليه. وكان اللاويّون يبيعون في باحة الوثنيّين الملح والطحين والخمر والبخور والزيت، وهي من لوازم التقادم المقدّسة. أمّا الكهنة فيجلسون كما يجلس موظّفو المكاتب، فيأتيهم المؤمن ويبتاع منهم ختمًا يتفاوت سعره بتفاوت ثروته ودرجة إيمانه وقدرته على المساومة. فهناك ختم العجل وختم الجدي وختم الخروف وختم الخاطئ... فيأخذ لقاء ذلك عجلًا أو جديًا أو خروفًا أو ثورًا. وكان الكهنة يتعهّدون بأنفسهم شراء البهائم المقدّسة وبيعها، ويساومون في أسعارها بكثيرٍ من المشادّة والصياح. وبسبب موقع الهيكل، يمكن المرء أن يصادف باعة أو فلاّحين يمرّون من باحة الوثنيّين قادمين من الريف، ينقلون منتوجاتهم إلى المدينة. لأنّ العبور من الهيكل هو أقصر الطرق لهم (مرقس ١١/١٦). كانت تلك الباحة أشبه بالسوق منها بمكانٍ للصلاة. لذلك ثارت ثائرة يسوع وطرد الباعة منها (يوحنّا ٢/ ١٣-٢٢).

سُمّيَت تلك الباحة باحة الوثنيّين لأنّه يمكن أيّ شخصٍ أن يدخلها،

وثنيًّا كان أم كافرًا، نجسًا أم مطرودًا. ويتردّد الناس إليها ليتنزّهوا أو ليعقدوا الصفقات التجاريّة أو ليتسلّوا. وعلى الرغم من الوصف الذي أدرجناه أعلاه، كان يُمنع أن يدخل إليها مَن يحمل عصا أو يلبس حذاءً قذرًا أو يحمل في جيبه عملة نجسة أو أن يبصق على الأرض.

يقع حَرَم الهيكل في وسط باحة الوثنيّين، وهو موجّهٌ من الغرب إلى الشرق، ويرتفع بمقدار خمس عشرة درجة. وعلى كلّ عمودٍ من أعمدته كُتِبَت عبارة باللاتينيّة واليونانيّة تقول: «مَن يُمسَك يكون مسؤولًا عن نفسه تحت طائلة عقاب الموت»، أي يُمنع دخول الوثنيّين إلى ذلك المكان. ولحَرَم الهيكل ثلاثة عشر بابًا أحدها هو الباب الحسَن الذي وجد بطرس عنده مُقعدًا يستعطي فشفاه (أعمال ٣/ ٢). تقود الأبواب إلى باحة النساء وطولها ٦٠ مترًا وفيها ١٣ صندوقًا للتبرّعات من أجل وفاء النذور أو مصاريف الهيكل كالخشب للمحرقات والبخور. بالقرب من تلك الصناديق، رأى يسوع الأرملة تتبرّع بفَلسيها فلفت أنظار تلاميذه إلى أهمّيّة ما فعلته (مرقس ١٢/ ٤١). وفي زوايا باحة النساء أربع حجراتٍ واسعة، أو أربع باحات صغيرة، منها للناذرين والبرص الذي برئوا من مرضهم، ومنها مستودع لخشب المحرقات والخمر والزيت.

يصعد الرجال من باحة النساء خمس عشرة درجة نصف دائريّة منخفضة الارتفاع، فيصلون إلى باحة الرجال أو «باحة الإسرائيليّين». والباب المؤدّي إلى تلك الباحة رائع. إنّه باب نيقانور، ذلك الثريّ اليهوديّ الإسكندريّ الذي قدّمه إلى الهيكل وفاءً لنذرٍ قطعه على نفسه في أثناء غرق سفينته. إنّه باب من البرونز، يحتاج إلى حوالى عشرين رجلًا لفتحه أو إغلاقه. وله صرير شديد يسمعه جميع سكّان أورشليم في الصباح فيعلمون أنّ النهار قد بدأ. يبلغ طول باحة الرجال ٦٠ مترًا وعرضها خمسة أمتار وفيها ثلاث درجاتٍ تؤدّي إلى الأقداس. في أعلى تلك الدرجات، يقف رئيس الكهنة ليبارك الشعب.

يبلغ طول الأقداس ٨٠ مترًا وعرضه ٦٠، وفي جانبيه الشماليّ

والجنوبيّ صالات منها صالة الحجارة المنحوتة التي يجتمع فيها السنهدريم. وصالة النبع التي يؤتى منها ماء التطهير، وصالاتٌ أخرى لتخزين الخشب والبخور أو اسطبلات لبهائم الذبائح. في تلك الباحة أيضًا حوض الوضوء ومذبح من حجارة غير منحوتة تتّصل به قنوات تصريف الدم المسفوك. ويقدّم الكهنة الذبائح على ذلك المذبح الضخم، الذي يصل طوله إلى ١٤ مترًا وعرضه إلى ٤ أمتار. يمكننا أن نتخيّل الجوّ الذي يسود ذلك المكان: حيواناتٌ من جميع الأنواع مربوطة إلى الأعمدة الخشبيّة الثمانية بانتظار اقتيادها إلى مكان الذبح، وذبائح محمولة، بعد تصفية دمها، إلى طاولاتٍ من الرخام، لتُقطّع وتُلقى أحشاؤها في النار.

ترتفع من تلك الباحة ١٢ درجة تقود إلى الأقداس. وهناك لا نجد بابًا، بل بوّابة. على تلك البوّابة، علّق هيرودُس الكبير النسر الرومانيّ الذهبيّ الذي أثار استياء المؤمنين. في ذلك المكان، تختفي الأصوات، ويشعر الإنسان بأنّه يقترب من الله. صُنِعَت بوّابة الأقداس من خشب الأرز وطُعِّمَت بزخرفةٍ ذهبيّة تصوّر الكرمة، رمز الخلق الإلهيّ. وهي تظلّ مفتوحة طوال النهار، وحجاب بابليّ مطرّز يستر المدخل. ولا يحقّ للكهنة الذين يقومون بالخدمة أن يزيحوا ذلك الحجاب عندما يدخلون الأقداس. إنّه الحجاب الذي تمزّق حين أسلم يسوع الروح (متّى ٢٧/ ٥١).

يتألّف الأقداس من صالة تحيط بها ٣٨ غرفة في ثلاث طبقات تُستعمل للسكن والأعمال المكتبيّة، وجدرانها مغطّاة بخشب نفيس. وفي الأقداس ستارٌ آخر يحجب النظر وصالة لها نوافذ وفيها الطاولة التي يوضع عليها التقادم والشمعدان ذو الفروع السبعة، ومذبحٌ مغطّى بالذهب يُحرق البخور عليه مرّتين في اليوم. على ذلك المذبح كان زكريّا يقدّم البخور حين ظهر له ملاك الربّ يبشّره بمولد يوحنّا. وفي وسط الصالة قدس الأقداس. إنّه مساحةٌ فارغة ليس فيها نصب تذكاريّ ولا أيّ شيء. إنّه سرّة العالم كما يقول اليهود. يدخل إليه رئيس الكهنة مرّة واحدة في

السنة ليكون أمام الله اللامرئيّ، وذلك في يوم الغفران. لا شكّ في أنّ منظر الهيكل سلب ألباب المؤمنين حتّى إنّ تلاميذ يسوع عبّروا لمعلّمهم عن إعجابهم به (مرقس ١٣/ ١-٢).

□ ليترجيّات الهيكل

يأتي اليهود إلى الهيكل لتقديم الذبائح والصلاة. ومن خلالهما، يشكر المؤمن ربّه على الخيرات التي أعطاه إيّاها، أو يسأله غفران خطاياه، ويقدّم جزءًا من ماله إلى الربّ. ففي مثل الفرّيسيّ وجابي الضرائب يسأل الغفران. لذلك يختم يسوع مثله ويقول إنّ جابي الضرائب عاد مبرّرًا، أي لُبّي طلبه، والفرّيسيّ لا، لأنّه لم يطلب الغفران (لوقا ١٨/ ٩-١٣). وفي أثناء الصلاة، يعبّر المؤمن عن رغبته في الإخلاص للعهد مع الربّ. والذبيحة علامة ذلك العهد منذ أيّام إبراهيم.

يمكننا تصنيف التقادم في فئتين: التقادم غير الدمويّة والتقادم الدمويّة. وفي التقادم الدمويّة مستويات بحسب الحيوان المقدَّم: حمام أو يمام أو حمَل أو تيس أو كبش أو ثور. ففي تقادم الكفّارة عن الخطايا، تُترك غالبيّة لحم الحيوان للكهنة واللاويّين. أمّا التقادم غير الدمويّة، فتشمل الزيت والعطور والبخور وزهر الطحين، وهو عجين ممزوج بالعسل. وتتمّ ليترجيّة التقادم وفقًا لقواعد في غاية الصرامة. لذلك استاء الكهنة وفرح الناس حين أعلن يسوع أنّ الربّ يريد الرحمة لا الذبيحة (متّى ٩/ ١٣ ومرقس ١٢/ ٣٣).

بالإضافة إلى ذلك، يأتي المصلّون إلى الهيكل للتأمّل. ففيه أمضى سمعان الشيخ وقته ينتظر رؤية المسيح (لوقا ٢/ ٢٥-٣٥). فما إن يُسمع صرير باب نيقانور حتّى يباشر الأتقياء تلاوة صلاتهم. ثمّ يُقدَّمُ حمل الذبيحة الصباحيّة، ويتقدّم كاهنٌ إلى الفسحة التي تعلو باحة الرجال ويتلو الصلاة بصوتٍ عالٍ ويقرأ مقطعًا من الشريعة. وبعد الظهر، في حوالى الساعة الثالثة، يتلو كاهنٌ على الحضور صلاة البركة.

ولا ينحصر دور الهيكل في تقديم الذبائح والصلاة. فهو مقرّ السنهدريم الذي يقوم بدور القضاء والتشريع والحفاظ على التقليد. وفيه تتمّ إدارة الأموال الطائلة التي تُجمع من الضرائب الدينيّة أو التبرّعات. فالتلمود يقول إنّ المال الذي يُجمع من القرابين يملأ ثلاثة أجران كبيرة في كلّ مرّة.

□ المجمع بدل الهيكل

عند قراءة العهد الجديد، نلاحظ أهمّيّة دور المجمع «الكنيست» في حياة اليهود الساكنين خارج أورشليم. ففي أيّام السبي، حين فقد الشعب هيكله، درجت العادة أن يجتمع العبرانيّون يوم السبت في مكانٍ معيّن للصلاة ومناقشة الأمور الدينيّة. وبقيت تلك العادة بعد العودة من السبي، وانتشرت المجامع في كلّ مدينة وقرية داخل فلسطين وخارجها. ففي سفر أعمال الرسل، نجد أنّ ليهود الشتات مجامع في البلاد التي يقيمون فيها. وكان التلاميذ يذهبون إليها ليبشّروا بيسوع المسيح. ويُقال إنّ المجامع انتشرت حتّى في أورشليم، وبلغ عددها في أيّام يسوع حوالى ٤٠٠ أو ٥٠٠ مجمع. هذا يعني أنّ هناك عدّة مجامع في الشارع الواحد. كانت مجامع القرى تُبنى أعلى من البيوت، وبالقرب من مصادر المياه قدر الإمكان، لتسهيل القيام بالوضوء الطقسيّ. ويقول كتاب أعمال الرسل إنّ بولس خرج من باب مدينة فيلبّي إلى ضفّة نهر ظنًّا منه أنّ فيها مصلّى (أعمال ١٦/١٣).

يتألّف المجمع عادةً من صالة مستطيلة تقسمها الأعمدة إلى ثلاثة أجزاء. وبين الأعمدة والجدران مصاطب خشبيّة للنساء. وقد يُضاف إلى ذلك المبنى حجرات للتعليم الدينيّ أو للضيافة. ويحوي أحد جدران المجمع خزانة توضع فيها النصوص المقدّسة والأبواق والنفير الذي يعلن أزمنة الصوم والأعياد. وفي صدر الصالة منصّة للقراءة، مَن ينظر إليها يكون نظره موجّهًا نحو أورشليم. وفي المجمع مقاعد يتنافس الناس في

الجلوس على الصفوف الأولى منها. لهذا سخِر يسوع من الفرّيسيّين الذين «يحبّون المقعد الأوّل في المآدب، وصدور المجالس في المجامع» (متّى ٢٣/٦)، كان الناس يبكّرون إلى المجمع ليجلسوا عليها، أو ليدفعوا مالًا لخادم المجمع كي يحجزها لهم. وقبل بداية الصلاة، تُرشّ الأرض بماء النعنع لتعطير الجوّ.

يدير شؤون كلّ مجمع مسؤول يُدعى رئيس المجمع. فيائيرس، الذي شفى يسوع ابنته، كان رئيس مجمع كفرناحوم (مرقس ٥/٢٢). ويعاون الرئيس مجلس ملّة يقرّر قبول الموعوظين، ويدير الأمور الماليّة، ويعيّن القضاة المحلّيّين ومعلّمي الديانة، ويسوّي المشكلات التي قد تحدث بين أعضاء الجماعة. وإلى جانب المجلس هناك الخزّان أو الخادم. إنّه رجل جميع الأشغال. ينظّف المجمع ويحرسه وينفّذ قرارات مجلس الملّة، ويعلّم الأطفال حين يغيب معلّمهم. أمّا مهمّة جمع التبرّعات والتعليم الدينيّ والترتيل والعزف في أثناء الصلاة، فتقع على عاتق أعضاء الجماعة.

□ الصلاة في المجمع

طقوس الصلاة في المجمع بسيطة جدًّا. فأبوابه تُفتح ثلاث مرّات في اليوم لمَن يريد الصلاة. وفي يومَي الاثنين والخميس، تُعقد فيه جلسات القضاء. فيدير الصلاة شخصٌ أو ثلاثة أشخاص بحسب المناسبة. أمّا في يوم السبت، فيديرها سبعة أشخاص وتبدأ وقوفًا باتّجاه أورشليم. فيتلو المصلّي صلاة «اسمع يا إسرائيل...» وغيرها، بينما يتمتم الناس صلواتهم بصوتٍ خافت. وفي النهاية، يقول الجميع: آمين، تعبيرًا عن اشتراكهم في الصلاة المتلوّة. ويأخذ الخادم بعد ذلك لفافةً من الخزانة ويرفع عنها الأغطية ويقدّمها إلى أوّل الرجال السبعة فيقرأ مقطعًا من النصّ. فإذا أخطأ في القراءة، يصحّح له الخادم خطأه. وإذا وصل إلى مقطعٍ مضحك، أو يثير بلبلة الحضور، يوقفه. وكلّ آيةٍ تُقرأ بالعبريّة تترجم

مباشرة إلى الآراميّة ليفهمها الجميع. ويحقّ للقارئ أن يختار آيتين أو ثلاث آيات ويشرحها، كما فعل يسوع في مجامع الجليل، وخصوصًا في الناصرة (لوقا ٤/ ١٤-٢٢). ويتقدّم رئيس المجمع في نهاية الشرح ويصلّي صلاةً أو يرنّم مزمورًا أو نشيدًا، ثمّ ينفضّ الجمع. وفي أثناء الخروج، يضع كلّ واحد قسطًا من المال لجامعي التبرّعات، الذين يهتمّون بالفقراء، أو يقدّم أشياء أخرى كالخبز أو الحبرب. وتدوم الصلاة يوم السبت حوالى الساعة.

كان للمجمع دورٌ هامّ في حياة اليهوديّ في أيّام يسوع. فجميع الناس يذهبون إليه من دون استثناء، سواءٌ للصلاة أو للشؤون الإداريّة أو القضائيّة. ومَن يُطرد منه يُهان إهانة كبيرة. وقد أشار القدّيس يوحنّا إلى ذلك الأمر في أماكن كثيرة من إنجيله، وبيّن أنّ اليهود اتّفقوا على «أن يُفصل من المجمع مَن يعترف بأنّه (يسوع الناصريّ) هو المسيح» (يوحنّا ٩/ ٢٢ و١٢/ ٤٢ و١٩/ ٣٨). وظنّ بعض الباحثين أنّ هناك عداوة أو منافسة بين الهيكل والمجمع. لكنّ الدراسات التاريخيّة تبيّن عكس ذلك. فالمجمع تمهيد للهيكل. إنّه مكانٌ للصلاة والترنيم، في حين الهيكل هو مكان التقادم والذبائح. ولعلّ القدّاس عند المسيحيّين يجمع بين كلتا الطريقتين في العبادة، أي الصلاة والذبيحة.

الفصل السادس عشر

خلاصة الإيمان

□ أوّل الوصايا

تحاول غالبيّة ديانات العالم، في فترة من فترات تأسيسها أو تطوّرها، أن تلخّص جوهر إيمانها في عباراتٍ مقتضبة أو نصٍّ قصير. فكما أنّ للإسلام خمسة أركان، وللبوذيّة أربع حقائق، وللمسيحيّة قانون إيمان، كذلك للدين اليهوديّ واجبات أساسيّة هي الصوم والصلاة والصدقة. وترتكز تلك الواجبات على وصايا جوهريّة في الإيمان اليهوديّ. ففي أحد الأيّام، سأل واحد من الكتبة يسوع قال: «ما الوصيّة الأولى في الوصايا كلّها؟» فأجاب يسوع: «الوصيّة الأولى هي: «إسمع يا إسرائيل: إنّ الربّ إلهنا هو الربّ الأحد...» (مرقس ١٢/٢٨-٢٩). وقد أعطى يسوع شرحًا وافيًا لتلك الوصيّة، فبيّن كيف يمكن الإنسان أن يعبد آلهةً أخرى غير الأصنام الحجريّة كالمال أو السلطة أو الشهوة...

في أيّام يسوع، كان الإيمان اليهوديّ يُختصر في عبارة واحدة وهي: «الله أحد». وأجمع معلّمو الشريعة على أهمّيّتها فقالوا: «إنّ إدانة عبادة الأصنام تفوق في أهمّيّتها جميع وصايا التوراة». وأقرّ مقال السنهدريم أنّه يمكن المؤمن أن يخالف جميع وصايا التوراة إن تعرّضت حياته للخطر، كأكل لحم الخنزير أو عدم حفظ السبت، لكنّه لا يحقّ له في أيّ حال من الأحوال أن يخضع لعبادة الأصنام. لذلك نرى مسؤولين مثل هيرودُس أغريبا أو برنيقة يتدخّلون، متحدّين قرارات رومة في بعض الأحيان، لحماية عبادة الإله الواحد، على الرغم من سلوكهم المتلوّن بالوثنيّة، كما

رأينا كيف ثار الشعب على هيرودُس الكبير عندما علّق النسر الرومانيّ على نجَفَة باب الأقداس في الهيكل، وعلى بيلاطس حين دخل جنوده أورشليم وعلى دروعهم صور الإمبراطور.

لم يعتمد اليهود في إيمانهم بالإله الواحد غير المرئيّ على التفكير العقليّ أو الاستنتاج المنطقيّ، كما فعل الفلاسفة، بل على الوحي الإلهيّ. لذلك لم تهتمّ نصوص العهد القديم أو الأناجيل بموضوع إثبات وجود الله. فالأمر بالنسبة إليهم مسلّم به. الربّ حاضر في قدس الأقداس والطبيعة التي خلقها وقلب الإنسان. وعدم الإيمان بذلك الأمر جهل وغباء (مزمور ١٤ وإرميا ٥/١٢). وعلى الإنسان المؤمن أن يثق بالله في جميع الظروف. فتعبير «يا قليلي الإيمان»، الذي ورد في الكتابات التلموديّة أو تعاليم يسوع، لا يقصد مَن يشكّكون في وجود الله أو قدرته، بل مَن يبالغون في اهتمامهم وقلقهم لشؤون الغد. أمّا كلمة آمين، المستعملة في جميع الديانات التوحيديّة، فتعبّر عن الإيمان بالربّ والخضوع له. ولو أردنا تفسيرها، لوجدنا لها معنيَيْن. الأوّل هو: «فليكن الأمر كذلك» والثاني: «حقًّا». فكلمة آمين تعني الإيمان بالله والخضوع لمشيئته. وتندرج الصلاة في سياق هذين المعنيَيْن. أمّا طريقة الصلاة، فعليها أن تكون كما يقول كتاب «عقيدة الآباء» اليهوديّ: «لا تكونوا كالخدم تنتظرون البخشيش دومًا. إخدموا الله مجّانًا». لذلك عُدّت صلاة التسبيح أجمل الصلوات التي تُرفع إلى الربّ.

□ مَن هو إلٰهك؟

كان اليهود في أيّام يسوع يمتنعون عن ذكر اسم الله. وقد رأينا في طريقة نسخ الكتاب المقدّس كيف يترك الكتبة مكان اسم الربّ فارغًا، فيأتي كاتب قام بجميع طقوس الوضوء، ويدوّن الاسم المقدّس بحبر من لونٍ آخر، لينتبه القارئ ويتحاشى قراءته. ففي التقليد اليهوديّ، كشف الله عن اسمه لموسى حين ظهر له في العلّيقة بجبل حوريب. والاسم مؤلّف

من أربعة أحرف وهو يهوه، أي أنا الكائن، أو أنا الموجود، أو أنا هو. ولا أحد يدري كيف تُشكَّل تلك الكلمة. وفي القرن الثالث قبل الميلاد تقريبًا، درجت عادة عدم لفظ ذلك الاسم، واستبداله بـ«أدوناي» والتي درج العرب على ترجمتها بكلمة «الربّ». وفي الأعياد، كان الناس يسمعون كبير الكهنة يتضرّع باسم الشعب ويقول: «أيّها الاسم العظيم، قد خطئتُ أمامك». أو يبارك ويقول: «فلتتباركوا من السماء». وهكذا، تعدّدت صفات الله في تعابير سكّان فلسطين. فهو العليّ، القدّوس، الأحد، القدير، العادل... كلّ ذلك ليتفادى المؤمن ذكر اسم إلهه، لأنّ الاسم يحدّد المسمّى. والربّ مطلق لامحدود كآلهة الوثنيّين مثل زُفس وأرتميس وأدونيس وفينوس وميترا. وقد حافظ المسيحيّون على ذلك التقليد، أي إحاطة اسم الربّ بشيءٍ من الاحترام والجلالة. فاستعملوا صفات الله للإشارة إليه، وكتبوا أوّل حرفٍ من اسم الأقنوم الأوّل في الثالوث بطريقةٍ تخالف سائر الحروف. ففي اللغات الأجنبيّة، يُكتَب الحرف الأوّل كبيرًا (Capital). وفي العربيّة، حيث لا وجود للحروف الكبيرة، يُكتب بالمدّ، فيُقال: «الآب» بدل «الأب»، ليتميّز عن الأب الأرضيّ الذي تشير الكلمة إليه.

لقد أثّر ذلك الموقف من لفظ اسم الله على العقليّة الدينيّة. فالربّ إله متسامٍ، وهو قريب في الآن نفسه لأنّه أقام عهدًا مع شعبه. أظهر قدرته وعظمته في تاريخ خلاص الشعب، وبيّن في الآن نفسه عطفه ورحمته. وهكذا، أخذ الله في عقليّة الناس هويّتين وهما: البعد والقرب، أو العدل والرحمة. إنّه عادل في حكمه على البشر، ورحيم في الآن نفسه. فلولا الرحمة لما ثبُتَ إنسانٌ أمامه، كما تقول المزامير. وحين يتأمّل العبرانيّ تاريخ شعبه، يلاحظ أنّ الله لم ينفّذ حكمه على الخطأة تمامًا، وأنّه يسامح في نهاية المطاف. وفي أيّام يسوع، كما في أيّامنا، انقسم الناس إلى فئتين، أو كان هناك تيّاران من الإيمان. الأوّل يدعو النفس إلى التقرّب من الربّ بثقة، والثاني ينادي بمخافة الله وخشيته. لذا، ليس من العدل أن

يُقال إنّ الله في العهد القديم إله خوف وتخويف، وفي العهد الجديد إله محبّة وتسامح.

لقد أدرك الشعب العبرانيّ، بفضل العهد بينه وبين الربّ، أنّ الله أبوه. اختاره بين الأمم وغمره بعطفه وحنانه. وتعبير «أبانا» الذي ورد في الصلاة التي علّمها يسوع لتلاميذه محفور في ذاكرة الناس، لأنّهم لم يكفّوا عن قراءة أشعيا النبيّ (أشعيا ٦٣/ ١٦ و٦٤/ ٧ وحكمة ٢/ ١٦-١٨). وقد جاء ذلك التعبير في كثير من أقوال معلّمي الشريعة. «علينا ألاّ نتصرّف تجاه الله الآب كأبناء مدلّلين». وفي التقليد التلموديّ، يبحث الله عن ابنه الخاطئ بهذه الكلمات: «هل يخجل الابن من العودة إلى أبيه؟». ومع ذلك، يمكننا القول إنّ تيّار مخافة الربّ كان سائدًا في أيّام يسوع، لأنّ «مخافة الربّ رأس العلم» (أمثال ١/ ٧) و«طوبى للرجل الذي يتّقي الربّ» (مزمور ١١٢/ ١). والمخافة لا تعني الخوف بقدر ما تعني الخشية والتقوى. لذلك سُمّي الوثنيّون القريبون من الإيمان اليهوديّ: «الذين يتّقون الله». ولا يُفهم الجزء الثاني من أوّل الوصايا، أي «أحبب الربّ إلهك بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكلّ قوّتك» إلاّ من خلال ذلك المنظار.

لم يقبل كثير من المفكّرين اليهود نظريّة ابتعاد الله عن عالم البشر. فجعلوا الحكمة مظهرًا من مظاهر الإيمان (الجامعة ١/ ١٢-١٨). الحكمة هي معرفة تصوّفيّة لله وخضوع تامّ لمشيئته. لكنّ معلّمي الشريعة رفضوا تلك النظريّة، وعدّوا الحكمة معرفة التوراة والشريعة. ومن المفكّرين مَن تكلّم على الحكمة وكأنّها شخص الله، ويظهر ذلك واضحًا في كتاب الحكمة بالترجمة السبعينيّة. ومن الكتب غير القانونيّة - كتاب أخنوخ مثلًا - مَن جعل من الحكمة وسيطًا بين الله والبشر. وإذ لم تجد لنفسها مقرًّا في عالمنا، أقامت عند الملائكة.

لا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ فكرة الملائكة قديمة جدًّا عند العبرانيّين. فإبراهيم استقبل الملائكة الثلاثة عند بلّوطة ممرا وكذلك لوط ابن أخيه الذي كان يقيم في سدوم (تكوين ١٨؛ ١٩)، ويعقوب رأى

الملائكة بالحلم في حاران (تكوين ٢٨/ ١٠) وفي محنائيم (تكوين ٣٢/ ٢). وزادت أهمّيّة الإيمان بالملائكة بعد العودة من السبي، ربّما بسبب التأثير الإيرانيّ. ويشير كتاب أعمال الرسل إلى أنّ الفرّيسيّين يخالفون الصدّوقيّين الذين يرفضون الإيمان بها (أعمال ٢٣/ ٨). ويخبرنا فلافيوس يوسيفس أنّ الأسّينيّين عدّوا علم الملائكة من العلوم السرّيّة الممنوع إعلانها للعامّة. كان الشعب يتكلّم كثيرًا على الملائكة، ويصف أسلحتها ومراتبها، ويردّد أسماءها: ميخائيل (مَن مثل الله) وجبرائيل (جبروت الله) وروفائيل (رأفة الله) ورجئيل (الرجاء في الله) وفنوئيل وسراقئيل... ولم يجهل وجود الملائكة الأشرار بزعامة الشيطان. فإذا كان اللّه بعيدًا عن الناس بحسب الإيمان الشعبيّ، فلا بدّ من وجود وسطاء. ولعلّ مسيح الربّ أفضلهم.

□ الوصيّة الثانية تشبه الأولى

ترتبط الوصيّة الأولى، ذات المغزى الروحيّ، بأخرى تشبهها ومغزاها أخلاقيّ. فمنذ أيّام موسى، حين أنزل الله وصاياه العشر على جبل سيناء، لم يكفّ الشعب العبرانيّ عن ربط الإيمان الروحيّ بالشريعة الأخلاقيّة. وسعى الأنبياء إلى تعميق الحياة الروحيّة لكي يتخطّى الإيمان حدود الشريعة الطبيعيّة الموسويّة. وبعد العودة من السبي، ألّف معلّمو الشريعة قوائم سلوكيّة طويلة بالاعتماد على التوراة، ليتمكّن الإنسان من العيش بحسب إرادة الله.

في أيّام يسوع، بلغت الشريعة أعلى مستوياتها. فقد أجمع المعلّمون على أنّ إكرام الله يتمّ في الحياة الطاهرة المقدّسة. «كونوا قدّيسين فإنّي أنا قدّوس» (أحبار ١١/ ٤٤ و١٩/ ٢ و٢٠/ ٢٦ و٢١/ ٦). وعلى أساس ذلك المبدأ وضِعَت جميع التشريعات. فلم تكتفِ بالنهي: لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق... بل أشادت بالصدق والأمانة والعفّة. لذلك على المرء أن ينتبه إلى وثبات نفسه أكثر من انتباهه إلى أفعاله. لأنّ الإناء ينضح بما فيه.

فالنفس الطاهرة لا تفعل إلاّ أفعالًا طاهرة. لهذا السبب قال يسوع: «مَن نظر إلى امرأةٍ بشهوة، زنى بها في قلبه» (متّى ٥/ ٢٧). فعبّر في ذلك القول عمّا ردّده مرارًا بعض معلّمي الشريعة في عصره. فسمعان بن يحيى تكلّم على خطيئة النظر، والفكر الدنِس الذي يدفع إلى الزنى. وتأتي خطيئة الزنى في مقدّمة الممنوعات الأخلاقيّة. وقد رأينا موقف الشريعة من الزناة والشذوذ الجنسيّ. ولم تُدخِل الشريعة المسيحيّة إلى القوانين الموسويّة في شأن الطهارة إلاّ تعديلاتٍ طفيفة كإلغاء قانون الخلافة في الزواج، أي زواج الأخ بأرملة أخيه، إن لم يكن للأخ المتوفّى نسل منها، وتعدّد الزوجات، وتصعيب مسألة الطلاق، وأهمّيّة العفّة الدائمة.

أمّا الوصيّة الثانية التي تشبه محبّة الله فهي: «أحبب قريبك حبّك لنفسك» (أحبار ١٩/ ١٨). كانت الشريعة الموسويّة تسعى إلى إلغاء كلّ ما يمكنه أن يسيء إلى الآخرين أكثر من سعيها إلى تحقيق الكمال في حياة الفرد. ونجد صدًى لذلك المبدأ في كتب كثيرة مثل أيّوب والمزامير والجامعة وأقوال الأنبياء وتعاليم التلمود. فغاية تلك الوصيّة هي خلق جوّ محبّة بين أعضاء الجماعة الواحدة. ألم تفرض الشريعة على الدائن الذي يأخذ معطف مدينه أن يردّه إليه في أثناء الليل؟ أو على الحصّادين أن يتركوا السنابل التي على أطراف أراضيهم للفقراء؟ كانت الصدقة واجبًا دينيًّا. فمعلّمو الشريعة يقولون: «إفدِ خطاياك بمساعدة الفقراء»، أو «أعطِ البؤساء حقّهم. لأنّ كلّ ما تملكه هو من الله ويخصّ الجميع»، أو «سخاء الكريم رضى الله». على جميع الناس إذًا أن يعطوا الصدقة، حتّى المتسوّلين أنفسهم. لكنّ اليهود كانوا يرفضون صدقة جباة الضرائب، لأنّ المال الذي يعطونه حرام. فكان الجباة يتصدّقون عن طريق وسيط.

في أهمّيّة الصدقة، يروي الناس قصّة خروفين أرادا عبور النهر. الأوّل أعطى صوفه قبلًا فعبر بسهولة، والثاني احتفظ به فثقُل جسمه وغرق. وتلحّ النصوص التلموديّة على أن تُعطى الصدقة خفية. لأنّه «خير للمرء أن يرمي نفسه في لهيب النار من أن يهين بائسًا بالإحسان إليه أمام

الناس». لهذا السبب، أنّب يسوع المرائين الذين يعملون الخير علنًا (متّى ٦/ ١-٤).

□ مَن هو قريبي؟

رأينا في الفصول السابقة كيف انغلق اليهود في فلسطين على ذواتهم، وكيف عدّوا أنفسهم خير أمّة على وجه الأرض. فتباهوا وتكبّروا وانعزلوا عن الشعوب الأخرى. وسبّب ذلك الأمر خلافًا حادًّا بين الفرّيسيّين والصدّوقيّين. كيف لا يكون الأمر كذلك والشعب يقرأ في كتابه بلا انقطاع: «وأيّ أمّة مثل شعبك إسرائيل؟ (١ أخبار ١٧/ ٢١)، «وأنا (الربّ) أجعله (الشعب) بكرًا فوق ملوك الأرض عليًّا» (مزمور ٨٩/ ٢٨)، «وقال لي (الربّ): أنت عبدي يا إسرائيل فإنّي بك أتمجّد» (أشعيا ٤٩/ ٣). ويقول تقليد يهوديّ إنّ الله، قبل أن يختار العبرانيّين شعبًا له، نظر إلى باقي الشعوب فوجد واحدهم مجرمًا والآخر فاجرًا والثالث كذّابًا... أي أنّ شعب إسرائيل خالٍ من العيوب. وشجّع تلك النظرة العنصريّة إلى الشعوب الأخرى حال اليهود في أيّام يسوع. فقد كانوا جماعة صغيرة تحيط بها الوثنيّة من كلّ مكان وتهدّد أمنها وإيمانها. ولا شكّ في أنّهم وجدوا في الكتاب المقدّس كلّ ما يدعّم موقفهم. لأنّ النصوص تنسب جميع أنواع الخطايا من دنس وعنف وإجرام إلى الشعوب الأخرى، وما ارتكبها شعب إسرائيل إلاّ حين تعاطف معها وخالطها. وردّ آباء الكنيسة على تلك النظريّة بنظريّة أخرى مناقضة، فقالوا بما معناه أنّ الله اختار العبرانيّين أضعف شعوب الأرض ليُظهر قوّته، وأكثرها فسادًا ليبيّن قداسته.

لم تكن فكرة الشعب المصطفى عقيدة كلّ يهوديّ. فقد آمن بعضهم بأنّ الله يحبّ جميع الشعوب. والكتاب المقدّس يثبّت ذلك الإيمان في أكثر من آية. فحين دعا الربّ إبراهيم وعده بأن تتبارك به جميع عشائر الأرض (تكوين ١٢/ ٣). وأرسل الله يونان ليخلّص أهل نينوى. والمزامير

ترنّم «رحمته تشمل جميع الخلائق». ويقول المعلّم هلال، معاصر يسوع: «أحبّوا رفاقكم في الأرض وأحبّوا جميع المخلوقات، واصحبوهم إلى التوراة».

كان وجود الوثنيّين بجوار اليهود في فلسطين يطرح معضلة لا يمكن حلّها وفقًا لمبدأ الفرّيسيّين، أي بالابتعاد عنهم وعدم مخالطتهم أو التعامل معهم. كما أنّه يعسر على يهود الشتات أن يعيشوا من دون التعامل مع أبناء الديانات الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، لم ينسَ اليهود أولئك الذين «يتّقون الله». فسفر أعمال الرسل يشير إلى أنّ أعدادهم كبيرة (أعمال ٢/ ٩-١١).

كانت مسألة التعامل مع الوثنيّين من الموضوعات الشائكة في الجدالات اللاهوتيّة في أيّام يسوع. وكثيرًا ما اختلف معلّمو الشريعة في تفسير الآية: «أنتَ محبّ الشعوب. جميع القدّيسين في يدكَ وهم يسجدون عند قدمك، يقتبسون من كلماتك» (تثنية ٣٣/ ٣)، فأعلنت غالبيّتهم أنّ المقصودين هنا هم شعوب الأسباط الاثنَي عشر. لكنّ آخرين شرحوها اعتمادًا على آيةٍ أخرى: «مَن حفظها (فرائض الربّ) يحيا فيها» (أحبار ١٨/ ٥)، وقالوا إنّ الوثنيّ الذي يحفظ الشريعة يساوي رئيس الكهنة. في سياق تلك الجدالات، سأل أحد الكتبة يسوع قال: «ومَن قريبي؟» (لوقا ١٠/ ٢٩). وقد ساند يسوع في تعاليمه دُعاة الانفتاح على الشعوب الأخرى، لأنّه لا يمكن الإله اللامحدود أن يحصر عمله في شعبٍ محدود. ففي أكثر من موقف، عبّر عن إعجابه بإيمان غير اليهود. «لم أجد مثل هذا الإيمان في أحدٍ من إسرائيل. أقول لكم: سوف يأتي أناس كثيرون من المشرق والمغرب فيجالسون إبراهيم وإسحق ويعقوب على المائدة في ملكوت السموات، وأمّا بنو الملكوت، فيُلقَون في الظلمة البرّانيّة، وهناك البكاء وصريف الأسنان» (متّى ٨/ ١٠-١٢).

☐ المسيح المنتَظَر

تُعَدّ فكرة المسيح المُنتَظَر من بين العناصر التي تختلف فيها الديانة اليهوديّة عن الديانات الأخرى السائدة في أيّام يسوع. فرجاء إسرائيل هو حلول زمن سعادة يحقّقه شخص ترسله العناية الإلهيّة فيقلب الأوضاع ويقهر الظالم وينصر المظلوم. إنّه مسيح الربّ. لقد رأى اليهود عبر تاريخهم أشخاصًا كثيرين أسعفوهم في محنتهم مثل قورتس، ملك الفرس، وبومبيوس إمبراطور الرومان... فقالوا إنّهم مسحاء الربّ. وفي أيّام يسوع، ارتبطت الفكرة المسيحانيّة بالإسكاتولوجيّة، أي العلوم الأخيريّة. حين يأتي المسيح، سيملك على العالم، ولن يكون لملكه نهاية.

كان الشعب ينتظر بفارغ الصبر قدوم المسيح. وتبيّن الأناجيل في أكثر من مقطع مقدار لهف ذلك الانتظار. فقد سأل اليهود يوحنّا المعمدان: «مَن أنت؟»، أي: هل أنتَ المسيح؟ (يوحنّا ١/ ١٩). ومن السجن، أرسل يوحنّا المعمدان تلاميذه يطرحون على الناصريّ السؤال نفسه: «أأنتَ الآتي أم آخر ننتظر؟» (لوقا ٧/ ١٩). والسامريّة قالت: «إنّي أعلم أنّ المسيح آتٍ، وهو الذي يُقال له المسيح» (يوحنّا ٤/ ٢٥). وفي هيكل أورشليم، قال اليهود ليسوع: «حتّامَ تُدخل الحيرة في نفوسنا؟ إن كنتَ المسيح، فقله لنا صراحةً (يوحنّا ١٠/ ٢٤). وعندما دخل أورشليم، بعدما أقام لعازر من بين الأموات، حمل الشعب سعف النخل ونادوا: «هوشعنا! تبارك الآتي باسم الربّ ملك إسرائيل» (يوحنّا ١٢/ ١٣).

كان الأدب اليهوديّ في ذلك العصر يعير مسألة ظهور مسيح الربّ اهتمامًا بالغًا. فكتاب أخنوخ ووصيّة آباء الأسباط الاثنَي عشر ومزامير سليمان تتكلّم على المسيح وتمنحه صفات تفوق البشر. وفي الأدب الجليانيّ يظهر المسيح في نهاية الأزمنة، وينتصر الربّ على الأشرار. فاعتقد بعضهم أنّ المُلك المشيحيّ سيدوم زمنًا محدودًا يتراوح بين ستّين

وألف سنة. ودمج آخرون الزمن المشيحيّ مع الفردوس. وهكذا، اختلطت الأفكار في أذهان الناس لكنّها أجمعت على أنّ الزمن المشيحيّ سيفتتح عصر السعادة، وسيستعيد إسرائيل بهاء مجده، ويسود عدل الله العالم كلّه. وانتشرت القصص الشعبيّة التي تروي كيف لن يحصد الحصّاد في زمن المشيح أو يجني الكرّام العنب، لأنّ الثمر سيكون دائمًا أبدًا، وستكون حبّة الحنطة بحجم خصية الثور. لكنّ الانتظار الطويل جعل تعبير «عندما يأتي المشيح (أو عندما يعود إيليّا)» يرادف ما معناه «هذا لن يتمّ أبدًا». ولم يؤمن الصدّوقيّون برجاء قدوم المشيح، ولا اهتمّ العلماء والأغنياء بالمسألة. فالتلمود لا يشير إطلاقًا إلى المشيح في أيّام يسوع. وكلّ ما ورد فيه عن الإيمان المشيحيّ يعود إلى فترة ما بعد خراب أورشليم.

يمكننا القول إذًا إنّ الشعب الفقير كان وحده ينتظر قدوم المشيح. فمنذ وقتٍ طويل، منذ وفاة النبيّ زكريّا، لم يتكلّم الربّ ولم يأتِ أنبياء. والشعب يصلّي ويقول: «آياتنا لم نعد نراها، ولم يبقَ نبيّ وليس عندنا مَن يعلم إلى متى» (مزمور ٧٤/٩). وعكف الكتبة على دراسة النصوص المقدّسة لإيجاد جواب. واستعملوا حساباتٍ معقّدة كتلك التي يقوم بها بعضهم في أيّامنا ليعرفوا موعد نهاية العالم. وظهر كثيرون أعلن كلّ واحدٍ منهم أنّه المشيح، معتمدًا على نبوءاتٍ غامضة وشروحاتٍ منحرفة لآيات الكتاب المقدّس. فآزرهم الشعب ثمّ أصيب بخيبة الأمل.

وأجمع الناس على أنّ المشيح سيظهر في أورشليم، وسيجدّد وجه الأرض. إنّه من نسل داوُد (أشعيا ١١) ومن سلالة يوسف بن يعقوب. ومَن قرأ نبوءة دانيال النبيّ يعلم أنّ المشيح سيكون ابن الله وابن الإنسان. هل سيُدعى عمّانوئيل كما يقول أشعيا (٧/ ١٤)؟ أم يشوع كما يقول إرميا؟ كيف سيقيم ملكه؟ يقول أحد المزامير غير القانونيّة المنسوبة إلى سليمان إنّ الله سيدعم ذلك الملك ابن داوُد ليطهّر أورشليم من الوثنيّين. إنّه خالٍ من الخطيئة ومملوء حكمةً وكلّيّ القدرة. سيحطّم كبرياء الخطأة كالفخّار

ويقود الصدّيقين بالعدل والسلام والمساواة. وظهر إلى جانب ذلك التصوّر النبيل للمشيح تصوّراتٌ أخرى وردت أيضًا في كتبٍ غير قانونيّة تضفي عليه صفات عنيفة، فتُبيّن أنّه سيسحق أعداءه الوثنيّين ويحطّم رؤوسهم ويكدّس جثثهم ويخرق قلوبهم بالسهام المدبّبة. فكتاب عزرا الرابع يشبّهه بالأسد المفترس. وكتاب باروك المنحول يشبّه قدومه بالزلزلة التي يتبعها حريق ثمّ مجاعة لجميع الأمم ما عدا الشعب المختار. وقد تأثّر تلاميذ يسوع بتلك التصوّرات وسألوه مرارًا متى سيأتي ملكوته؟

ومع ذلك كلّه، يمكن مَن يقرأ الكتب المقدّسة أن يميّز تصوّرًا آخر للمسيح يختلف تمامًا عن تلك التصوّرات التي ذكرناها. إنّه سيحمل آلام البشر وهمومهم ويبذل حياته فداءً عن خطاياهم. هذا ما نقرأه في صورة العبد المتألّم التي ذكرها أشعيا (٥٣/٢-١٢). وفي كلام زكريّا: «أمّا الذي طعنوه فإنّهم ينوحون عليه كما يُناح على الوحيد» (١٢/١٠). وفي سفر الحكمة: «يُقاوم أعمالنا ويلومنا على مخالفاتنا للشريعة ويتّهمنا بأنّنا نسيء إلى تأديبنا. يزعم أنّ عنده علم الله ويسمّي نفسه ابن الربّ. صار لومًا على أفكارنا، وحتّى منظره ثقُلَ علينا لأنّ سيرته لا تشبه سيرة الآخرين وسبله مختلفة...» (الحكمة ٢/١٢-٢٧). لا شكّ في أنّ عدد اليهود الذين كانوا ينتظرون مسيحًا له تلك الصورة كان ضئيلًا جدًّا، خصوصًا وأنّ بيت لحم كانت، في تلك الأيّام، من أصاغر مدن يهوذا، كما قال النبيّ ميخا (٥/١).

المراجع

المراجع الأساسيّة

الكتاب المقدّس. لا شكّ في أنّ نصوص الكتاب المقدّس هي من أهمّ الوثائق التاريخيّة القديمة، سواء في ما يختصّ بتاريخ الشعب اليهوديّ منذ مئات السنين قبل الميلاد، أو حياة الشعب وعاداته وتقاليده في أيّام يسوع. وقد اعتمدنا في سرد الآيات على الطبعة اليسوعيّة الحديثة الصادرة عن دار المشرق لما فيها من مقدّمات وحواشٍ تفسيريّة.

دانيال روبس، **يسوع في زمانه**، المنشورات العربيّة، ١٩٦٩. يعرض هذا الكتاب ما سرده الإنجيليّون عن حياة يسوع، ويحاول أن يوثّق الأخبار بما عُرِفَ عن الحياة في فلسطين والعادات والتقاليد المتّبعة والمناطق الجغرافيّة وطبيعتها. وعلى الرغم من صعوبة اللغة التي استعملها المترجم، فإنّ القارئ العربيّ يجد في هذا المؤلَّف فوائد جمّة في فهم الأجواء التي أُعلِنَت فيها البشارة.

D. Rops, *La vie quotidienne en Palestine au temps de Jésus*, Hachette, Paris, 1961. كتاب غنيّ بالمعلومات التاريخيّة، وقد اعتمدنا عليه بعض الشيء في تنظيم الفصول وعنونتها. فهو يشرح بإسهاب، لا يخلو من التكرار، عادات سكّان فلسطين وتقاليدهم، والأجواء السياسيّة والدينيّة السائدة في أيّام يسوع.

G. Theissen, *L'Ombre du Galiléen*, Cerf, Paris, 1994.

هذا الكتاب رواية ألّفها أستاذ في العهد الجديد. وقد ضمّنها حواشي تفسيريّة كثيرة تشرح الظروف السياسيّة والاقتصاديّة بفلسطين في أيّام يسوع. صدرت ترجمة بالعربيّة لهذا المؤلّف في الموصل، لكنّ المترجم أهمل الحواشي، وتصرّف بعض الشيء في النصّ الأصليّ، فأفقده قيمته العلميّة، وتحوّل إلى رواية تقويّة. وقد ترجمنا الكتاب بأمانة علميّة أدقّ، وستطبعه إحدى دور النشر قريبًا إن شاء الله.

J. Jeremias, *Jérusalem au temps de Jésus*, Cerf, Paris, 1967.

يشبه هذا الكتاب سابقيه من حيث غنى المعلومات التاريخيّة. لكنّ مضمونه لا يتعدّى الحياة الأورشليميّة، ولا يركّز في فصوله إلاّ على الجانب الاجتماعيّ والسياسيّ.

يمكننا أن نضيف إلى هذه القائمة جميع الكتب التي ذكرناها مرارًا في هذا الكتاب، وقد صدرت بكثير من اللغات الأجنبيّة، مثل مؤلّفات فلافيوس يوسيفس: **حرب اليهود وتاريخ اليهود**، وترجمات التلمود المتنوّعة.

معجم اللاهوت الكتابيّ، دار المشرق، بيروت، ١٩٩١.

Le monde de la Bible, **Bayard Presses.**

Pirot et Robert, *Dictionnaire encyclopédique de la Bible*, Brepols, Paris, 1960.

THEO., *L'Encyclopédie catholique pour tous*, Droguet-Ardant/Fayard, Paris, 1989.

W. Corswat, *Dictionnaire d'Archéologie Biblique*, Paris, 1956.

مراجع مساعدة

A.C. Bouquet, *La Vita quotidiana ai tempi di Cristo*, Roma, 1959.

P. Aron, *Les Années obscures de Jésus*, Paris, 1960.

W. Harrington, *Il parlait en paraboles*, col. «Lire la Bible», Cerf, Paris, 1967.

الفهرس

تصميم الغلاف : جان قرطباوي

الصف والإخراج : شركة الطبع والنشر اللبنانيّة
(خليل الديك وأولاده)

الطباعة : مؤسّسة دكّاش للطباعة

٥١٠-٥،١-٣١/١/٩٩

صدر للمؤلِّف في منشورات دار المشرق

- قدّيسون وشهداء يسوعيّون، سِيَر مختصَرَة (جزءان)، ١٩٩٤.

ضمن سلسلة «الموسوعة المعرفة المسيحيّة»

- الظهورات بين الحقيقة والخيال، ١٩٩٣.
- رمز السمكة عند المسيحيّين، ١٩٩٤.
- الصليب والصلب قبل الميلاد وبعده، ١٩٩٥.
- العذراء والطفل في الفنّ البيزنطيّ، ١٩٩٧.
- صورة المسيح في الفنّ البيزنطيّ، ١٩٩٧.